ماريا أنطونيتا نانيا

موعد بين الشمس والقمر

حكاية المياه والصحراء

ترجمة أماني فوزي حبشي

موعد بين الشمس والقمر

حكاية المياه والصحراء

تأليف
ماريا أنطونيتا نانيا

ترجمة
أماني فوزي حبشي

هنـــداوي

موعد بين الشمس والقمر

ماريا أنطونيتا نانيا

Liberi di credere

Maria Antonietta Nania

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ونسدور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٢ ٣٨٨٥ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإيطالية عام ٢٠١٥.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٥.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لكل من السيدة الأستاذة ماريا أنطونيتا نانيا والسيدة الدكتورة أماني فوزي حبشي.

المحتويات

شكر وعرفان	١١
أسطورة النهار والليل	٨١
العودة إلى سيوة	١٣٣
رسالة عشية يوم الكسوف	١٤٩
الخاتمة	١٦١

شكر خاص للصديق والزميل شريف رسمي على وضع مسودة ترجمة النصف الأول من هذه الرواية هدية للصديقة المؤلفة وتنفيذًا لوعد قديم بأن نتشارك معًا في ترجمة أول رواية لها.

تغيير عنوان الرواية أو أي عبارات في الرواية تم بناء على اتفاق مع المؤلفة.

لأولادي، لكيلا يخافوا أبدًا من الاختلافات، وأن يتعلموا الخروج إلى العالم بحثًا عن الجمال.

شكر وعرفان

ظهرت هذه الرواية للنور رويدًا رويدًا، عبر سنوات كثيرة، وتغير مظهرُها عدة مراتٍ، حيث مثَّلت ملاذي في حنيني الدفين واشتياقي لأرضٍ أدين لها بالكثير. فقد كانت بمنزلة رفيق تلك الرِّحْلات التي يقوم بها المرء جالسًا على مقعده، في حين تتغير الحياة حوله وتتشابك أحداثها بواسطة تجارِب جديدة؛ مثل تكوين أسرة وبداية عمل والحياة في ظل التكرار اليومي.

لكن ها هي أخيرًا تتَّخِذ شكلها النهائي وتتجسَّد أمامي، وعلى وشك أن تنفصل عني مثل الوليد. ولذلك يجب الآن أن أقدِّم الشكر للعديد من الأشخاص.

قبل الجميع أودُّ أن أشكر والديَّ لأنهما علَّماني أن السفر أمر طبيعي، ولأنهما سمحا لي بذلك دائمًا.

كما أنني أدين بالشكر الجزيل لألبرتو مانشيني، وأليساندرو بولكري، وسلفاتوريه سبوتو على صداقتهم ودعمِهم غير المشروط، وعلى نصائحهم، ولكن قبل كل شيءٍ على التشجيع والثقة التي أظهروها نحوي دائمًا.

شكرًا لروبرتو دي بيترو، وماوريتسيو جوستيني، وبرونو ناتشي، وأندريا فرانشيسكيتي، وأماني فوزي على النصائح الأدبية واللغوية الثمينة.

أشكر أيضًا أختي ماريا تيريزا نانيا على الأوبرا الرائعة: العثور على المُلهِمة "La musa ritrovata"، التي كَتَبَتْها وعُرضت فعلًا على المسرح.

شكرًا لمانويلا ماديدو، واحدة من الأشياء الجميلة في تجربتي المصرية، وروسيلا جرانيولي، زميلتي الشديدة العذوبة واللطف، وصديقاتي اللاتي انجذبنَ لثرثرتي الرومانسية، وخصَّصن أوقاتًا طويلة ليستمعنَ لقصصي. شكرًا لماوريتسيو دي فريسكو الذي كان أول من أخبرني عن سيوة، بعد وصولي للقاهرة بأسابيع قليلة. فذهبتُ أنا في

حين لم تسمح له الظروف برؤيتها حيث عاد بعد ذلك بقليلٍ إلى إيطاليا. له (من أجله) أيضًا هذا الكتاب.

شكرًا لعبد الله باغي وجميع أصدقاء سيوة، ومحمد فايز مرعي، على الرِّحْلات صعودًا وهبوطًا فوق الكثبان الرملية وعلى رحلات السفاري في الصحراء.

شكر خاص لأماني فوزي حبشي وباولا ماوتونه على حميمية حياتنا معًا، وعلى المحبة، والمغامرات، وحُب مصر، وحب منطقة شيلينتو. يا لها من صداقة رائعة!

شكرًا لماركو باتيستا، من دار نشر «ليبيرتا»، الذي رَحَّب بحماسٍ لنشر رواية «موعد بين الشمس والقمر» وحقق لي حلمًا قديمًا.

أخيرًا، شكرًا لزوجي أندريا جورني، الذي دفعني لنشر هذا «الكائن» الخاص بي، على ثقته وحُبه ودعمه.

أعلنوا عن تأخُّر الرحلة. تأخَّرت طائرتي.

وصلتُ في موعدي، فقد بدأت رحلتي فعلًا منذ مدَّة إلا أنني لم أغادر بعد.

جاء العم ميكيله لاصطحابي من المنزل في وقتٍ مُبكر حتى نتمكَّن من احتساء الكابوتشينو وكرواسون الشوكولاتة البيضاء في مقهى «سيرينا» على شاطئ بحر «سان جايتانو تشيلينتو». لا يوجد مقهًى مثله، على الأقل على مسافة مائة كيلومتر! والعم ميكيله مقتنع بهذا، وأنا أيضًا، مع أنَّني لم أُجرِّب بَعْد جميع مَحَالِّ الحَلْوَيات في المقاطعة.

كان بحرنا هادئًا وصافيًا في هذا الصباح الباكر؛ حيَّاني مطمئنًا وأفهمني أنه سيظل مكانه في انتظاري، مهما قضيتُ من وقتٍ بعيدة عنه. صباح بديع ومُنعش من شهر مارس الهادئ ثم، على بُعد ساعتين بالسيارة، بدأت الضوضاء الصاخبة لمطار «ليوناردو دا فينشي دي فيوميتشينو».

من الصعب أن أصِف حماس عمي بمرافقتي نحو هذه الرحلة، التي أراد هو وأصدقاؤه منحَها لي هدية، بهذا أظهروا لي الكثير من الحُب والكثير من الآمال المُعلقة على ابنة أخيه التي تهوى السفر والترحال، وها هي تعود اليوم لتطير بعيدًا مرةً أخرى كما لو أنها المرة الأولى. يا لها من توقُّعات! ويا له من تشجيع!

لا أعرف، لا أعرف فعلًا حقيقة مشاعري. أشعر وكأن الزمن قد توقف، سواء في المطار أم في محطة القطار، وكل برامجي مُغلَقٌ عليها في الحقيبة. كل شيء يطفو على بُعد أمتار قليلة من تلك الساحة المُحايدة، التي تُشبه نفقًا يؤدي إلى آلاف الوجهات المُحتملة. يسحب الآلاف من الأشخاص حقائبهم ذات العجَل كما لو كانت قواقع الحلزون، منازلهم الخاصة التي سيضعونها في مكانٍ جديد، لبضعة أيامٍ أو ربما لمدى الحياة.

أجلس وأنظر إلى لوحة الرحلات: ما زال موعد إقلاع طائرتي إلى القاهرة غير مُحدد بعد. الصبر. جميع المسافرين صابرون. حتى كبار السن.

عمري ثلاثة وثلاثون عامًا، ولكنني فجأة أشعر بأنني أصغر سنًّا. تومِض الأحاسيس في داخلي مثل البرق، أشعر كأنني أعود إلى عشرينياتي، وإلى أفكار تلك المرحلة. ذكريات عابرة تؤرِّقني، تستيقظ فيَّ وتتصارع بداخلي: فمَا أراه أمامي، وما يدور حولي، يمكن أن يكون له تاريخ مختلف. حتى حقيبتي الكبيرة ظلَّت على حالتها في تلك المدَّة ولم تتلف في ظلام الخزانة. ما الذي تغيَّر؟ ربما زاد عدد الهواتف المحمولة، وقلَّ عدد المجلَّات في أيدي المسافرين، زاد عدد أجهزة الكمبيوتر المحمولة وقلَّ عدد الكتب، زادت سماعات الأذن وقلَّت الأحاديث. أخذتُ أنظر وأفكر، كما اعتدت أن أفعل حينها.

فمشاهدة الناس كأنهم في عرضٍ مسرحي، هي أكثر هواياتي المفضلة، لكن وجود كتابٍ جيد بين يديَّ، هو دائمًا أمرٌ ضروري. في المطار الدُّوَليِّ، يكون المسرح ثريًّا بالأشخاص ومتنوعًا للغاية، تمامًا مثلما تُقدمه رفوف مكتبة «فيليرو»، مكتبتنا الواقعة في شارع «ديلماره» في «سان جايتانو تشيلينتو».

الكتب هي عوالم، جميعها مصنوعة من صفحات، والأشخاص أكوان بداخلها.

أنظر إليهم يسيرون، فيما يبدو، تجاه بعضهم البعض، في حين يعبرون في اتجاهاتٍ أخرى، يحملون قصصهم، ومشاكلهم وأحلامهم داخل حقائب يجرُّونها وأخرى يحملونها على ظهورهم. تتوه نظراتهم في الشاشات المُسجل عليها بيانات الرِّحْلات القادمة والمغادرة.

يبحث آخرون عن بعضهم البعض، ومؤثر فعلًا رؤية اللحظة التي فيها يتلاقَون: تتغيَّر تعابير وجوههم، فتُضيء مثل المصابيح. أحيانًا يركضون نحو بعضهم البعض، يتعانقون وتتعالى ضحكاتهم، وربما بكاؤهم، ويتبادلون القبلات ... تجذبني تلك المَشاهد، تأخذني بعيدًا عن أفكاري وعن قلقي. هذه رحلة مُهمة لي. بالتأكيد كل الرِّحْلات مهمة، لكن تلك رحلة مختلفة: إنها رحلة عودة.

في السفر، نقابل أشخاصًا نشاركهم لحظات أو فترات مهمة، إلا أن معظمهم لا يتركون آثارًا ملحوظة في حياتنا، حتى لو ساهموا جميعًا في جعلنا نخطو خطواتٍ نحو معرفة ذواتنا. ثم هناك اللقاءات، تلك اللقاءات «المُميزة»، تلك التي تترك انطباعًا دائمًا في حياتك، حتى لو اختفى أصحابها. وقد صادفتُ أحد تلك اللقاءات منذ سنواتٍ عدَّة، وحدث ذلك في مصر.

أخيرًا ظهرت طائرتي على شاشة مواعيد الإقلاع: لقد سجلت تأخيرًا مدة ساعة لأسبابٍ فنية، كما يقولون. في الزحام أُلاحظ من يشير إلى المواعيد الجديدة، مما يُنبئ أننا سنكون رفاق سفر، ولكن قبل ذلك ما زلنا جميعنا في الانتظار. الكل مُتجه إلى القاهرة!

– هل أنتِ أيرلندية؟

تستدير نحوي سيدة في سنٍّ مُعينة، ترتدي قبعة من القش وقميصًا ورديًّا وشورت برمودا بيج مملوءًا بالجيوب.

ابتسمتُ قائلةً بالإنجليزية: أنا؟ لا، لا ... أنا إيطالية.

بدت مندهشة، ونطقت بالإيطالية، بلكنةٍ أمريكية قوية لتُبرر موقفها قائلةً:

– أوه! هذه الخصلات الحمراء في الشعر، هذا الجلد الشاحب، النمش، اعتقدتُ ...

– نعم، أسمع ذلك أحيانًا، لكن لا، أنا إيطالية المولد، أبًا عن جَدٍّ. هل أنت أمريكية؟ (سألتُ من باب المجاملة.)

– أوه، نعم ... تزوَّجت من إيطالي، وعشت في إيطاليا سنوات عدة، ولكني لم أفقد لكنتي.

يرن هاتفي الخلوي، إنه العم ميكيله. ألتفتُ مُعتذرة وأُجيب:

– مرحبًا عمي ... يبدو أننا سنغادر متأخِّرين ساعةً، قد تصل إلى المنزل بينما ما أزال هنا ... لا يُهم ... لكن نعم، لكن نعم، لا تقلق، سأحصل على شطيرة. سنتحدَّث عبر البريد الإلكتروني من القاهرة ... نعم الآن سأُخبر نورا ... سلم لي على الجميع، حضن، إلى اللقاء!

أخذت السيدة تنظر إليَّ بابتسامةٍ فضولية، وأنا أكتب بسرعةٍ رسالة نصية لصديقتي المصرية نورا التي تنتظرني في القاهرة، فشعرتُ بأنني مضطرة للشرح:

– لقد رافقني عمي هذا الصباح. يعيش والداي في روما، لكنني خارج المدينة للعمل؛ لذا رتَّبت معه، حيث إنني أعيش حاليًّا في تشيلينتو وأعمل في مكتبة أعمامي. أعشق البحر، وأُحب هدوء القرية، حتى لو قالت صديقاتي من روما إنه مكان لكبار السن!

نظرت السيدة إلى الأعلى، وهي تتخيَّل الموقع على الخريطة، وعيناها تلمعان: أوه! رائع! يا له من منظر خلَّاب للغاية! جيد! عمٌّ لطيف، مكتبة بالقُرب من البحر، أشعر وكأنني أراها أمامي. أنا رسَّامة وتجذبني المناظر الطبيعية في القرى الإيطالية؛ فهي مصدر إلهامي الأكبر. هكذا التقيتُ بزوجي: في حين كنتُ أرسم جسرًا رومانسيًّا في توسكانا، كان يسير

فوقه ذهابًا وإيابًا، مفتونًا بتلك الفنانة الشابَّة التي تقف وراء حامل الرسم والألوان. ومنذ ذلك بدأت قصة حُبنا الرائعة ...

شعرتُ بمدى ذلك الحُب من النَّظْرَة الحنونة التي بها تنظر إلى الرجل الذي يجلس بجانبها. كان يبدو منغمسًا في قراءة الصحيفة، لكنه يبتسِم دون أن ينظر بعيدًا، ولا يسعني إلا أن أشعر بإحساس الحسد المزوج بالإعجاب. تنهَّدت.

– هل أنتِ في حالة حُبٍّ يا عزيزتي؟

سؤال السيدة المباشر يجعلني أحمرُّ خجلًا، ولكني لا أعرف كيف أُجيبها، ليس بسبب عدم الثقة، بل لصعوبة إعطاء اسمٍ لِما أشعر به بداخلي.

– حسنًا ... حسنًا ... أعتقد ذلك ... كنت، وأعتقد أنني ما زلتُ ...

شعرتُ بالحرج، والسيدة اللطيفة لا تريد أن تنتقد، لكنها تابعت كلامها:

– نعم، يبدو أنك كذلك. هل تذهبين إليه في مصر؟

يا إلهي، هل أمري مكشوف إلى هذا الحد؟

– حسنًا ... إنها قصة طويلة ومُعقدة.

أشعر وكأنني حمقاء في قصة سخيفة، وسبب ترحالٍ مُثير للضحك. لقد احتفظتُ بكل شيءٍ بداخلي مدة طويلة، لدرجة أن قصة الحُب هذه، جعلتني أشعر بالعري والهشاشة. طالما شعرتُ بقوتي حين أحميها بداخلي في صمت؛ والآن بعد أن أفصحتُ عنها بواسطة قصصي إلى العمِّ ميكيله، بدأتُ أشعر بالهشاشة والضعف الذي تُسببه الشكوك والأسئلة التي لا إجابةَ لها.

العم ميكيله، شُرطي متقاعد، رجل ذو بنية ممتازة وقوية، عمره يتعدى السبعين، وقد سقط بشدةٍ من إحدى أشجار الزيتون الفضية الجميلة التي يملكها، وأُصيب بكسورٍ متعددة في عظامه. أُجبر على الخضوع لثلاث عملياتٍ جراحية، وإقامة طويلة في مستشفى «فاللو ديلا لوكانيا». زوجته ميريام، امرأة أنيقة ومتميزة، عاشقة لزوجها، تُشبه نبيلات العصور الماضية وتعاملهنَّ مع أزواجهنَّ الفرسان، ظلَّت بجانب سريره عشرة أيام دون أن تترُكه لحظةً واحدة.

كانت إدارة المكتبة جميعها تقع على عاتقي، وهو ما أعشقه، حتى بدأنا أنا والعمة ميريام بالتناوُب بين مرافقة عمي والعمل في المكتبة. وسرعان ما بدأت زياراتي تأخُذ طابع الحلقات المتسلسلة، حيث طلب منِّي العم ميكيله، لكي يصرف نفسه عن مُعاناته ومله من

كونه قعيدًا في الفراش، أن أُخبره عن رحلاتي. في الواقع، سافرتُ كثيرًا بين الدول الأوروبية وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط، وكان لديَّ عددٌ لا يحصى من الأشياء لأُخبره بها.

كان عمي يستمع لي باهتمام، وكذلك زميله في الحجرة، وهو أستاذٌ جادٌّ وذو شارب، وكان مُصابًا بكسورٍ وقعيدًا هو الآخر. وبينما كان الأستاذ صامتًا في أثناء حديثي، أو على ما يبدو غير مُتأثر بما أقوله، كان العم ميكيله يُمطرني بالأسئلة.

لقد كان مفتونًا بشكلٍ خاصٍّ بقصص الصحراء وبعض الذكريات التي كانت تجعل عينَيه تلمعان، كان يسأل كثيرًا، حتى وجدتُ نفسي أتحدَّث عن بابلو كريم، حُبي الرائع، الذي التقيتُ به بين الرمال الذهبية للصحراء المصرية. يقول عمي إنني طوال تلك السنوات كنتُ أكتم أنفاسي، وقد ساعدني سرد قصتي على أن أعود لأتنفَّس الأكسجين مرةً أخرى.

لا أعرف إذا كان على حق، لكنني أجلس في هذا المطار وفي يدي بطاقة صعود إلى الطائرة مُستعدة للمغادرة وإعادة الواقع إلى ما كان يبدو حتى الآن وكأنه حلم. حلم انقطاع النفَس. ربما تكون صحوة مفاجئة، لكن لا يمكن الاستمرار في العيش على الذكريات والتساؤلات. أنا جاهزة، نعم؛ على استعدادٍ لإعادة حياتي اليومية إلى اللحظة الحاضرة.

أنا جاهزة، لكن لم تجهز الطائرة؛ تظهر رسالة على اللوحة تُعلن عن تأخير مدة ساعةٍ أخرى! «أوه لا!» أصرخ مشيرةً للسيدة الأمريكية بالتوقيت الجديد. لم تبدُ مُنزعجة، بل على العكس، تأبَّطت ذراعي وهي تقول: دعينا نذهب ونتناول مشروبًا في المقهى. أنطونيو، راقِب الأمتعة، من فضلك.

غمز لها الزوج، بينما أنا لم أستطِع أن أرفض الدعوة. جلسنا إلى طاولة، ولكن كان التركيز في الحديث مستحيلًا؛ فهناك الكثير من الارتباك، وكثيرون يتجوَّلون حولنا، تقريبًا فوق أنفاسنا. ومع ذلك، دفعتني رقة السيدة، المُتمثلة في اهتمامها وإنصاتها، إلى التحدُّث كما لو كنَّا في مقصورة الاعتراف.

– ابدئي من الأول يا عزيزتي؛ فلدَينا وقتٌ كافٍ. (قالت لي وهي ترتشف الشاي بالخوخ.)

لكنني بدأت بسؤال: هل واجهتِ أنت وزوجك أي مشكلاتٍ بسبب مجيئكما من بلدَين وثقافتَين مختلفتَين؟

– ما هو اسمُك يا عزيزتي؟

هل ربما لأنها تريد أن تأخُذ وقتها قبل الرد؟

– اسمي مايا، وأنتِ؟

ثم بدأنا نتحدَّث عن كل شيءٍ بثقة، كصديقتَين قديمتَين، قبل أن تُعرِّف إحدانا نفسها للأخرى. قد يحدُث ذلك عند السفر.

هل بدأت رحلتي فعلًا؟ ولكن، ما الرحلة سوى طريق نحو التعرُّف على الذات! وهذا أمر لا يُمكن أن نفعله بمُفردنا أبدًا، حتى لو اعتقدنا ذلك.

– اسمي «شيرلي جارديني»، كما أنكِ لديك اسم رائع «مايا» … أحد أسماء كوكبنا، فعلًا اسم مُهم … وأعتقد أنه كافٍ للإجابة على سؤالك، ألا تعتقدين ذلك؟ فعندما تُقررين قضاءَ حياتك مع شخصٍ آخر، فإنك تُرحِّبين بالاختلافات بصفتها شيئًا يجِب أن يُثري كل واحدٍ منَّا، والحياة الزوجية نفسها. الأمر ليس سهلًا دائمًا، لكنه لا يعتمد على البلاد والثقافات، بل يعتمد علينا — تقول وهي تُشير بيدِها إلى قلبها — نحن جميعًا أبناء الأم نفسها، وهي الأرض، مايا، نحن مُستكشفون لأنفسنا وللعالم الرائع الجمال الذي أُهدي لنا.

هذه السيدة رائعة، تأثرتُ تقريبًا بكل ما قالته.

ودون أن تعرف شيئًا عني حتى الآن، أخبرَتني بكلماتٍ قليلة جدًّا ونظرة عميقة وصادقة، ما تعسَّر عليَّ فهمه سنوات طويلة.

– أُحب أن أفكر في اسمي على أنه اللفظ المصري لكلمة «ماء».

خفضتُ نظري على الأسفل بحرجٍ صريح، عندما قالت لي شيرلي: أوه … نعم أفهم … حدِّثيني عنه، هل تُريدين؟

إما أن تكون هذه المرأة ساحرةً وتقرأ في الطالع ما يدور في عقلي عندما نطقت جُملة «أُحب أن أُفكر في اسمي على أنه اللفظ المصري لكلمة «ماء».» أو أنني كتاب مفتوح وشيِّق، يرغب الجميع في قراءته.

أختلِس نَظْرَةً إلى الساعة؛ فليست لديَّ رغبة في الانطلاق في قصةٍ مُملة لا نهاية لها، ولا المخاطرة بالوصول إلى النهاية، وأبدأ في التفكير بأن تأخير الطائرة هو علامة، ورسالة من القدَر، بناءً عليها أُقرِّر الهروب، والتخلي عن الآمال والنوايا الطيبة.

لن يُعبر الصوت المُعلِن الذي يُعلن عن إقلاع ووصول الرِّحْلات عن أي تأثُّر وهو يُعلن عن عدم تقدُّم أحد الركاب إلى بوابة الصعود. إلا أن عمي سيتألم كثيرًا إذا حدث هذا؛ لذلك سأُغادر. سأغادر على أية حال ومع أي تأخير.

قلت، وأنا ألتفت بخجلٍ إلى شيرلي: كنت أعيش في مصر مدَّة من الوقت، منذ أحد عشر عامًا تقريبًا، وكنتُ أعمل في مكتبة الجامعة الأمريكية، وأقوم بفهرسة الكتُب القديمة من

الصباح إلى المساء ... بين الحين والآخر أشعر بالحاجة إلى النَّظر إلى المساحات الشاسعة، وأن أترك الغبار بين تلك الصفحات، لأبحث عن الرمل الذهبي اللون، وأشعر به يتسلَّل بين أصابعي وتحت قدمي، دون أن أشعر به تقريبًا.

– هل تعرفين واحة سيوة؟

– لقد سمعتُ عنها، ولكني لم أذهب إلى هناك قط.

– لقد زرتُها عدة مرات بالفعل، إنه مكان رائع، ويبعُد حوالي ٦٠٠ كيلومتر عن القاهرة. تقع في الصحراء الغربية وبالتحديد في مُنخفض القطارة. واحة يُمكنك الاسترخاء فيها وأخْذ قسط من الراحة، بعيدًا عن العالم، خاصةً ذلك العالم الفوضوي والملوَّث والصاخب الذي يُسمى القاهرة. ذهبت إلى هناك بالفعل، إلى سيوة، مع بعض الأصدقاء. لقد التقيتُ بسكَّان رائعين من تلك المنطقة، وهذه المرة، المرة التي أُخبرك عنها، ذهبتُ وحدي لأكونَ معهم وأستمتع بالسلام وببساطة القرية. كان ذلك في نهاية شهر أبريل.

تنظر إليَّ شيرلي بفضولٍ واهتمام.

– كان أحد أصدقائي هو عبد الله. كان آنذاك في الخامسة والثلاثين من عمره تقريبًا، مُتزوجًا وأبًا لخمسة أطفال: رجل أنيق ومُعتدٌّ بذاته. جلبابه مصنوع من الحرير الناعم جدًّا؛ يرتدي عادة أزرار أكمام ذهبية في معصمَيه، وسُترة بُنية مطرزة باللون الأسود وكوفية على رأسه، يلبسها بشكلٍ لا يُرى عادة في المدينة، بشكلٍ يُضفي نبلًا على هيئته وقامته.

إن أهل سيوة أناس بسطاء، لكنهم يرتدون جلابيب نظيفة ومكوية، يعتني رجال سيوة بشعرهم ولِحاهم، ويقودون عرباتهم ورءوسهم مرفوعة مثل الرومان القدماء على مركباتهم. كما أن الأطفال نظيفون ومُرتَّبون ويلعبون بشقاوة في الشوارع.

كان يحدث لي عندما آتي من فوضى القاهرة المتربة، أنسى أحيانًا هذه الصور، ثم أُذهَل مرة أخرى عندما أراها. عندما أصل إلى سيوة، كان الأطفال ينظرون إليَّ بأعيُنهم الكبيرة، ويبتسِمون، ويُلقون عليَّ التحية، وبعضهم يتبعني لفترة من الوقت. كانت الفتيات الصغيرات رائعات الجمال، وجميعهنَّ ضفائرهن طويلة تنتهي بشرائط ملوَّنة.

عبده، صاحب المطعم الذي يحمل نفس الاسم، كان شخصيةً عظيمة أخرى أحببتُها. مظهره، ومشيته المتأرجحة، تجعلني أبتسم. وفي ذلك الوقت كان في سنٍّ مُعينة، ذا كرش كبير، ووجه ماكر. كان يتحدَّث لغةً إيطالية غريبة، بقايا ذكرى بعيدة لفترةٍ عاش فيها الإيطاليون في ليبيا. قال إن كبار السن في القرية ما زالوا يتذكَّرون قليلًا اللغة الإيطالية،

لأن الكثير منهم كان يعمل في ليبيا، علاوة على ذلك، كان الإيطاليون يعيشون في مصر ... قبل فترة جمال عبد الناصر، عندما كانت جميع الأجناس والأديان والألوان من كل العالم تتعايش بسلام فيها.

كان زمنًا مختلفًا. فحدود ليبيا قريبة جدًّا من سيوة؛ لذلك لم يحتاجوا لجواز سفر. ثم تغيَّرت الأمور. ولم يعُد أهل سيوة بحاجةٍ إلى الذهاب للعمل في ليبيا لأنها لم تعُد تُقدِّم ما كانت تُقدمه من قبل ... وفي سيوة توجد أيضًا مدرسة ثانوية، وكان الشباب يضطرون إلى الانتقال من الواحة فقط إذا أرادوا الالتحاق بالجامعة.

– يبدو أنه مكان لطيف حقًّا!

– أجل يا شيرلي، كان كذلك. أكاد أخشى أنني لن أجد سِحرَ ذلك الزمن مرةً أخرى، بعد أن أعود إليه الآن.

– آه، إذن فأنتِ مُتجهة بالفعل إلى هناك.

– نعم، أنا أيضًا أفتقِد القاهرة، أفتقد النيل العظيم، والخُبز البلدي والفلافل، ولكن أكثر شيءٍ أفتقده، هو المشاعر التي اجتاحتني في تلك الأماكن، وسيوة أكثر من أي مكانٍ آخر في العالم. تخيَّلي يا شيرلي، إنني أشعر بأنني أجمل في ذلك المكان. لم أكن أضع مكياجًا، ولم أرتدِ أي شيءٍ مُميز، لكن ربما ارتديتُ ما أعطاني إيَّاه كل ذلك الصفاء، مثل المرآة التي تعكس ما أمامها، أو الماء الذي يكتسب لون السماء.

ولمجرَّد أنني أحببتُ ذلك الجو الخلَّاب، كنت أشعر بالاكتفاء والراحة، وأشع فرحةً وبهجةً. وأعتقد أن هذا هو شعور كل من مَرَّ بسيوة.

صديقي سلامة، مدير فندق صغير في القرية، يحتفظ بدفتر زيارات، يستطيع الضيوف أن يكتبوا فيه انطباعاتهم، وبكلِّ اللغات، وبكل الخطوط يمكنك قراءة نفس الرسالة. لقد بقي أشهَرُ المسافرين، الذين شاهدوا أغلب أنحاء العالم، مفتونين دائمًا بواحة السلام تلك. والمسافرون أنفسهم كانوا جزءًا من الأشياء الجميلة في سيوة، لأن كل واحدٍ منهم عرف كيف يشارك هذا السلام ويحرصون عليه.

سمعتُ الكثير من تلك القصص هناك في سيوة! التقيتُ بأشخاصٍ مُميزين ... زادت رغبتي في السفر، وفي نفس الوقت الرغبة في العودة، ورؤيتهم من جديد، والتعرُّف عليهم ... كان شيئًا جميلًا أن يُقابلني السكَّان وهم يبتسمون لي لأنهم يتذكَّرونني، بالرغم من أنهم يَرَوْن العديد من الناس كلَّ يوم! الشيء الذي كان يُسعدني دائمًا في رحلاتي هو شعوري

بالأُلفة وبأنني في منزلي، وهو ما أشعُر به في أماكن مُعينة، على الرغم من أنها خارج هذا العالم، وقريبة جدًّا من السماء، تمامًا مثل «سيوة» التي أعتبرها «مسكن الملائكة».

السيدة ذات الرداء الوردي أنهت شُرب الشاي. افتتنت بوصفي، ولكن، من الطريقة التي تحرَّك بها شفاط الشاليمو، أعتقد أنها تُريدني أن أصل إلى لُبِّ الموضوع. إنها لا تعرف كم يُكلفني ذلك، أو ربما تعرف، تلك «الجنيَّة الرسَّامة». طلبَتْ شطيرتَين، دون أن تستأذنني أو تسألني عن مذاق الشطيرة التي أريدها، وقدَّمت لي واحدةً بالتونة. فهي لا تريد أن تُقاطعني.

– في تلك المرة أخذني عبد الله معه، بعد ظُهر أحد الأيام، وكان ذلك عندما التقيتُ لأول مرة بالشخص الذي أشعل قلبي.

ابتسمتُ وأنا أعلم أنني قلتُ كلماتٍ لها بعض التأثير! وبالفعل اندهشَتْ شيرلي للحظة، وابتسمَتْ بِرقَّة، وهي تضمُّ يدَيها: حُب من أول نظرة؟

– لا، لم يكن حبًّا من أول نظرة. على العكس تمامًا. الانطباع الأول الذي وصل لكلٍّ منَّا عن الآخر لم يكُن إيجابيًّا. قال إنه موسيقيٌّ، يبحث عن الإلهام، يبحث عن شيءٍ ما، وهو ما بدا سخيفًا بعض الشيء بالنسبة لي، وتفكيرًا عجيبًا ... قلتُ إنني لن أشغله عما يبحث، وفي الحقيقة كنتُ سعيدةً لأنني لن أُضطر للبحث عن مواضيع أو عبارات لفتح الحديث، حتى أتي عبد الله واقترح عليَّ الانضمام إلى المجموعة.

– هل معكِ سيجارة؟ قال لي.

– آه، هل هذا ما تبحث عنه؟ ضحكتُ، بينما هو لم يضحك.

– على أية حال، لا، أنا لا أُدخن، وليس معي سجائر.

– قال عبد الله: أقدم لكَ مايا، وهي إيطالية.

– بابلو كريم.

– تشرفَّنا. أجبتُ، وقد شعرت بالفضول تجاه الاسم المزدوَج ... لكنني لم أُكثِر من القول، ولم نتصافح. وتساءلتُ: هل هذا اسم مزدوج؟ أم هو اسم ولقب؟

لقد كان فتًى وسيمًا، ذا بشرة سمراء بلون القهوة بالحليب، وشعر داكن، طويل وأشعث بعض الشيء، فوق عينَين فِضيتَين لامعتَين، ورموشٍ طويلة كثيفة داكنة، ولِحية كثيفة، رشيق القوام، ذا أكتافٍ عريضة. هو بالتأكيد أكبر منِّي، وهو جذَّاب بلا شك، لكن نظراته كانت زائغة، وبدت باردة.

كان هناك تناقُض صارخ مع بشرتي البيضاء وشعري البُني النحاسي. كنت نحيفةً، شاحبةً، كنَّا نُشبه الليل والنهار؛ الفجر والغروب. كنا خمسة، أنا الدخيلة عليهم، وأيضًا المرأة الوحيدة؛ عبد الله المرشد؛ أسامة، يقود سيارته التويوتا الجديدة ليختبرها فوق الكثبان الرملية؛ ميدو، صديقهم اللطيف والرائع؛ وبابلو كريم المُوسيقي المُشتَّت والخجول. كنَّا نتحدَّث قليلًا باللغة العربية وقليلًا باللغة الإنجليزية.

– هل تريدين واحدة؟ فاجأني بتحدُّثه باللغة الإيطالية، بلهجةٍ إسبانية، وهو يُقدِّم لي بعض العلكة.

أجبت: لا، شكرًا.

ومِن الواضح أنه بسبب افتقاره إلى السجائر، لجأ إلى العلكة. أما أنا فقد أُخاطر بحياتي، مع وجود علكةٍ في فمي، ونحن نقفز بالسيارة إلى أعلى وإلى أسفل، فوق الكثبان الرملية!

كان هذا كل ما دار بيننا من حديث، ونحن نتأرجح بالسيارة فوق الكثبان الذهبية. الصحراء الكبرى، أو الصحراء فقط، كما يقولون، وها هي الكثبان الرملية التي اخترناها لنختبر قوة السيارة التويوتا الضخمة، اليوم الذي ارتسمت فيه النجوم بطريقةٍ تسمح بلقائنا الأول.

لو كانوا أخبروني بذلك، لم أكن لأصدِّق، وبالتأكيد لم أكن أتمنَّى ذلك. كنتُ أتخيل أن حُبي الكبير سيكون، يومًا ما، سليلًا نبيلًا أو مهندسًا ماهرًا، مُثقفًا، راقيًا واقعيًّا ... لكن الحياة تستمتع بقُدرة على الخيال أعظم منَّا ومِن قُدرتنا على الحلم.

كان الركض صعودًا وهبوطًا على الكثبان الشديدة الانحدار، ونحن نتشبَّث ببعض المقابض المعدنية، في حين فقد المقعد الاتصال بمؤخرتي، وبدت ساقاي خفيفتان، ولا أستطيع السيطرة عليهما، كان الأمر مُمتعًا ومُثيرًا، لكنني استطعتُ منع نفسي من إطلاق الصرخات العالية، أو الضحكات الهستيرية، لكي أُحافظ على مظهري ووقاري، مظهر شخص غامِض ولا يهتمُّ بأن يثِق في أحد. يا لي من حمقاء! سألني ميدو إذا كان كل شيءٍ على ما يرام. أجبتُ برأسي نعم، وأنا أبتسِم بخجل، لكن في داخلي كنتُ أدعو الله ألا أُلقى خارجًا في حالة انقلاب المركبة!

– هل سبق لكِ أن جربتِ بسيارة جيب في الصحراء يا شيرلي؟

– أوه، أبدًا! هذا يبدو خطيرًا لي! إنني مُصابة بالتهاب المفاصل ولن أستطيع تحمُّل ذلك!

– فعلًا! ابتسمتُ وأنا أتخيَّلها بقُبعتها المرفرفة ووجهها المعبر للغاية ... هناك خطر آخر سخيف وهو أن تنغرس السيارة في الرمال، وقد يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لتحرير العجلات من الرمال. في حالة وجود أكثر من سيارة دفع رباعية (جيب) تكون المشكلة أهون، لأن هناك أحبال لربط وسحْب السيارة المدفونة التي تدور عجلاتها في الفراغ. ولكن في حالة الذَّهاب بسيارةٍ واحدة فقط ... فعلى الجميع الدفع! وضع الزلَّاجات، والمحاولة، والحفر، والإصرار، ولكن قبل كل شيءٍ الدفع، الذي يقوم به الجميع سواء الرجال أم النساء. إنها عملية مُتعبة ومُملة للغاية. قد يكفي لها ثلاثون ثانية فقط، ويمكن أن تستغرق ساعات. لحُسن الحظ، كان أسامة يعرف ما يفعله: لم يُصَب أحد بأذًى، لكن كل واحدٍ منَّا أخذ يتنفَّس الصعداء عند أول لحظة توقُّف، ولكنَّنا حاولنا ألا يُلاحَظ ذلك.

توقَّفنا لنتأمَّل غروب الشمس عند سفح الكثبان الرملية التي بدَت وكأنها منحوتة. انتشرت ظِلالها الداكنة والطويلة على الشكل الأصفر الذهبي الكبير واختفت ببطءٍ لتُفسح المجال لألوان الشفَق الدافئة ثم الباردة. مُتفرجون متناهون في الصغر، نقاط لا أهمية لها في حضور الطبيعة. بعدَها بقليلٍ عُدنا إلى القرية، يغمرنا الجمال ومُفعمين بالمشاعر، بقيادةٍ أكثر سلاسة ونُعاني من اهتزازاتٍ أقل. لم يُعلق أحد، لكن لا يمكن أن تتوقَّف في مكانٍ مثل هذا، وفي لحظةٍ مثل هذه، إذا لم تكن لديك روح حسَّاسة وعميقة. نحن لم نصمت لأننا مسحورون، بل لأننا تشاركنا هذا السِّحر الخلَّاب. قدَّرتُ هذا كثيرًا، وشعرتُ بالفعل بالقُرب من أولئك الشباب.

كانت سيوة على هذا الشكل، لأنها بالتأكيد قد فقدت بعضًا من رونقها البرِّي في هذه السنوات الاثنتي عشرة، قرية بها بيوت مصنوعة من الطوب اللبِن، وحمير وعربات وأطفال وينابيع مياه نقية، كلها مغمورة في بحرٍ أخضر من أشجار النخيل. تترنَّح أغصانها في الهواء مثل فرشاة الرسام، وفي النهاية، أُفق ذهبي بعيد: جنة خضراء زرقاء تُحيط بها صحراء مترامية الأطراف.

فسيوة زهرة تبزغ من شقٍّ في جدارٍ حجري، نجمة صغيرة مُتلألئة في سماءٍ حالكة الظلمة، قارب صغير في وسط المُحيط ... ومع ذلك فهي عالم كامل يشعر المرء فيه بأنه يمتلئ بكل شيءٍ طيب وجميل. إنها حياة ثرية، إنها الطبيعة، إنها الإنسانية، إنها السلام.

– مايا، إن لوحاتٍ جميلة تخرج من كلماتك! دائمًا أرسم من الواقع الذي أراه أمامي، لكنَّني أشعر الآن برغبة لأن أستوحي لوحاتي القادمة من الخيال الذي تُثيره قصصُك داخلي.

– أوه، أتمنَّى ألا أكون قد أشعرتُك بالملل؟

– بالطبع لا! من فضلك أكملي! سيأتي زوجي ليستدعينا في حالة وجود أية تحديثات بشأن موعد المغادرة.

– التقيتُ بالشباب مرة أخرى عند مطعم عبده قبل العشاء. تبادَلنا بضع كلمات، وكنَّا أكثر استرخاءً واستعدادًا للحديث، وانتهى بنا الأمر بتناول العشاء معًا. ومع مرور الوقت، بدأت تتلاشى حالة عدم الثقة والانفصال، لدرجة أننا اعترفنا جميعًا بأننا شهدنا لحظاتٍ من الرُّعب في تلك السيارة التويوتا التي كانت تنطلق بأقصى سرعةٍ على طول التلال المُذهلة! ارتسمت الابتسامات الواحدة تلوَ الأخرى، وانتهت بالضحكات عند أول تبادُل للكلمات بيننا، ونحن نعترِف بأننا قد فعلنا أفعالًا مُثيرة للسخرية. كانت نظرة بابلو كريم الفضية أقلَّ برودةً، مع زيغانها. بين الحين والآخر كنت أحاول أن أنظر إليه فجأة، دون أن يشعر بذلك، لأنني بدأتُ أشعر أنه يُذَكِّرُني بشخصٍ ما ولا أعلم مَنْ هو. كنت أعتقد أنَّ ثمة تشابُهًا ... ولكن ما هو ذلك التشابُه؟ هل هي الابتسامة؟ هل هي الملامح؟ أو الصوت؟ فيه شيء كان يبدو لي مألوفًا، ولا يمكن أن يكون ذلك نتيجةً لتلك الساعات القليلة التي أمضيناها معًا.

ربما صادفته في الشارع، أو ذات يومٍ في القاهرة، أو على متن طائرة، أو في مترو الأنفاق، أو في ملصق لحفلةٍ موسيقية ما ... ربما صادفني مرةً دون أن أُدرك ذلك، والآن يتعرَّف عليه ذِهني، بشكلٍ مشوش.

– أخبريني يا شيرلي، هل هذا ما يحدُث عندما تُحاولين تذكُّر حلمٍ ما؟ أم أنني عرفته في حياةٍ سابقة؟ وإذا كان الأمر كذلك، ألا ينبغي له أن يتعرَّف عليَّ أيضًا؟

أتحدث معها كما لو كانت جنيَّة ويمكنها أن تُنيرني بشأن أسئلتي الوجودية من خلال النظر إلى قاع الفنجان.

– أوه مايا، لا أعرف! أنا هنا في انتظار أن تُخبريني، ولكن إذا ركبتِ تلك الطائرة إلى القاهرة، فهذا يجعلني أعتقد أن هذا الحلم على وشك أن يتحقق. هل أنا مُخطئة؟

أحاول أن أرى نفسي للحظةٍ بعينَي هذه المرأة اللطيفة جدًّا. لا يبدو أنها تعتبرني مجنونةً أو حالمة. هل الحلم هو ما عشتُه حينها أم الذي أعيشه الآن؟ ماذا عن السنوات التي تعذَّبتُ فيها انتظارًا لظهوره المُحتمَل، أين كان؟ هل بنيتُ صرحًا في الهواء وأعيش هناك وحدي، أم أنه موجود معي محبوس في أعلى بُرج يصعب الوصول إليه؟

عمِّي مقتنع بأنني سأرى بابلو مرةً أخرى وأن من واجبي أن أفعل كلَّ ما بوسعي لتحقيق ما يُمليه عليَّ قدري. إنه مقتنع بأن هذا ما يفعله هو أيضًا، وطالَما يبحث كلٌّ منَّا عن الآخر فسوف يعثر أحدُنا على الآخر مرة أخرى. هذه الرحلة هي رهانُه، وضع ثقته فيها. إنه حالم شاعري، أو ربما مجرد رجلٍ يُحب امرأته ويعرف أنه سيفعل كل ما بوسعه ليمكث معها، إن لم يكونا معًا قبل ذلك منذ زمنٍ بعيد.

استأنفتُ متابعة ذكرياتي، دون أن أحصل على إجابةٍ من شيرلي:

– لكن ... هل التقَينا من قبل؟

غامرتُ بالسؤال وأنا أتوجَّه بالحديث لبابلو.

ضحك الجميع مُعتقِدين أنها مُزحة. قال ميدو: قلتُ لك أنك بحاجة للاستحمام! بالطبع قد تعرَّف عليكِ من قبل! يا آنسة، لن تُصدِّقي، لكنك قابلتِ نفس الرجل منذ ساعاتٍ قليلة!

لم أُلقِ اهتمامًا بما قاله، لكنني لاحظتُ تعبيرًا على وجه بابلو، اعتبرتُه تأكيدًا. رأيتُ ما تمنيتُ رؤيته. إنها الأوهام ... نحن نخلقها بأنفسنا، فهي تجعلنا نشعر بالرضا، وكنتُ أشعر بالحُرية، بمُنتهى الحرية في خلق كل الأوهام التي أريدها. فنحن في شبابنا نشعر بالحرية والاستعداد لأن نفرح بمُفردنا.

أخبرَنا عبد الله لاحقًا أنه بالقُرب من مكاننا، توجَد مجموعة من أهل سيوة تعزف الموسيقى المحلية، فتحرَّكنا على الفور لنذهب ونستمِع إليهم. كانت ألحان أهل سيوة آسِرة، ذات طابعٍ أفريقي أكثر منه عربي، بسبب بعض الآلات الموسيقية الخاصة بهم، والإيقاعات المُتعددة.

في البداية جلسنا على السجاجيد واكتفَينا بالنقر بقدمٍ واحدة بشكلٍ إيقاعي، ثم بدأنا بالتصفيق بأيدينا، ثم تحريك أذرُعنا، ورءوسنا ... ثم سرعان ما نهضْنا وبدأنا نرقص، نحن والعديد من الآخرين، أجانب وأهل سيوة، تحت سماءٍ واحدة مُرصَّعة بالموسيقى والنجوم. أعتقِد أن سحر الإيقاع يكمُن في تشابُهه مع دقَّات قلوبنا، وتناغُمه معها، فيتسلل

بسرعةٍ إلى أرواحنا. فهي إيقاعات تتناغم مع الكون وتنبع منه. إنها الموسيقى التي تُنعش النفس، وفي رأيي تأثَّرَ ذلك الموسيقِيُّ الباحث عن الإلهام بها تأثرًا شديدًا!

لاحقًا، في غرفتي، خلدتُ للنوم وبداخلي إثارة غريبة تجري في عروقي: ظننتُها بقايا الموسيقى، موسيقى داخلية.

في صباح اليوم التالي، ذهبتُ، كما فعلتُ من قبلُ عدة مرات، إلى حديقة عبد الله لأقرأ في ظلِّ أحد أكشاك الحديقة المُغطَّى بالنباتات.

في حديقة عبد الله تشعُر وكأنك في قلب الجنة على الأرض: هناك العديد من أشجار النخيل، ولكن هناك أيضًا مجموعة كبيرة ومتنوِّعة من أشجار الفاكهة، والشُّجيرات، والزهور، والنوافير. يبدو كل شيءٍ طبيعيًّا تمامًا، وكأن عمل الإنسان لا يُريد أن يكشف عن نفسه إلا عبر تشابُك الجذوع وأغصان النخيل التي تُغطي كشك الحديقة. تلك الحديقة لا عَلاقة لها بالحدائق الإنجليزية أو الهندسة الخاصة بأحواض الزهور والمروج والممرَّات. أنا أتحدَّث عن مكانٍ يظهر فيه جمال الطبيعة نفسه، في تناغُم، مع الحفاظ على البساطة والعظمة في آنٍ واحد.

كانت حديقة عبد الله من أجمل حدائق الواحة لأنه كان يعتني بها بشدة. بها أرجوحة مُخبأة جيدًا بين الأشجار، قطعة بسيطة من الخشب مُتصلة بحبلَين بغصنٍ كبير. أحببتُ تلك الزاوية، لأن نفسي تهدأ بالتأرجُح: أطير نحو السماء، ثم أعود لألمس الأرض، ثم أطير مرةً أخرى نحو السماء، وأعود لتلمس قدماي الأرض. الريح تصدم وجهي، ثم يطير شعري على وجهي، الرياح في وجهي مرة أخرى، والشعر في وجهي مرةً أخرى، مثل المُداعبات. مُداعبات عدَّة.

في هذه الأثناء، تقطع أصوات الحيوانات، القريبة والبعيدة، الصغيرة وغير المرئية، الضخمة والأليفة، الصمتَ الذي يُخيم على المكان، وتُزينه بالسلام، جنبًا إلى جنبٍ مع الثمار، والمياه التي تلمع في ضوء الشمس، والهواء الذي يتحرَّك ويمرُّ بخفَّة.

تنهدتُ. وتنهدَتْ أيضًا السيدة ذات الرداء الوردي، وقد خلبَها المشهد.

يبدو أن صخب وضجيج المطار قد اختفى بالفعل وأنا أكافح لاحتواء مشاعر قلبي، عندما أُفكر في أنني على وشك العودة إلى تلك الأماكن بالذات. لم تعُد هناك كلمات في الهواء، بل الشمس تلسع بشرتي، والعطور، والرمل تحت قدمي ... كيف تركتُ كل هذه السنوات تمر؟

كان الهواء دافئًا، وساحرًا، وكانت معي رواية جميلة، مُستعارة من المكتبة التي أعمل فيها. لم أُرد أن أشغل بالي كثيرًا بالعمل والمشاكل، حيث كان عليَّ أن أسترخي قدْر الإمكان، وألا أشترك في أي نشاطاتٍ للسبب نفسه. ومع ذلك، لم أستطِع التركيز بما يكفي لمُتابعة ما أقرؤه. وجدتُ نفسي كالرباط المطاطي دائمًا أبدأ من الفقرة نفسها في صفحة ٣٥ ... «الضباب يُخيم على التلال والسيارة التي يقودها مايك تتقدَّم ببطءٍ على طول الطريق المُتعرِّج ...» أفكار أخرى تُشتت انتباهي، لكنني لم أتمكن من التركيز فيها، ربما لم يكن من السهل التفكير في الضباب الذي يلفُّ التلال، أو ربما لم تكن لديَّ الرغبة في ذلك، نظرًا لحالة الهدوء وحالة الصفاء التي أعيشها.

وفي لحظة معينة، وصل بابلو كريم بخطوة حازمة، وكأنه جاء من العدم. لم أتفاجأ برؤيته، وعندها فقط أدركتُ أنني كنتُ أفكر فيه عندما ظهر. هل يا تُرى خرج من أفكاري؟ في الواقع كان يقِف أمامي مبتسمًا، وناوَلني حفنةً من التمر الأحمر، الطازَج، المقطوف حديثًا. ثم قال: تذوَّقِيه. وتذوقتُه عن طِيب خاطر. فأنا أحب التمر، ولا سيما تمر سيوة. ولكن تلك كانت طيِّبة المذاق بشكلٍ خاص. حلوة، كثيرة العصير، وذات قشرةٍ طرية ... قال بابلو إنه أخذَها من حديقة جدِّه، حيث لدَيه نوع جيِّد ونادر جدًّا من النخيل. وعرفتُ أن بابلو في سيوة لأنه يزور جدَّه، وانتهزتُ الفرصة لأعرف عنه المزيد. هكذا بدأتُ في تركيب البازل الذي لا أملك من عناصره سوى القليل جدًّا. وبالطبع أغلقتُ الكتاب وبدأتُ في الإصغاء مسحورة.

كان للصبي صوت جميل، دافئ وعميق، وهذه اللهجة الإسبانية جعلت قصته موسيقية.

– اسمي بابلو كريم، يجري في عروقي دماء مختلطة: إسبانية وعربية. والدتي إسبانية من كتالونيا، وأبي مصري.

وكان هذا مُثيرًا للاهتمام فعلًا ... هل اعتنقَتِ الأمُّ الإسلام لتتزوَّج مسلمًا؟ أو ربما كان والد بابلو مسيحيًّا قبطيًّا؟ لا بد أن الأسئلة قد رُسِمَت على وجهي لأنه ردَّ عليها دون أن أنطقها.

– والدتي كانت ولا تزال كاثوليكية ووالدي كان ولا يزال مُسلمًا. لم يكن حُبهما سهلًا ... لكنه قاوم كل شيء، وأنا شاهد على ذلك، وجدِّي هنا في سيوة أيضًا.

فهمتُ كونَ الابن تجسيدًا لذلك الحُب، لكن ما علاقة جدِّه في سيوة بالأمر؟ وبابلو، أيَّ ديانةٍ يعتنق؟ وهل هذا يُهم؟

– تعجبني كثيرًا قصص الحُب …

ابتسم وأومأ برأسه كمن سبق وفهم ذلك. ربما أكون تسرَّعتُ يدفعني فضولي، ولكن هناك في حديقة عبد الله بدا الأمر وكأننا خارج هذا العالم، وبدا أنَّنا نستطيع أن يُصرِّح أحدُنا للآخَر بكلِّ شيء: لم يكن هناك سوانا، وإذا سألني بابلو، فكلُّ شيءٍ أُفصِح به سيبقى سرًّا تحت ظلال هذا النخيل.

لا يُوجَد عادة ما يُسيء في حديث المرء عن عائلته، لكنَّ نبرة الفتى بدَت مهيبة بعض الشيء، كأنه ينطق شيئًا من وحي. بدأ يتكلَّم وهو ينظُر بعيدًا، ليسترجِع ذكرياته الخاصة، بحُزن، ولكن في بعض الأحيان بفخرٍ أيضًا.

– كانت والدتي «آنَّا» تدرس علم الآثار في مسقط رأسها برشلونة، وجاءت إلى مصر لإعداد رسالة الماجستير التي تتناول بعض الأُسَر في المملكة القديمة … وكما تعلمين، فإن مصر بالنسبة لعالم الآثار تُعتبَر كنزًا لا ينضب، عليه أن يكتشف منه قدْر استطاعته، وفي الوقت نفسه تُوجَد مكتبات أهمِّ الجامعات، أو مكتبة الإسكندرية الشهيرة، مكتبات ثرية جدًّا بالكُتب والمخطوطات القديمة، التي من خلالها يُمكنها أيضًا أن تُعمق دراساتها من خلال البحث الميداني. باختصار، جاءت والدتي لدوافع دراسية. كانت أيضًا المرة الأولى التي تزور فيها بلدًا إسلاميًّا، وبمجرد وصولها، اكتشفَتْ بدهشةٍ واضطراب مُعيَّن أن مصر ليست فقط موقعًا أثريًّا هائلًا أو مجرد إرثٍ من الفراعنة، بل هي مكان مليء بواقع مختلف وحقيقي وحاضر، مثل الإسلام، تلك الثقافة العربية الرائعة، المُثيرة والمُهمة، لأنها ثقافة حيَّة ونابضة، ربما أكثر من عالَم مصر القديمة الذي اجتذب السيَّاح والعلماء من جميع أنحاء العالم.

ودون أن تُهمل دراساتها الأثرية، انخرطت والدتي في الحياة اليومية، ومع الناس من حولها، والتاريخ الحديث والسياسة، التي غيَّرت وجه هذا البلد تمامًا في غضون سنواتٍ قليلة. وفي حين كان من المُفترَض أن تُقيم في مصر ستة أشهر، انتهى بها الأمر إلى أن مكثت سنة؛ بعدَها عادت إلى برشلونة لمناقشة رسالتها، ثم عادت مرةً أخرى إلى الإسكندرية.

حاول والداها أن يثنِياها عن ذلك، لكنها كانت التقت بوالدي بالفعل ووقَعا في الحُب، وقرَّرت أن تقضيَ بقية حياتها معه. كانت فترة الستينيات، ولم يكن الأمر اختيارًا سهلًا كما في السابق، فكما تعلمين، فقد تغيَّر كل شيءٍ مع قدوم عبد الناصر.

أومأتُ برأسي، وقد أسرَتني القصة تمامًا؛ كانت عائلتي كاثوليكية ولم أرَ أي تزاوُجٍ يجمع دياناتٍ مختلفة بين أقاربي. كان لديَّ أصدقاء ملحدون، ولا أدريون، وبوذيون، ويهود، ومسلمون، لكنني لم أتمكن من التفكير في أي زواج «مختلط» بين معارفي.

– وماذا عن أبيكَ؟ وكيف تقابَلا؟

– مصادفة. على الطريق. لكن من يدري؟ ربما كان ذلك موعدًا مع القدَر، أمرًا مكتوبًا بالفعل. رآها بينما تتأمَّل بإعجابٍ قلعة قايتباي. لاحَظَها لأنها كانت جميلة، وشعرها أسود كثيفًا تتمايل خصلاته مع نسيم البحر، هكذا وصفها دائمًا. لاحظها، لكنه توقَّف لينظُر إليها لأنها كانت تقِف بلا حراك، بنظرة ضائعة مسحورة، تتأمَّل نقطةً بعيدة، لا تبدو مثيرة لأي اهتمام. لولا حركة شعرها لكانت أشبه بالتمثال. تمثال، تعبيرُه جميل. وكان هذا التعبير ما أدهش والدي عمر. عادة ما كان منظر الأجنبيَّات، اللاتي يُمكن التعرف عليهن بسهولة بين الحشود، يضايقه. حيث كان أحد المسلمين المتشددين، بل والمتعصبين أيضًا. فهو يتردد على مدارس القرآن، ويتبع شيخًا، ملأ رأسه بالكراهية تجاه الكفار، وبدأ يتبع الجماعة الإسلامية، كان طالبًا جامعيًّا، والجهاد جزء من التطور النفسي الذي أثَّر على الصبي الذي أصبح رجلًا. ولم يأخُذ في الاعتبار أيَّ شيءٍ يُمكنه أن يعوق تلك الكراهية وهذا التطور. لقد وُعِد بالفعل بفتاةٍ تُدعى فاطمة اختارها له والده. لم يُقابلها قط، لكن قِيل له إنها جميلة وفاضلة، وكان ذلك كافيًا. كان عُمر يعلم أنه سيتزوَّجها، وسيكون لديهما أطفال، حسب ما يُمليه النموذج المُتبَّع. لا، فهو لم يأخذ في الاعتبار مُطْلقًا، حدثًا غير متوقَّع من هذا النوع.

– ربما لم يكن مُقتنعًا في أعماقه بما كان يفعله. ربما فتح عينَيه ليس إلَّا؟

– ربما، لكنه لم يكن على عِلم بذلك. حاول أن يُقاوم ويُصارع تلك العاصفة التي هبَّت بداخله، لكنكِ تعرفين ما هو الحُب ... يقولون إن الحُب لا يعرف الحواجز، وأؤكد لك أن حواجز والدي الدينية بدت شديدة الصعوبة. هل تعرفين قصة روميو وجولييت؟ إنها مأساة مثلها!

تفاجأتُ، واضطربتُ.

– أعلم بالطبع! لكن روميو وجولييت ماتا ولم يُسعفهما الوقت لإنجاب أطفال: لقد أنجبك والداك، وإن كنتُ قد فهمت بشكلٍ صحيح، فهُما على قيد الحياة وبصحَّة جيدة! أين تكمُن المأساة؟

ضحك بابلو بمرارة، وهو يهز رأسه. نظر للأسفل ثم استدار نحوي، كأنني قلتُ شيئًا مجنونًا.

للحظةٍ خشيتُ أن أكونَ قد أسأتُ إليه. نظر إليَّ كما لو كان الأمر خطئي وقال:

– لقد انهار العالم هناك يا مايا، كان يكفي أن يكون هناك توقيت مختلف، بفارق دقائق قليلة، وفي هذه الحالة لَما كُتب لهذين الشخصَين أن يلتقِيا.

– يبدو أن الأمر يُضايقك!

– بالفعل.

– لكن ألم تقع في الحُب من قبل؟ فيطغي ذلك الحب، دون خوف، على أي شيءٍ آخر، بحماسٍ ويقينٍ وفرح؟

– كنتُ أعتقد ذلك، لكنني لا أعرف، لم أعُد أعرف أي شيء. ربما لا، ربما لو كان حبًّا لما جئتُ إلى هنا لأتساءل عما إذا كنتُ قد اتخذتُ القرار الصحيح، قبل شهرين، إذا كانت هي الشخص الخطأ أم أنا المُخطئ. ربما كنتُ سأعلم أنني اخطأت، وأنني سأفتقدها.

مِن المؤكد أنني لم أشهد قطُّ اضطرابًا عاطفيًّا مثل الذي حدث لوالدي. أعتقد أن اسمي تكريم لبابلو نيرودا: كان والداي مُغرمَين بقصائده عن الحب، كانا يرتديانها تمامًا كأنها ملابس مُفصَّلة عليهما، لكنها بدت عليَّ دائمًا ضخمة وواسعة، وداخلها شعرتُ وكأنني قزم في ثوب عملاق.

هل كلامي واضح؟ لا توجَد إنسانة استطعتُ أن أشعر أنها لي. ربما خُلق الحُب للشعراء والحالمين. طالما كانت الموسيقى هي رفيقتي الوحيدة، لكنني لم أعزف منذ فترةٍ طويلة، وكأن أصابعي ضلَّت طريقَها على مفاتيح البيانو.

كنتُ أرغب على الفور التعمُّق أكثر في هذه التلميحات الشخصية ... هذه «هي»، هذا «الاختيار الصحيح» ... فقط قبل شهرين ... كنتُ أودُّ أن أقول له إنني أيضًا أُحب الموسيقى وأُحب بابلو نيرودا وإنني كنت أرغب بشدة أن أرتدي قصائده بعُمق كما لو أنها كُتبت خصوصًا لي، لكنني اكتفيتُ بالسكوت. ففي النهاية، أنا أيضًا لم أشعر أبدًا بحُبٍّ مثل حب آنَّا وعُمر.

ثبَّت نظراته مرةً أخرى على الرمال، على الأرض. اعتقدتُ أنه إذا استدار قد أتمكَّن من رؤية الدموع في عينَيه. لكنه لم يستدِر. ولكيلا أُحرجه، أخذت أنظر إلى سعف النخيل. لم أكن أعرِف إن كان عليَّ أن أُغير الموضوع. التزمتُ الصمت. أعترف أنني كنتُ مأخوذة تمامًا في الحديث، حتى إنني لم ألاحظ تأثير نُطقه لاسمي عليَّ.

– جميل! «مايا» ...

لقد كنتُ أنا، أنا موجودة، لقد «سجلني» باسمي، إذن فهو لم يكن يُحدِّث نفسه، كما كان يبدو: كان بالفعل يتحدَّث معي!

– آه يا مايا، أنا أيضًا أُحب قصائد نيرودا!

قالت جنيَّة المطار وهي حالمة، بينما ظهر أنطونيو، كمن استدعته قصائد الحُب، وهو يجرُّ أمتعتنا ويبدو متوترًا بعض الشيء.

– لقد سرقتُ منكَ زوجتك واستغللتُ صُحبتها، من حقِّك أن تتضايق!

– لا لا، لا تقلقي يا عزيزتي، لقد جئتُ فقط لأُخبركما أن التأخير يتزايد. ذهبتُ أيضًا لأطلب توضيحات من مكتب الشركة، لكنهم يتحدثون فقط عن مشكلات تقنية. ربما نحصُل على تعويض بسيط. بعض الأشخاص غاضبون بشدة، فهناك مَن لدَيه أطفال، ومَن لدَيه طائرة سيستقلُّها من القاهرة ... لم يجد الجميع طريقةً مُمتعة كهذه للتغلُّب على ملل الانتظار!

نظر إليَّ وهو يغمز، ربما فضول لأن يعرف شيئًا عن تلك الثرثرة بيننا، أو ربما غيرة على وقتِ زوجته، أو ربما ببساطة لأنه شخص لطيف.

– شكرًا لك! هل يُمكنني أن أُقدِّم لحضرتك شيئًا؟ لقد تناولنا السندويشات، لم تكن سيئة، سآخُذ واحدًا آخر. وأنتِ يا شيرلي؟

أخذتُ الطلبات، وذهبت لأقِف في الصف أمام الخزينة. واغتنمتُ الفرصة لأرسل المزيد من الرسائل النصِّية إلى نورا وأمي وعمي، وأيضًا إلى صديقتي فرانشيسكا التي عادةً ما تُشاركني الرحلات والمغامرات.

«فرانشي، مازلتُ عالقةً في مطار فيوميتشينو، على هذا النحو سأصل القاهرة ليلًا! لقد التقيتُ بزوجَين لطيفَين، يُبقياانني معهما في صُحبة جيدة. أفتقِدك كثيرًا، لكِ مني هذه القبلة.»

ردَّ فوري منها:

«لو تخيلتُ هذا الموقف، لجئتُ لأنتظر معك. لا تبدئي بأحاديثك المُعتادة حول رسائل القَدر؛ يجب أن تُغادري، هل تفهمين؟ لا تُخيِّبي ظنِّي، أنا وعمك،

والبروفيسور ذي الشارب، وأصدقائهم المرضين، لقد راهنَّا جميعًا بكلِّ شيءٍ من أجل هذه الرحلة!»

«هاهاها أيتها الحمقاء! سأسافر، ومهما حدث أَعِدك أنني سأعود مُنتصرة».

هذا الطابور لا يتحرك. أو ربما رأوني سارحةً، فدخلوا في الصف أمامي.

أنطونيو وشيرلي يجلسان إلى الطاولة هناك، يلتقِطان صورًا. يبدوان كشابَّين في بداية قصةٍ ما. يا لجمال أمثالهم! وأخيرًا دفعتُ وحصلت على الشطائر والبسكويت والمشروبات. أنا هنا ولكني لستُ هنا في الوقت نفسه، فما زلتُ منغمسةً في الحكايات، وتعود إلى ذهني كلُّ كلمة. حتى عندما رويتُ هذه القصة للعم ميكيله لم تكن ذاكرتي جيدة بالشكل الكافي، ولكن الآن، ربما، الآن، مع اقتراب اللحظة التي سأرى فيها ذلك العالم من جديد، تبرُز كل تفصيلة.

أستأنف الحديث من حيث توقفتُ بدقة. ربما يُساعدني ذلك في إقناع نفسي بأنني أفعل الصواب، وأن ما أبحث عنه في مصر ليس ثمرة خيالٍ رومانسي، بل قصة مهمة حقًّا، على الرغم من فترتها الوجيزة.

لم يُرِد أنطونيو أن يكون فضوليًّا، حتى لو كانت زوجته قد ذكرت له موضوعاتنا، فذهب ليتجوَّل في متاجر المطار. ألن يطلبوا منَّا ثمن استئجار هذه الطاولة؟ ما علينا. كان يجِب أن نكون في الهواء منذ فترةٍ طويلة. لكننا بالفعل في حالة طيران، ندور حول نقطة ثابتة. تعود إلى ذهني سلسلة من الأحاديث والانفعالات المُتتابِعة، أقول شيئًا ويبقى شيء لا يُقال، لكن شيرلي تفهمني وتنظر إليَّ كأنها تُشاهد فيلمًا.

– في تلك اللحظة ظهر ميدو وأسامة وعبد الله، ليقطعوا تدفُّق حديثنا. اقترحوا جولةً أخرى على الكثبان الرملية. شعرت بالارتياح بسبب هذا الانهيار المفاجئ للتوتُّر، لكنني أعترف أنني انتظرتُ سماع ما سيقوله بابلو قبل أن أُجيب على اقتراحِهم. قال إن لدَيه موعدًا بعد قليل مع جدِّه، ولا يُمكنه تركه. حيث أتى إلى هنا خصوصًا لقضاء بعض الوقت مع جدِّه الذي لم يشهد ولادته ولا نشأته. انتهزتُ الفرصة وقُلت إنني أفضِّل البقاء في القرية والراحة، لأن عضلاتي ما زالت تؤلِمني من صدمات اليوم السابق. وكان هذا صحيحًا. لذلك لم يُصِر الشباب على اقتراحهم، وذهبوا بعد أن أضافوا جوًّا من المرح.

– إذن عليك أن تذهب إلى جدِّك …

– كان والدي يثِق بأنه قد قابل ملاكًا، به كل صفات النقاء والبراءة والجمال … عطية إلهية!

وهكذا استأنف الحديث تمامًا من حيث توقَّف، كما لو أن حبل أفكاره لم ينقطع. لم يُجبني على سؤالي. الآن نعم، يبدو أنه كان يتحدَّث إلى نفسه، لكنني لم أُمانع. بقيتُ هادئةً وساكنةً قدْر استطاعتي. أردتُ أن أعرف لماذا كان حُب والدَيه مصدرًا لكثير من المرارة بالنسبة له. سمحتُ له بالاستمرار بِحُريَّة في حديثه.

كان واضحًا أن الأمر يُتعبه. وتساءلتُ: لماذا يُخبرني ذلك الفتى الخجول بمِثل هذه الأشياء الشخصية. مَن يعتقِدني؟ ببساطة هل أوحيتُ له بالثقة؟ هل كان يشعر بالوحدة؟ ولكن بتلك الأفكار أخاطر بالتشتُّت وألَّا أتابع حديثه!

ثم أخرجَني بابلو من حيرتي، بلهجته الهادئة التي قد تبدو غير مُبالية. لأنه قال إنني أستطيع الذهاب معه إلى جدِّه، إن أردتُ ذلك. بدا الأمر شرفًا لي. دائمًا ما يكون اللقاء مع شخصٍ مُسن أمرًا مُثريًا، وفي مكانٍ مثل سيوة، يُصبح له أيضًا دلالة أكثر إثارةً وتشويقًا.

في الواقع، الذهاب معه هو ما يجعل ذلك اللقاء مُثيرًا. بالوضوح الذي استطعتُ أن أرى به الأشياء فيما بعدُ يمكنني أن أقول إنه لو دعاني بابلو للذهاب إلى بائع الخضار أو لمشاهدة حمار الجيران، لكنتُ قد تبعتُه بقلق.

كان جد بابلو يعيش في نهاية بستانٍ كبير من أشجار النخيل، على طول الطريق المؤدي إلى معبد آمون. ندمتُ على الفور، على قبولي الدعوة، فهذا ليس مكاني، لكن ما الذي يجِب أن أفعله حيال ذلك؟ لا شيء. لن يستطيع حتى أن يُقدمني كصديقة، لقد التقَينا للتو. ربما كان الأمر مناسبًا له لأنه كان يشعر بالحرَج أمام جدِّه، ويفضل ألا يبقى بمُفرده معه.

ترددتُ، لكن بابلو توقَّف وانتظرَني دون أن يقول شيئًا، لذلك قمتُ ببساطة بالإسراع من خطوتي، وتقدَّمنا للأمام، دون أن نتحدَّث تقريبًا. كنتُ أشعر بعدم الارتياح، ولم أكن أعرف ماذا أقول. سأتحدَّث قليلًا إلى الجد، لأنني لا أتحدَّث العربية، لكنَّني أفهمها قليلًا. في هذه الحالة، لن نتبادل سوى الابتسامات العريضة والصمت. لقد تعودتُ على مثل هذا الموقف أثناء تجوالي مع عبد الله.

كان جدُّ بابلو شيخًا وسيمًا. ذا بشرة داكنة، وشعرٍ أبيض، مُغطًّى بالشال، ويرتدي جلبابًا أزرق، وابتسامته جميلة، هادئة. قال: مرحبًا. انحنيتُ أمامه. كان لديَّ شعور بأنه كان ينتظِرني، على الرغم من أنه من المُستحيل أنه كان يعرفني من قبل. قلت له اسمي مايا. لم يقُل بابلو أي شيءٍ آخر، لكنه أراني أين أجلس. قدَّموا لي على الفور الشاي الأخضر الطيِّب الذي يُشرَب في سيوة.

بقينا خارج المنزل، في ظل أشجار النخيل، ذات البلح الأحمر، جالسين أمام طاولة. ينظر الجد إلى بابلو بنفس الطريقة التي اعتادَ بها جدي أن ينظر إليَّ؛ فقد كان الحُب يشعُّ من عينَيه.

مِن المدهش أن ذلك الأمر كان واضحًا جدًّا! ورغم ذلك لم يُعِر بابلو اهتمامًا لتلك النظرة.

كنتُ أبحث عن التشابُه في ملامحهما. كانا يتحدَّثان قليلًا، باللغة العربية، ولم أُحاول أن أفهم، وتهتُ في ملاحظاتي. لقد كنتُ معهما وليس معهما في الوقت نفسه. بدت لحظة صفاء سامية، لحظة لم أستطِع تحديد مُدتها.

فجأة «استيقظت» لأُدرك أنهما كانا ينظران نحوي وقالا شيئًا يشير بوضوحٍ إليَّ.

طلبتُ من بابلو أن يُترجم.

قال الجد: هل سأسمعُك تتحدث مرةً أخرى عن «مايا»؟

– وأنت ماذا قلتَ؟ سألتُ بابلو بنظرة مندهشة.

– ربما.

ماذا كان يعني؟ ماذا كان يقصد جدُّه؟ وماذا كان يقصد بابلو؟ هل أرادا فقط أن يعرِفا ما إذا كنَّا سيرى أحدُنا الآخر مرةً أخرى أو إذا كنتُ مجرد زائرة عابرة؟ أنا لا أظنُّ ذلك.

نظر الجد مباشرةً في عيني، وقام بإيماءةٍ من حاجبه تنمُّ عن شخصٍ يعرف الكثير. ربما اعتقد أننا كنَّا معًا. وأضاف، وهو يتحدَّث بطريقةٍ أستطيع أن أفهمها، أنه في المرة القادمة سيُقدم لنا القهوة التركية.

قلت: جيد، سواء من حيث أن نتقابل مرة أخرى، أو لأنني أُحب القهوة التركية حقًّا، خاصة إذا كانت بنكهة الحبهان. أراد الرجل العجوز أن يُصافحني، كما لا يفعل المسلمون عادة، لكن ذلك لم يكن وداعًا، وعلى الرغم من أنَّنا كنَّا واقفين، بل أخذَني من يدي ليجعلني أنظر داخل الكوخ.

لم يستمر الفضول إلا للحظة، ثم تفاجأت: في وسط الغرفة الخالية من الزينة يوجَد بيانو كبير! كنتُ أتوقع كل شيءٍ إلَّا أن أرى بيانو كبيرًا في كوخ مصنوع من الطين وأغصان الأشجار في واحةٍ في الصحراء الكبرى! ولكن بعد كل شيء، لِمَ لا؟

فغرتُ فمي من الذهول، ونظرتُ إلى كلٍّ من بابلو، الذي أدار ظهره، غير مُهتم على ما يبدو، وجدِّه، الذي غمز لحفيده، كما لو يريد أن يُفهِمه أن البيانو يخصُّه. لقد قال إنه

موسيقيٌّ ... وإنه لم يتمكن من العزف لفترةٍ طويلة. ولكن إذا كان قد التقى للتوِّ بهذا الجد، فما هي العلاقة التي كانت موجودة بين البيانو والجد وبابلو؟

هناك المزيد من قطع البازل يجِب أن تتجمع معًا.

تُتابع شيرلي حركات شفتَي ويدَيَّ وتُكرر بدورها، بتعابير وجهها البليغة، تأرجُحات المشاعر التي أعيشها في القصة. ذلك الأمر يجعلني أُفكر في الأطفال الذين أروي لهم وأقرأ لهم القصص الخيالية في المكتبة، ولكن للحظةٍ واحدة فقط، لأن سيوة الآن تُهيمن على كلِّ أفكاري وكلماتي تتسارع وتيرتُها.

توجَّهنا نحو القرية. لم أكن أعرِف هل أطرح أسئلةً أم تعليقات ... انتظرتُ بابلو ليتحدَّث:

«اضطُر جدي وجدَّتي إلى مغادرة الإسكندرية بعد أن وقع والدي في حُب امرأةٍ مسيحية. لقد شعرَت عائلة فاطمة بالإهانة الشديدة بسبب فسخ الخطوبة. كان أبوها من الأثرياء المُهمِّين في المدينة. حاول إخوتها بكلِّ الطرق أن يُعَقِّلوا والدي، بل إنهم مارسوا الضغوط القوية عليه، وصلَت إلى حدِّ التهديد أحيانًا. لكنه لم يخضع لهم، واستمرَّ في الإعلان عن نفسه بصفته رجلًا بسيطًا وصادقًا ومخلصًا. لم يرغب في أن يُطلَق عليه لقب «الخائن»، لكنه حتمًا جرَّ والدَيه إلى الإحراج أيضًا. استمرَّت محاولات إثنائه عن عزمه لعدة أشهُر، لكنه لم يستسلِم.

عادت والدتي إلى إسبانيا لتُواجه عائلتها تقريبًا بالطريقة نفسها. لم يؤيِّد أحد اختيارهما. لا أحد. وقرَّرا مغادرة مصر. لم يرغبا في العيش في إسبانيا أيضًا. قطَعا العلاقات مع الجميع وذهبا للعيش في جزيرة «خيوس»، جزيرة يونانية ساحرة حيث تردَّدت أُمي فيها على الكنائس الكاثوليكية، وتردَّد أبي على المساجد التركية القريبة.»

أنا أيضًا كنتُ أعرف جزيرة خيوس الرائعة، الجزيرة التي وُلد فيها هوميروس ... التي سكنَها على مدى قرون إيطاليون وعائلات من مدينة جنوة ... في خيوس بعض من رائحة إيطاليا، وهناك تآلف بابلو مع اللغة الإيطالية، وسهَّلتها له لغة أمِّه الكاتالونية، والموهبة التي لدى مَن يُتقنون لغتَين في سرعة تعلُّم أي لغةٍ أخرى.

حسنًا، ها هو القدَر المزعوم قد دبَّر هذا أيضًا: في تجميع كل الأحداث حتى نتمكَّن أنا وبابلو كريم من التواصُل بأسرع الطرق الممكنة. ربما كان من الأسهل أن نلتقي في جزيرة يونانية وليس في منخفض القطارة، في الصحراء المصرية! سبق أن زرتُ عدة جزُر يونانية ... ربما تسوَّقنا في المتجر نفسه أو شربنا بيرة في المكان نفسه، أو وجدنا أنفُسنا على القارب نفسه ... ولكن ها نحن نتقابل في سيوة.

أعادت «خيوس» إلى ذهني صورة البحر الأزرق الذي يجري في دمي، ذلك البحر الذي ولدتُ بجواره، البحر الأزرق ذو الزبد الأبيض، وسواحل البحر التيراني.

ولكن بجهدٍ بسيط للغاية عدتُ إلى بحر الرمال الكبير الذي يُحيط بي في تلك اللحظة وإلى بابلو كريم الذي لا يزال يتحدَّث.

– شعر جدِّي وجدَّتي بالخجل والخوف من التهديدات، فقرَّرا أيضًا مغادرة الإسكندرية. لكن مغادرة مصر كانت أمرًا مبالغًا فيه. فجاءا إلى سيوة. كان لجدِّي صديق عزيز هنا. اتصل به وشرح له كل شيءٍ فساعدهما على الاستقرار والتأقلُم دون الكشف عن سبب انتقالهما. لكن مع مرور السنين تجاوز الخبر تلك الجدران الطينية، وتسرَّب إلى القرية. دون عواقب سيئة. يبدو أن جدَّيَّ كانا يتمتَّعان بعلاقاتٍ جيدة مع الجميع ولم يجرؤ أحد على تحميلهما ذنبًا ليس في النهاية ذنبًا حقيقيًّا، وبالتأكيد لم يكن ذنبهما.

في سيوة يحدُث غالبًا أن تقوم إحدى الأجنبيَّات بأخذ صبيٍّ محلي وسيم، لا تجذبه الفتاة فقط، ولكن أيضًا سراب الحياة في الغرب … أحيانًا يعود هؤلاء بعد الانفصال، وأحيانًا أخرى يُكَوِّنون أُسَرًا ولا يعودون أبدًا، ولكن دائمًا ما تصِل أموال إلى أهاليهم بشكلٍ دوري، وهذا يكفي.

هذه أشياء كنتُ أعرفها جيدًا. حتى في القاهرة تلقَّيتُ بعض المغازلات وعروض الخطوبة، وكنتُ أعلم أن وجهي الجميل الشاحب ليس هو ما يجذِب الخُطَّاب!

– ماذا عن جَدَّتك؟ ووالدَيك؟ كيف أعادوا الاتصال؟ ألم يقطعوا كل الجسور؟

– ماتت جدَّتي قبل أن أعرفها. كان هذا البيانو خاصًّا بها. أرادت أن تأتي به من الإسكندرية، فهي لم تستطع الاستغناء عن الموسيقى. لكن البيئة هنا في سيوة ليست مثاليةً للبيانو … فهنا الكثير من الغبار ودرجات الحرارة العالية … لكني أعلم أنها كانت تهتمُّ به دائمًا مثل ابنها، وجمعت موسيقاها أعدادًا غفيرة من الناس عند انتشار نغماتها في الهواء وسط ذلك الصمت التام. تعلَّمتُ العزف وأحببتُ الموسيقى مثل جدَّتي، دون أن تتمكن من نقل شغفها إليَّ. ومن الواضح أن الدم قادر على نقل الفنِّ والمواهب رغم الفراق والمسافات واختيارات الحياة.

ما زالوا يروون القصة في القرية عندما وصلتِ الشاحنة التي أنزلوا من فوقها البيانو. كثيرون لم يكونوا قد رأوا بيانو من قبل. انزلق بهيبةٍ عبر منصة، ملفوفًا بأقمشة ملوَّنة

تُغلفه. بمجرد أن وُضِع على الأرض، لم تستطع جدَّتي مقاومة وضع أصابعها عليها، ورفعت القماش الملوَّن قليلًا، للتأكُّد من أن الرحلة عبر الصحراء لم تُدمره، وبدأت العزف ... امتعضَت قليلًا، فقد كانت أوتارُه محتاجةً إلى ضبط. لكنها استطاعت بمهارتها العزف بتناغُم. ورغم ذلك صفق لها الجمهور وشجَّعوها على العزف مرةً أخرى.

– لا بد أن جدَّك يفتقدُها بشدة.

– بالتأكيد. بدأ جدِّي البحث عن والدي عندما أصيبت بالسرطان. لم يكن الأمر سهلًا، حيث لا توجَد وسائل للعثور عليه. لذا حاول تعقُّب عائلة والدتي في برشلونة وحالَفَه الحظ. لم يعثُر على الأصهار المجهولين فحسب، بل وصل إلى والديَّ لأن والدتي عاودت الاتصال بعائلتها بالفعل منذ مدَّة. وعندما علموا أن جدتي مريضة جدًّا، لم يُنكروا قُدرتهم على التواصُل معهما، ووعدا بإبلاغ الأمر إلى والدي، الذي سيستخدِم بالتأكيد رقم هاتف سنترال سيوة، الواحة التي اكتشف أنهم قد انتقلوا إليها. عرف جدِّي من أصهاره عن وجود حفيدٍ له، بعد أكثر من عشرين عامًا! أعتقد أنه لم يستأ من ذلك لأن جدَّتي كارمن أخبرته أن اسمي بابلو كريم. كريم مثل اسمه. كان ذلك يعني أن والدي أراد بطريقةٍ ما أن ينقل جذوره إلى ابنه.

أتذكَّر التوتُّر الذي ساد المنزل منذ يوم المكالمة الهاتفية من جدتي كارمن تُعلن فيها عن هذا الاتصال. كان والداي سعيدَين، فقد عانَيا دائمًا من الثمن الباهظ الذي دفعاه لترْك وطنِهم وعائلتهم، وخاصة والدي، الذي لم تطأ قدمُه مصر مرةً أخرى. ولكن مرض السرطان، تلك الصاعقة التي عكَّرت السماء الصافية، أعادت فجأة إلى الذاكرة كل سنوات الغياب، السنوات التي تمتَّعت فيها الجدَّة بصحةٍ جيدة، ولم يكن قادرًا على العيش معها حياة يومية طبيعية.

هل مِن المُمكن أن يعوِّض حُب آنَّا أيضًا حُب الأم والأب والوطن؟ لم أفهم ذلك قط. والآن بعد أن هُدم ذلك الجدار العازل أخيرًا، لم يعُد والدي سوى شاهدٍ على معاناة جدَّتي، دون أن يتمكن من استعادة كل السنوات الضائعة التي تعدَّت العشرين سنة.

– بمجرد أن هدأ قلق والدي وظهرت مشاعر الذنب تجاهي وتجاههما لعدم السماح لنا بمعرفة بعضنا بعضًا، قرَّر بحزمٍ أنه سيجد طريقةً للذهاب لزيارتهما وأن يصحبني معه. لم أوافق، فلم أكن أرغب مقابلة شخصٍ ما وأُضطر على الفور للمُعاناة بسبب وفاته. ومع شعور والدي بالذنب، ظهر أيضًا استيائي تجاه تلك الاختيارات التي قلعتني من جذوري، وسخطي تجاه ما أرى أنه لم يكن سوى تصرُّفٍ أناني.

– آسفة على السؤال ... لكن هل أنت مسلم أم مسيحي؟

استدار بابلو ونظر إليَّ نظرةً سيئة للغاية، كما لو أنني وضعتُ إصبعي في جرحِه. لم أكن أتوقَّع رد فعلٍ مثل هذا. ربما كان مشغولًا بأفكاره بصوتٍ عالٍ لدرجة أنه لم يعُد يتذكَّر أنه بجوار شخصٍ غريب. ربما أظهرتُ أنني لم أفهم شيئًا.

– أنا لا شيء، يا مايا! أنا لا شيء ولا أنتمي إلى أحد. أنا ثمرة نزوة، خيار أناني لشخصَين، كي لا يتخلَّيا عن حُبهما ومعتقداتهما الدينية، وضعا عائلتَين في مأزِقٍ، وجعلاني أنمو كشخصٍ بلا وطن، بلا انتماء. من أجل حرية لم أختبِرها، حرية مَعيبة، وعبودية مُقَنَّعة في شكل انتصار الحُب.

بعد أن أنهيتُ دراستي الثانوية، غادرت الجزيرة وتجوَّلت في أنحاء أوروبا لبضعة أشهُر، من الشرق إلى الغرب، وصولًا إلى إسبانيا، وهناك أردتُ أن أكوِّن فكرتي الخاصة عن العالم، وفي النهاية قررتُ أنني أريد على الأقل أن أتعرَّف على العائلة التي أعرفها، عائلة والدتي.

رحَّبوا بي بأذرُع مفتوحة، لم أتوقَّع شيئًا كهذا. بدءوا يرَون أوجه التشابُه بيني وبين هذا وذاك، وعرَّفوني على عدد لا حصر له من الأعمام وأبناء العمومة، ذُهلت، إلا أنني كنتُ أشعر بأنني غريب، وفي صباح أحد الأيام غادرتُ بعد أن تركتُ رسالة فقط. لم يُعلِّمني أحد «الانتماء»، ولم يُعلِّمني أحد أن العائلة ليست مجرد زوجَين على جزيرة.

وصلنا إلى القرية دون أن نُدرك ذلك. وكان لا بد أن تتوقَّف قصص بابلو التي جعلتني في حيرةٍ متزايدة بشأن موقفي منها. وبدون الكثير من الثرثرة، نظرتُ إلى ساعتي، وودَّعته وقلتُ له إنني سأصعد إلى الفندق، ولم أكن أعرف ماذا سأفعل. ربما شعرت بحاجةٍ للتخلُّص من بعض التوتر الذي تسلَّل إليَّ منه. أو ربما أردتُ أن أفكر قليلًا في عائلتي البعيدة، وفي الحياة بعيدًا عمَّن تُحبهم، في مطاردة حلم، أو وهم، للبحث عن النفس أو ربما عن شيءٍ آخر.

استلقيتُ ووجهي إلى أعلى، لفترةٍ من الوقت، أنظُر إلى السقف فوق سريري وأتساءل عما إذا كان البقاء في القاهرة والاستمرار في السفر هو ما أردتُه حقًّا، أو إذا كان بإمكاني الاستمتاع بتجاربي في إيطاليا أيضًا، بالقُرب من عائلتي. ربما أُمي وأبي سيُعانيان من افتقادي، ربما يمرض أحدُهما ولا أعلم بذلك ... ربما شاء القدَر أن ألتقي ببابلو كريم ليجعلني أُفكر في معنى ترحالي. من أكون؟ ما الذي أبحث عنه؟ ماذا أريد حقًّا؟

لم تكن لديَّ إجابات ولم أرغب في الحصول على أية إجابات في تلك اللحظة بالتحديد. أشعر بالتَّعب من الأفكار الثقيلة، وأريد العودة إلى مكاني في الحاضر المُطلَق: لا ماضي ولا مستقبل. أشعر بالجوع. فأنا لم آكل سوى التمر الأحمر في وقتٍ متأخِّر من الصباح. أرغب في تناول الطعام. طبق من الكسكس الذي يُعدُّه عبده، يكفي لكي يُصالحني مع الحاضر، بل ومع نفسي أيضًا. نهضتُ وقبل أن أذهب لتناول الطعام ذهبتُ إلى السنترال. دفعتُ ثمن ثلاث دقائق واتصلتُ بمنزلي في إيطاليا. محادثة سريعة، فقط للتأكُّد من أن جسوري كلها موجودة، ومتينة، وأنني أستطيع عبورها متى أردتُ، وأنني لستُ بعيدةً، ويُمكنهم جميعًا أن يطمئنوا لأنني بخير وسعيدة. الشيء الغريب أنَّ مكالمتي أثارت فضول أُمي، التي حاولت فهم إذا كنتُ أحاول أن أقول لها شيئًا غريبًا بين السطور. أنكرتُ ذلك، وطمأنتُها، وقلتُ ما يمكن قوله في ثلاث دقائق. ما تبقَّى مكث هناك، تحت تلك السماء التي تُغطينا جميعًا، بوسع تلك الأرض التي تفصل بيننا.

إلا أنني شعرتُ بالهدوء وذهبتُ إلى مطعم عبده لتناول العشاء، كما هو الحال دائمًا.

لم يكن الشباب هناك، ولم أرهم مرةً أخرى ذلك المساء. لا أعرف إن كان هذا يؤسِفني ... ربما لا. أتعلمين يا شيرلي، عندما أُفكر في الأمر، لا أملك حتى إجاباتٍ لهذه الأسئلة الآن. في وقتٍ ما اعتقدتُ أنني قد وجدتُها. قلت لنفسي: أنا فتاة محظوظة، أعطَتْها الحياة الكثير، عائلةً جميلة، فرصة الدراسة والسفر، وعملًا تُحبه بالقُرب من البحر.

عمَّ أبحثُ بعد ذلك؟ عرفتُ الحُب، سواء كان جميلًا أم مؤلمًا، لكنني عرفتُه.

ولكن كم من الأكاذيب نكذِب بها على أنفسنا باسم الهدوء والخوف من المُعاناة مرةً أخرى! كان عمِّي هو من فتَّح عينيَّ، وذكَّرني بنفسي، ودفعني إلى الحياة مرةً أخرى. ماذا أريد حقًّا؟ إمكانية أن أعيش على طبيعتي، دون أن أُحاول التمحور حول السعادة. من المُمكن تحمُّل النكسات والتغلُّب عليها، إذا تصالحتَ مع نفسك، وتقبَّلتَها بأمانةٍ وتواضع؛ فالسعادة لا تكمن في تجنُّب الهزائم والإخفاقات، بل في معرفة كيفية مواجهتها بشجاعةٍ، وحُب الذات.

السعادة ليست حياة مثالية: إنها العيش دون ندَم، واستفادة الشخص من مواهبه، وأن تنفتح روحُه. كم من الوقت أهدرتُه بالفعل ... وصفَني عمي من فوق فراشه بالمُستشفى، وهو عاجز عن الحركة ويتألَّم بـ «المشلولة»، لأنني كنتُ أُنكر روحي المتجوِّلة وطبيعتي الفضولية فقط بدافع الخوف. كلما رويتُ القصة أكثر، أدركتُ شعوري بأنني أتحدَّث عن شخصٍ آخر. ومع ذلك كان الدَّم يغلي في عروقي.

– استيقظي! قال لي العم ميكيله.

حتى أصدقائي طلبوا منِّي بطريقةٍ ما أن أتحرك، مع أنني كنتُ أُشبه الكثير منهم، بسطاء، مُستقرِّين، بلا طموح، سائحين بين المطاعم الإيطالية وفنادق الخمس نجوم، الموجود أمثالهم في كلِّ مكانٍ بالعالم. كانوا يقولون لي: «أنتِ «رحَّالة»» ... الأمر مُختلف. أو على الأقل كنتُ كذلك. من الواضح أنني لم أكن مستعدةً للعودة إلى نفسي بعد.

– أوه يا مايا، فعلًا، الأمر كذلك تمامًا: في بعض الأحيان تكون المُعاناة، والحدود غير المتوقَّعة هي التي تفتح أعيُننا على الكيفية التي نُضيع بها أيامَنا بسبب العبث، ولكن أحيانًا بسبب الخوف. حدث لي أيضًا الشيء نفسه، مرضتُ وكان الأمر بمثابة الصحوة. حاربتُ وشُفيت، وأُتيحت لي فرصة أخرى، ومنذ ذلك الحين أعيش بمنطقٍ مختلف تمامًا، دون خوف: فإرادة الحياة أقوى من أي خوف، لا يجِب أن نُضيع أي يوم أو دقيقة، يجِب علينا أن «نُحب»!

أخبرتني شيرلي، وهي تنطق مقاطع كلمة «نحب» بطريقةٍ مُتقطعة.

إنها لا تتحدَّث معي عن السفر والمشاريع العظيمة: نحن نُضيع وقتنا حقًّا عندما لا نُحب. تأثرتُ بهذه المرأة التي اكتشفتُ أيضًا أنها مُحاربة، وشعرتُ بالغباء لأنني لم أتعلَّم الدرس في وقت مُعاناتي. بل على العكس تراجعتُ خلف حاجزٍ من الحياة الهادئة أشعر خلفه بالحماية.

حسنًا، اليوم سأتخطَّى الحواجز!

– شيرلي، سأتخطَّى حاجزي اليوم!

أمسكتُ بيدِها وصافحتُها بامتنانٍ وحزم.

– آمين!

قالت وهي ترفع الكأس بيدِها الأخرى لتُعلن عن نخب الاحتفال: هذا إذا قررت تلك الطائرة المباركة أن تأخُذنا إلى مصر!

انفجرت كِلتانا من الضحك؛ وفي هذه اللحظة شعرتُ بالسعادة!

أخيرًا نهضْنا وقرَّرنا التجوُّل في مساحات المطار الواسعة، بين الأضواء والمتاجر والناس. تأخُذ شيرلي ذراعي كأننا نسير على طريقٍ ريفي وتقول: أخبريني عن الصحراء، يا مايا، من فضلك. عندما أسمع عن الصحراء، أُفكر في العَدَم الذي ينخر الأرض ببطء، ويُحول كل صخرة، وكل نبات، وكل شكلٍ من أشكال الحياة إلى رملٍ وفراغ. بشكلٍ عام، هناك

تخيُّل مهيب، ولكنه خطير، يُعطيكِ شعورًا بالخوف، والمخاطر الكبيرة، والغموض الكبير. بالتأكيد ليس من السهل تخيُّل الصحراء كشيءٍ رائع. على الأقل بالنسبة لي، لكنك تتحدَّثين عنها بطريقة رائعة ...

«كم أودُّ أن أقول لكم، يا رفاق سفري، وأُخبركم عن الأرض العظيمة التجبُّر، يمتدُّ فيها الصمت والنور؛ أودُّ يا أصحاب البلاغة والكلمة، إن صبرتُم، أن أروي لكم القصة التي لا يحدُث فيها شيء، والتي لا يبدأ فيها أي شيء، وفيها ينتهي كل شيءٍ في سعادة وسلام الرمال.

إنني أُحدثكم عن الصحراء بينما صورُها الشفَّافة والدافئة تغمر روحي. تتَّجه كلماتي نحو ذلك الأفق اللانهائي المُتعدِّد الألوان، ومرآة السماء لترسم جملةً وتخترع قصة.

جميع القصص لها نهاية، ما عدا قصة الصحراء. لهذا لن أتوقَّف عن روايتها، ولن تملُّوا من سماعها، لأنها لغز. إنها قصة الكثبان والظلال التي تتقدَّم ببطءٍ بحثًا عن شاطئ، يقودها الطائر المهاجر. طائر أو يد. بحثًا عن أصل الحياة، خلف مظاهر الموت».

– هل تُعجبك؟ إنها فقرة من كتاب «صلاة الغائب» للطاهر بن جلون. أحفظها عن ظهر قلب، وما زلتُ أتذكَّرها! لم أكن أعتقد أنني أحفظها هكذا، لكنها خرجت منِّي مثل السيل الجارف! هكذا هي الصحراء يا شيرلي.

في المرة الأولى التي زرتُ فيها القاهرة، ذكَّرتني كل الرمال التي تراكمت في الشوارع، في كل زاوية، وتلك التي تَصرُّ بين أسناني وتحت حذائي بمجرد هبوب ريحٍ خفيفة، بنبرة تهديدٍ، بأنه على بُعد خطوة واحدة من المدينة تقبع الصحراء، هذا الفضاء الهائل الذي يُحركه الهواء والزمن، والذي سيدخل المدينة بالقوة إن عاجلًا أم آجلًا.

في أحد أيام الربيع، هبَّت عاصفة رملية، ودخلت زوابع مِن الرمال من كلِّ شقٍّ إلى المنزل الذي كنتُ أُقيم فيه. كان الهواء حارًّا، أبيض وكثيفًا، انحنت أمامَه الأشجار بجنونٍ قليلًا هنا، وقليلًا هناك، حتى انبطحَتْ أرضًا، وفقدت أغصانها، واختفت مع الأشياء والمباني في دوَّامة الهواء البيضاء. ربما كان سيُذكِّرني ذلك المشهد بالعواصف الثلجية، لولا درجة الحرارة. كانت زيارة من قِبَل الصحراء. مُؤثرة وخانقة ومُثيرة.

أظهرت الصحراء جلالتها وعظمتها! التقيتُ بها مراتٍ عديدة قبل أن أقع في غرامها.

بدأتُ أنبهر بها عندما بدلَت ملابسها، فتحوَّلَت إلى اللون الوردي تحت غروب الشمس، يوم ذهبتُ إلى الفيوم، وعندما رأيتُها تُعانق أهرامات الجيزة العظيمة، لتمحوَ آخِر جزءٍ من المدينة. ثم لاحظتُ أن الشوارع والمباني على وجه التحديد هي التي تتقدَّم نحو اتساع الصحراء، لتتبدَّد عظمة تلك الأهرامات المَهيبة، التي سادت الفضاء يومًا ما وكانت مراكبَ للحياة الأبدية.

ولكن في الليل اندلع الحُب العظيم. حُب متبادل، لأنه من خلال تلك المعجزة شعرتُ بأنني مرغوب فيها ومُرحَّب بها، مقبولة رغم ضآلتي، مُجتاحة بالحُب ومحاطة به ومطمئنة. عندئذٍ بكيتُ.

نظرَت إليَّ شيرلي وهي مسحورة، تفغر فاها من الدهشة.

– بعد الليلة الأولى التي أمضيتُها في الصحراء، تحوَّل خوفي القديم إلى التبجيل والاحترام تجاه شيءٍ كبير وجميل للغاية لدرجةٍ تحبِس الأنفاس؛ شيء هائل، قادر على أن يحتويك في راحة يدِه ليس أكثر ولا أقل من زهرةٍ أو حجَرٍ أو نجمةٍ أو حتى واحة. فبالفعل، أين تكمن أعجوبة الواحة سوى أنها تُزهِر وسط أعجوبةٍ أخرى مثل الصحراء؟

الليل في الصحراء تجربة صوفية. حتى النهار يكون مؤثرًا للغاية، ولكن في لحظاتٍ كثيرة يكون للجسد تأثير على الروح، لأن الشمس تُجرِّبه بقسوة لهيبها. ولكن عندما يأتي الليل، عندما تنخفض درجة الحرارة، يستطيع الجسد التنفُّس بحُرية، فينفخ في الروح التي تهتز من الانفعال. لن تستطيع أي كلماتٍ أن تصف تلك التجربة. إنه تحوُّل، ومرَض، وإعلاء للحواسِّ والروح. فالمرء لا يعود أبدًا كما هو بعد تجربة الصحراء. لم نعُد نُفكر في الإله ككيانٍ بعيد عنا، بل شخص التقَينا به، واستمعنا إليه، وشعرنا به في داخلنا، مثل ريح عبرَتْنا، مثل صوت يُنادينا، ولم يعُد سهلًا أن نعود إلى ما نُسميه «الواقع». نعود بالتأكيد، ولكن بسِرٍّ يشتعِل في داخلنا، سِر عميق مثل الرغبة في أن نُكرر التجربة في أقربِ وقتٍ ممكن، بحجَّة التحقُّق مما إذا كان الأمر كذلك حقًّا أو ما إذا كنَّا ببساطةٍ تحت تأثير المُخدر أو الاضطراب أو لم يكن ذلك سوى حلم.

لهذا السبب عزيزتي شيرلي، كنتُ أذهب إلى سيوة كلما استطعت، ولهذا أيضًا اعتدتُ أن أترك نفسي لأن تحملني سيوة بين الكثبان الرملية والينابيع الزرقاء، لأسمع ذلك الصوت الذي سحقَتْه في القاهرة ضوضاء تصمُّ الآذان، وأغرقَتْه سموم الهواء، لأُحرِّر

الأفكار المسجونة بداخلي وأنظر داخل نفسي. قد يكون ذلك ضروريًّا بين الحين والآخر، إنه أمر حيوي. أيضًا البحر له هذا التأثير، هنا في إيطاليا، البحر يُنقذني.

– أعتقد أنني سأفكر في القيام برحلة إلى الصحراء يا مايا ... لكن بابلو كريم؟ أنتِ لم تُنهِي لي قصته!

– كان لدى بابلو كريم سِحر لا يُمكنني تفسيره. لاحظتُ في تلك الأيام أن مزيجًا من النشوة والانزعاج يُسيطر عليَّ، ولم أُدرك على الفور أنه يتوافق مع اللحظات التي تسبق لقاءاتنا. ثم عندما كنَّا نجلس معًا، كنتُ أشعر وكأنني أسيرة مجالٍ مغناطيسي، وكأنني مغناطيس مُنجذب بقوة لنظرته، الثاقبة أحيانًا والتائهة في مكانٍ مجهولٍ أحيانًا أخرى.

وكلما ازداد تعارُفنا، كلما بدأت تلك النظرة تتوه في عيني أيضًا. بدا وكأن اتصالًا ما تحقَّق بيننا، كما لو أن شعاعًا يمرُّ عبر الأشخاص الآخرين الموجودين، على طول المسافات التي تفصل بيننا، ليربط عينَيه بعينيَّ. في تلك اللحظات، تُعبِّر كلماتنا عن شيءٍ بينما تعبِّر أعيُننا عن شيءٍ آخر، دون مرشحات، ودون مُواربات. في بعض الأحيان، كنَّا نتجادل ويسخر أحدُنا من الآخر، في حين تُناجي العيون: «قل أيَّ شيء، لكن لا تتوقَّف أبدًا عن النظر إليَّ ...»

عُدنا إلى الصحراء مع عبد الله وبقية الشباب. في هذه المرة بدَونا كأننا أصدقاء عُمر، نتبادل الضحكات والمزاح، أستمتع بضحكاته أكثر من ضحكاتي، كما أخذتُ أستمتع بتفاصيله الصغيرة التي ربما لم يكن يُلاحظها غيري. لكن إذا انغرست السيارة الجيب في الرمال، أهبط منها، وأقوم بالدفع مثل الآخرين: فجميعنا مُتساوون عندما نواجِه الصحراء، في السرَّاء والضرَّاء. وغالبًا ما يُريد القدَر أن ينتصِر الخير على الشر.

الجميع حقًّا متساوون، لكنه بالنسبة لي كان هو مميزًا وفريدًا بلا شك. حتى لو لم نتحدَّث معًا، كنتُ أقرأ على ملامح وجهه القصة التي رواها لي، وأحاول رؤية العلامات، رغم أنها محفورة داخل نفسه. ما بدا لي قصةً رائعة متشابكة الأحداث انتصر فيها الحُب على كل العقبات، ووجد حلًّا وسطيًّا مقبولًا، وأخرج للحياة رجلًا حساسًا عميقًا، كان يغلي بداخله مثل إدانة أبدية، يد تحمل أوراق لعب سيئة، مِرجل من المشاعر، لم أتمكَّن بعدُ من منحها الاسم الصحيح.

نادرًا ما كان الوجه الصارم الذي ظهر في الأيام الأولى، يُعاود الظهور. ولم أتفاجأ على الإطلاق، حيث اختبرتُ بنفسي التأثيرات المفيدة لتلك الأماكن. اعتدْنا في الصباح السباحة فترةً طويلة في مياه الينابيع الصافية، وفي إحدى المرَّات، اصطحبتُه وبقيتُ برفقته جالسةً

على السور، وقدماي مُبللة، معي كتابي المُعتاد الذي يسمح لي أن أبدوَ مُشتتةً وغائبةً قليلًا، على الرغم من أنني لم أُنزِل عيني عن ذلك الجسد الداكن، المُتناسِق، الذي يتحرك في الماء وكأنه يتحرَّر من كل فكرٍ ثقيلٍ ومزعج.

أعتقد أنه استعاد البُعد الجميل للحظة الحاضرة، ويستمتع به. قضاء الوقت مع جدِّه، والعثور على سمات تلك الجذور التي طالما افتقدَها، ومشاعر العذوبة والصفاء التي لا يستطيع أحدٌ أن ينقلها سوى الأجداد، بغضِّ النظر عن عمر الأحفاد، فعمِلَت تلك المشاعر بمثابة بلسمٍ على ذلك القلب المُبتَلى بالتناقُضات والوحدة.

بدا لي مثيرًا للاهتمام أي موضوع تحدَّثنا فيه، كان كل شيءٍ محاطًا بتعابير وجهه، وبالطريقة التي يُحرك بها يدَيه، ومُزيَّنًا بصوته العميق والعذب، وقبل كلِّ شيءٍ، بتلك العيون الفضية التي تتحدَّث لغةً خاصة بها، لُغة، حمدتُ الله، أنني أفهمها جيدًا.

لكن وقت إقامتي في سيوة كان محدودًا، وسأعود سريعًا إلى القاهرة، وهذه الفكرة، التي كانت تخطر على بالي من حينٍ لآخر، تَضربني على رأسي مثل قرع الجرس، مما أزعجَني بعض الشيء.

كان بابلو موجودًا منذ بضعة أشهر. كان قد تخرج في كلية اللغات في أثينا، وعمل موظفًا في شركة استيراد وتصدير، وصادَق فتاةً تُدعى إيليني، لكن لم تكونا الوظيفة والفتاة المناسبتَين له، لذا ترك كلتَيهما.

بعد وفاة جدَّته قرَّر الذَّهاب إلى مصر ولقاء جدِّه. في هذين الشهرين زار القاهرة، وواحات مختلفة، وصعيد مصر، من أبو سمبل إلى أسوان، والأقصر، وسافر عبر النيل إلى الدلتا واختبر كل ذلك مثل شيءٍ من البحث عن الذات. أقام صداقاتٍ مع هؤلاء الشباب وشاركوه معظم رحلاته إلى مصر.

ولكن بعد ذلك؟ هل يُسافر مرة أخرى؟ هل يبقى في مصر؟ لم تكن لديَّ الشجاعة لأسأله عن أي شيء. لم يكن جزءًا من الحاضر. في الوقت الحاضر ها نحن معًا، حتى لو بدا كأننا قادمان من كوكبَين مختلفين.

في حياتي، الوجيزة مقارنة بحياته، طالَما سافرتُ منذ الصغر، وسيطرَت الحركة على طريقتي في إدراك المكان والزمان. فالسفر هو طبيعة الأشياء ومعناها: فالعالم مُستدير، ولا يوجَد سببٌ لبقاء المرء ثابتًا في مكانٍ واحد، مثل علَم مغروس: يجب أن نسمح لأنفسنا بالتحرُّك في كل الاتجاهات، واحتضان هذه الأم الهائلة، لنشعُر بها وكأنها منزل مُتسع الأركان قادر على الترحيب بنا في أي مكان.

كنتُ فعلًا رحالة، متعطشة لرؤية العجائب، ولديَّ فضول كبير لمعرفة الناس والثقافات ووجهات النظر، فضول لأن أعرف، في كلِّ مكان، أي جزء مجهول من نفسي سأكتشِفه بينما أسافر في عيون الناس، في مناظرهم الطبيعية، وفي أودية وجبال حياة الآخرين، وأترك جزءًا من نفسي لدى مَن يريد منهم، تمامًا مثل فتات الخبز والحصى البيضاء، حتى ما نضلُّ الطريق إذا حاولنا يومًا ما أن نتقابل في مكانٍ ما وبطريقةٍ ما. هذا ما سمح لي بالعيش في القاهرة وكذلك في برلين، وفي فيينا، وفي فلوريدا كما في الأرجنتين، وهذا هو ما سمح لي بإيجاد طريقةٍ لأشعر وكأنني في بيتي، في كل مرة، وأنني لستُ مجرد سائحة عابرة.

كنتُ أحب دائمًا العثور على وظائف صغيرة، ليس فقط من أجل العائد المادي، ولكن بالأحرى كي أضع نفسي مكان السكان المحليين بشكلٍ أفضل، أحببتُ تناول الطعام في منازلهم، وتعلُّم وَصفاتِهم، واستخدام حافلاتهم، والاندماج مع الحشود دون أن أتميَّز عنهم، ألعب مع الأطفال وأجد نفسي أكثر فأكثر في كل مرة.

كانت الحقيبة التي أحملها معي أكثر ثراءً وامتلاءً مع كل رحلةٍ جديدة، ولكنها أبدًا لم تكن ثقيلة! شعرتُ وكأنني أعيش أكثر من عمري الفعلي، ولكن حتى الآن في كل مرةٍ أرحل فيها، أشعر وكأنني عدتُ طفلةً مرة أخرى، فضوليةً ومتلهفةً، مُستعدةً لأن أتفاجأ وأن أنبهر، مع أنَّني كنتُ مدركةً أنَّ أجمل الرِّحْلات، هي التي تحدُث داخل الناس، نرتحِل فيها بعيونٍ مغمضة، ونشعر بكلِّ خليةٍ في جسدنا.

ومع ذلك فقد وجدتُ في مصر شيئًا أكثر من ذلك. مع وجود المسافات التي يصعب عبورها ظاهريًّا بين العالم الأوروبي والعالم العربي، مثل وجود الثقافة الإسلامية، وكوني امرأةً في عالَم «تتحرك فيه النساء ببطء»، وعلى الرغم من المُداهنات والتناقُضات غير المنطقية، وعلى الرغم من كل شيء، فقد وجدتُ هناك شيئًا جديدًا في نفسي. ولهذا السبب بقيتُ مدَّة أطول. بدا لي أن بعض الضباب الذاتي قد تبدَّد. ربما كنتُ أنضج ليس إلَّا.

أما السفر بالنسبة لبابلو فكان شيئًا آخر. حاول أن يهرب من نفسه وينساها، وأن يُشوِّش أفكاره، أن يختلط ويضيع، ولم يفهم أنه في الواقع يبحث يائسًا عن معناه الأعمق، وعن مكانه. أعتقِد أنه ظنَّ أنه يعيش حياة شخصٍ آخر، في منزل شخصٍ آخر، ويأمُل في العثور على المالك حتى يقول له: ارجع إلى منزلك وحرِّرني من هذه الدور.

كنت أرى أنه يجِب عليه بالتأكيد أن يبدأ العزف مرةً أخرى. فالموسيقى طريق مفتوح يسمح للأرواح بالدخول والخروج، والوصول إلى الآخرين، بل وإلى أعماق النفس البشرية. لو كنتُ أعرف العزف لسافرتُ على ساقي أقل، وارتحلتُ في مساراتٍ أكثر عمقًا ووعورة.

للحظةٍ أرى صورتي تنعكِس في واجهة متجر، وأتوقَّف: أرى نفسي، وأنا أرتدي الجينز وحذاءً بأربطة، وسترةً زرقاء فاتحة، وبشعر طويل مربوط، ولكنه أشعث، وتُمسك شيرلي، ذات الرداء الوردي، بذراعي. نحن مُنفصلتان تمامًا عن المكان الذي نُوجَد فيه. أنا مُتيقِّنة من أننا نرى حولنا الآن أشجار النخيل، بدلًا من الرفوف وتماثيل المانيكان.

أشعر بالسعادة لأن تأخُّر الرحلة سمح لي بذلك، لكنني أخيرًا أشعر برغبة ملحَّة في السفر.

لم نبتعِد كثيرًا، أنا وشيرلي، نتحرَّك ذهابًا وإيابًا في الممر نفسه، ثم إلى لوحة إعلانات المغادرة، ونتحقَّق للحظةٍ ونعود. لا شيء يتحرَّك. فأثناء مدَّة انتظارنا، غادرت العشرات والعشرات من الطائرات، لكن لا أخبار بخصوص طائرتنا. أخذ السيد أنطونيو يستمِع إلى شكاوى العديد من رفاقنا في السفر، وبعضها باللغة العربية، لكن لم ينفد صبرُه، وهو يُراقبنا. بين الحين والآخر يقوم هو وزوجته بتحية بعضهما بعضًا بالتلويح باليد، ثم نستمر في ملخص الحلقات السابقة في مسلسل يبدو قديمًا.

– بدلًا من العودة إلى القرية عند غروب الشمس، قررنا ذات مساء أن نبيت في الصحراء، بالقُرب من «بير واحد»، وهي مرآة زرقاء محاطة بالقصب الأخضر. من بين الأشياء الرائعة في الصحراء ليس هناك أجمل من الليل: تستلقي على ظهرك وتغمرك شلَّالات النجوم. يبدو كما لو أن السماء نفسها تنطبق على الأرض، وتغمرك بلمعان النجوم. لا يوجَد ضجيج، لا توجَد رائحة، فقط أنت، وأنفاسك، ونبضات قلبك، وشعورك بالسلام.

في أوقاتٍ أخرى كنتُ أقضي الليل في الصحراء، لكن الأمر كان مختلفًا هذه المرة: فبابلو هناك. في الواقع، في تلك الليلة بالتحديد، في اللحظة التي حلَّت فيها السماء المُرصَّعة بالنجوم مكان البحر الكبير، بمجرد أن توارت الشمس وراء الأفق، وجدتُ نفسي مكشوفةً دون أي مكانٍ للاختباء، ودون أي حواجز للعقل، وأدركتُ حينها أنني، ببساطة، أُحبه بجنون.

ليس من الضروري أن يعرف الواحد منَّا الكثير عن الآخر حتى يقع في الحُب، بل على العكس، عندما نقع في الحب، نرغب في قَبُول كل شيءٍ عن الآخر دون الحاجة إلى فهم العناصر التي تمنحه تلك النكهة الخاصة، وتلك القيمة الفريدة جدًّا في نظرنا.

صعب فهم الحُب وتفسيره. فنحن نُعاني من الحُب ونتحمله ونقبله وننحني أمامه مثل قصبةٍ يجرفها تيَّار نهر هادر، فتترك نفسها له دون مقاومة. لهذا السبب، منذ بداية العالم، لا نقع فقط في حُب أشخاصٍ مثاليين ولُطفاء وصادِقين وأثرياء؛ فالحُب يحدُث. حيثما يحدُث، يحدُث. مثل المطر. مثل النار المُشتعلة. ببساطة يحدث ... وهذا يكفي.

هناك، تحت الغطاء المُرصَّع بالنجوم الذي يسحقني بلُطف على الأرض، وقلبي المُنتصر يتحكَّم في كل أعصابي، كان عليَّ أن أُدرك أن كل ما أشعر به ليس له سوى اسمٍ واحد فقط: «الحب».

لو استندتُ على عقلي، كنتُ سأختار أن أقع في حُب ميدو. فميدو شابٌّ لطيف، أخلاقه طيبة، من عائلة جيدة، خريج حقوق، دمث وبسيط ويتمتَّع بروح دعابة هائلة ... أي يسهل الوقوع في حُبه. ولكن لم تشتعِل بداخلي شرارة الحُب، ولم ينشب الحريق.

وانحنيتُ مثل القصبة التي يُحركها السيل المُتدفق، ولم أجرؤ حتى على المقاومة. وما الدافع الذي من أجلِه كنتُ سأقاوم السعادة التي تجري في عروقي؟ بل، ما هي الأدوات اللازمة لتحقيق النجاح في شيءٍ استعصى من قبلُ على الجميع؟

لكن مَن يستسلِم للحبِّ يعرف أن الجانب الآخر من تلك السعادة يُمكن أن يتحوَّل لألَم أشدَّ قتامة وحدَّة. فالأشياء الثمينة باهظة للغاية. لم أكن أدرك التطوُّر الذي يمكن أن يُحْدثه ذلك الاستسلام لهذه المشاعر، لكنني كنتُ على يقينٍ من شيء واحد: أنني سأواجه جزءًا من نفسي لم أعرفه من قبل، ولم أشعر به من قبل. فإذا ارتحلنا للقاء أنفسنا، فإن كلَّ شعورٍ وكل إحساسٍ عظيم نكتسبه، يُعتبَر هبة، سواءً كان جيدًا أم سيئًا.

شيء ما كان يُحدثني أن الألم قادم، ولكن في تلك اللحظات انشغلتُ بشدة بزخَم الحاضر فلم يُتِح لي ذلك فرصة القلق على المستقبل. حاضر مُتسع الأرجاء، في الليل، في الصحراء، ونحن مُستلقون على ظهورنا ووجوهنا إلى أعلى، نسكَر بمشهد النجوم التي تتساقط علينا مثل المطر الساطع، يدان تنفتحان وتنغلقان فتملكان الكونَ كلَّه بينهما.

بدأ قلبي ينبض بصوتٍ عالٍ لدرجة أنني اعتقدتُ أن صوته سيصِل للجميع. كنتُ أعلم أن وهج النار التي أشعلَها الشباب يمكن الخلط بينها وبين احمرار وجهي الذي شعرتُ به. لم تكن لديَّ الشجاعة للنظر، بل على العكس، أغمضتُ عيني لأصبح مجرد يد، وأشعر

بالكون كلِّه بين أصابعي، وبين أصابعه، كما لو كانت تتحدَّث، كما لو كانت تكشف أسرارًا لا توصَف.

أعتقد أن دمعة، في تلك اللحظة، قد فرَّت من عيني المُغمضة، لتمنع قلبي من الانفجار.

ربما نِمنا هكذا، لا أتذكَّر كيف انتقلت من الاستيقاظ إلى الحلم. كل ما في الأمر أنهما تزامَنا، وأصبحا واحدًا، تمامًا مثل يدَيَّ ويدَيْ بابلو. ومع ذلك، عندما أيقظتني شمس الفجر الحمراء، لم تعد يدُه تُمسك بيدي، بل تلامِس شعري بخفَّة شديدة، ثم تنزل إلى وجهي.

كان بابلو يشاهدني وأنا نائمة، وكأنه ينتظرني أن أستيقظ وحدي دون عجلة. بدت عيناه الفضيَّتان تُنافسان الشمس المشرقة لتوِّها. لم أنطق بكلمة. لم أستطع العثور على الكلمات. ضباب كبير من الأحاسيس والمشاعر يُخيم على عقلي.

ومع ذلك، بدأ ذلك اليوم أيضًا متخذًا مجراه المعتاد. بقي كل شيءٍ في الداخل. ولم يتغيَّر شيء في الخارج. وقبل أن تسطع الشمس رجعنا إلى القرية.

تنهدَت شيرلي بصوتٍ عال. وأنا أيضًا. ذكريات حيَّة. يا له من إنجازٍ عظيم، الاحتفاظ بها طوال هذه السنوات ثم تذكُّرها بكل تلك التفاصيل والمشاعر الحية!

«ها هما النهار والليل!» قال عبد الله عندما رآنا نصل. ابتسمتُ، كنت أشعر أنني ثملة، وأخشى أن أترنَّح.

اتخذنا مكاننا في مطعم عبده بين الآخرين. كان صديقي أمير موجودًا في ذلك اليوم في سيوة، حيث يمرُّ عليها كفترة راحة أثناء سفرياته المعتادة، ولكن غير العادية، في الصحراء.

كان أمير التجسُّد الفعلي لروح الصحراء. رجل نحيف، متوسط القامة، مُتواضع. لا علاقة له بعظمة ومَهابة البحر العظيم عند رؤيته، ولكنَّ قلبه كان هائلًا. وقد لا تُلاحظه وسط مجموعةٍ من الناس. إلا أنه إذا ارتفعت النظرة إلى الأعلى، في ذلك الوجه النحيف، فوق تلك الابتسامة الحزينة، ستفتح روح الصحراء ثغرةً على روعتها الخفية، وممرًّا على أعماقها.

روحٌ صنعت إنسانًا. لكنها ليست روحًا مثل روح الجن المذكورة في الأساطير التقليدية، بل روحًا طيبة عظيمة، قوية ولطيفة، في انسجامٍ تامٍّ مع طبيعة الصحراء القاسية والهائلة والمُرعبة.

كان اسمه أمير، وأحببتُ أن أعتقد أنه ربما يكون «أميري الصغير» المحبوب وقد كبر الآن. ربما عاد من كويكبه ... وهذا ما خفَّف من آلامي بسبب الاختفاء الرهيب الذي حدث بتواطؤ الثعبان البارد. ربما قد طار حقًّا إلى أعلى، عائدًا إلى وردته، وعندما كبر عاد إلى الأرض، وتوقف في الصحراء، حيث شعر بالارتياح، حيث بدا وكأنه يعرف كل بئرٍ مخفية، وكل مصدر للحياة، رغم أنه «غير مرئي للعيون» ...

في كل مرة يُغادر فيها إلى رحلات «السفاري» تلمع عيناه الزرقاوان كما لو أن أحدًا قد أشعلهما، مثل عيني طفلٍ يذهب إلى الملاهي، مثل عاشقٍ يذهب للقاء حبيبته ... وكنتُ أحلم أن أستطيع يومًا ما أن أكون قادرةً أن أُمثل لرَجُلِي ما تُمثله الصحراء لأمير؛ أن ينظر إليَّ بالحماس نفسه، وبنفس الفرحة التي أقرؤها في عينَي أمير عندما يتوجَّه نحو حضن صحرائه.

استيقاظي في ذلك الصباح كان مشابهًا جدًّا ...

أحببتُ أمير كثيرًا وكان يُحبني. أخبرَني أن لديَّ قلبًا نقيًّا وشفَّافًا، مثل اسمي، مايا، أنت مثل «مياه الينابيع الصافية» — كما قال — وكان على يقينٍ مِن أنني قادرة على فهم ومشاركة تعايُشه مع البحر العظيم. بالنسبة لي، بدا الأمر وكأنه مُجاملة جميلة، لم أكن أعتقِد أنني أستحقُّها. أصرَّ كأنه يعرف أكثر منِّي بكثير؛ لم يستطع تفسير ذلك، لكنه يتيقَّن أن الأمر كذلك، أن أرواحنا تتواصَل بفضل الصحراء بغضِّ النظر عن الكلمات والنوايا. وأحببتُ أن أُصدق ذلك.

كنت بحاجةٍ إلى ذلك قبل كل شيءٍ عندما عدتُ إلى روتين المدينة الفوضوي، عندما أصبح الصمتُ مستحيلًا حتى أن أتخيَّله، عندما فرضَت مياه النيل القاتمة الموحِلة نفسها على تلك الذكريات من النقاء والشفافية، مع كل الاحترام الواجب للنهر المُقدس! لذلك خدعتُ نفسي بأن أحمل داخلي دائمًا جزءًا من الصحراء إذا ربطتُ اسمي بالمياه، حيث أفكر تلقائيًّا في مياه الواحة بدلًا من تلك المياه التي تتدفَّق ببطء، وبلزوجة، تحت جسور القاهرة الضخمة.

نظر أمير إلى بابلو كريم وقال له أن يحرص على عدم إيذائي. رد بابلو بابتسامته غير المفهومة، ووجدتُ نفسي محرجةً أسأل: لماذا سيُؤذيني؟ لكنني كنتُ أفضل أن يردَّ بدلًا من

أن يبتسِم فقط. ربما لم يستطِع أن يكذب على روح أمير العظيمة بقولِه إنه لن يجعلني أعاني. ربما يعلم بالفعل أنه سيفعل ذلك. ولكن بعد صمتٍ طويل، أسند بابلو ذراعَيه على الطاولة، وانحنى نحوي وقال:

– مايا، هل تعرفين ماذا أنت؟

لم أفهم معنى السؤال، ربما كان استخدامه للإيطالية في تلك اللحظة غير مناسب.

– هل تقصد «ماذا أنا؟» أو «من أنا؟»

– ماذا ... شيء.

– إذن كان يعني بالفعل ما قاله ...

– ماذا أنا ... مسافرة، إحدى حبَّات رمل العالم، مُتعطشة للحياة.

– هل تعرفين زرزورة؟ أنت زرزورة.

– زرزورة؟ هل هي مُجاملة؟ ما هي؟

– أمير، اشرح لها ذلك!

قام وغادر، هكذا، وتركنا جميعًا على طاولة عبده، دون أي تفسير.

– زرزورة هي المدينة البيضاء، بيضاء كالحمامة، بيضاء كبشرتك يا مايا ... مدينة أسطورية في واحة بالصحراء الليبية. بحث عنها، على مرِّ القرون، المُستكشفون وعلماء الآثار والحالمون من جميع أنحاء العالم، ولكن لم يعثُر عليها أحدٌ على الإطلاق. إنها حُلم مئات الرجال. وقد ورد ذكرُها في مخطوطةٍ من القرن الخامس عشر، بعنوان «كتاب اللآلئ المخفية». واحة الطيور الصغيرة ذات اللون الأبيض والأسود والتي أخذت اسمَها منها. «زرزورة» ... كم من البعثات جابت الصحراء بحثًا عن بقايا تلك المدينة ... لكن الصحراء تُخفي لآلئها الثمينة، أو تكشفها للقلَّة القليلة من البشر، الذين عادة لا يعودون ليُخبروا عنها.

زرزورة ... مدينة فاضلة؟

إعلان حُب ... ماذا غير ذلك؟ أروع طريقة إعلان حُب. غير مباشرة، سحري، غامض، لكنه مُثير. هل سمع الجميع بابلو يصِفني بتلك الطريقة؟ سمع أمير ذلك، فنظر إليَّ بوجهِ شخصٍ يعرف الكثير. أصابني الحرج بالشلل ونظرتُ إلى ما وراء مدينة «شالي»، نحو البحر الكبير، حتى لا أقرأ في عيون الآخرين تعليقاتٍ حول ما كان بالنسبة لي حقيقةً جديدة مُثيرة ومأمولة.

كررتُ كلام أمير على نفسي وفي تلك اللحظة قدَّم لنا عبده أرزًا بالخلطة.

ظهر بابلو مرة أخرى وجلس أمام طبق الطعام المُعطر بالبهارات ويتصاعد منه البخار. لكنني قد عدتُ بالفعل من ذلك الحلم القصير: زرزورة غير موجودة. وإن سبق ووُجدت، فقد ابتلعتها الرمال.

– شكرًا!

فما بدا لي إعلانًا عن الحُب أصبح الآن بمثابة إهانة، ومقارنةً ذوقُها سيئ.

– عفوًا.

أجابني ولمحتُ السخرية في وجهه وبدا لي أنني رأيتُه يهز رأسه دون أن يلاحظه أحد. لم أتحدَّث معه مرة أخرى ذلك المساء، وبالفعل، بمجرد أن انتهيتُ من تناول الطعام تناولتُ الشاي وذهبت للجلوس على طاولة أمير. لكن قصة زرزورة كانت رائعة وأردتُ أن أعرف المزيد.

– أمير اعترِف: هل ما زلتَ تبحث عنها! زرزورة هي التي تدفعك إلى أن تكون أكثر جرأةً في رحلاتك في الصحراء، أم هل بالفعل وجدتَها؟ أنت تعرف أين هي، أليس كذلك؟ وتُخفي هذا الأمر بداخلك وكأنه سر! هذا هو السر الذي يجعل عينَيك تتلألأ كالنجوم!

ضحك أمير وهو ينفي ذلك. كنتُ أعلم أنه حتى لو كنتُ على حقٍّ فإنه لن يكشف ذلك أبدًا.

– هل ستأخُذني إلى هناك؟ من فضلك، هل ستأخذني إلى هناك؟

– زرزورة موجودة لكي نبحث عنها، وكل شخصٍ يبحث دائمًا عن زرزورته الخاصة.

هذه الإجابة أربكت الاستعارة التي أطلقها بابلو قبل قليل: أنت زرزورة ... لكني صُدِمت، ولم أُضف كلمةً أخرى على الموضوع.

حلمت تلك الليلة بالمدينة البيضاء المتألِّقة بالنور، ونوافيرها المُتدفقة، وذهب أفاريزها، وزخارف البيوت، والموسيقى العذبة، والهواء المعطر بالياسمين، وصواني التمر، و... بيانو كبير! لم يتحدَّث عنه أمير بالتأكيد، وما علاقة ذلك بالأمر؟ ولكن قرَّر عقلي أن يضعه هناك، بلونِه الأبيض اللامع، بينما تعزف الأصابع السمراء بفعل الشمس على مفاتيحه الأبنوسية والعاجية، فتبدو كما لو كانت تُداعبه.

في وجبة الإفطار، لم أحكِ حلمي، لكنني أخبرت بابلو أنني أريدُ أن أسمعه وهو يعزف. فأجاب أنه لم يعزف منذ سنوات. قلتُ إن جدَّه لا يستطيع الانتظار، وأنه سيُقدم له هدية

رائعة، وأنه سيغمض عينَيه ويستمع إلى زوجته الحبيبة تعود إلى الحياة مرةً أخرى ... إنها لفتة رائعة، أليس كذلك؟

أجابني: سنرى!

في ذلك اليوم، خطَّطنا للقيام بنزهةٍ في بحر الرمال، أنا والشباب. سيُغادر ميدو وأسامة في اليوم التالي: أرادا توديع الصحراء.

كانت أيام إجازتي تقترب أيضًا من نهايتها. أجَّلتُ بالفعل عودتي إلى القاهرة وطلبتُ من صديقتي نورا أن تحلَّ محلي في الجامعة. لم أقدِّم لها الكثير من التوضيحات، لكنها تعرفني جيدًا واكتفت بنبرة صوتي في الهاتف كي تفهم أن ما يُبقيني في سيوة، شيء أكبر من الصحراء.

– ابقَي كما تُريدين يا مايا، وحاوِلي أن تجمعي كميةً كبيرة من الأشياء الجميلة، فسوف تحتاجين إليها دائمًا. ولكن إن استطعتِ، فازرعي شيئًا يمكن أن ينبت وينمو بمرور الوقت.

– غرستُ نخلةً صغيرة في حديقة عبد الله!

– حسنًا، ليس هذا ما أقصده، لكني أعلم أنكِ تفهمين ...

أتحدث وأُفكر، أُفكر وأتذكَّر أصغر التفاصيل. لستُ متأكدةً من أنها كلها تخرج من فمي، أعتقد أن الكثير منها ظلَّت محصورةً بين إيماءاتي وتعبيراتي في ذلك السدِّ الذي يمنع نهر الكلمات من الفيضان.

لا بد أن كل هذا أربك شيرلي المسكينة الآن، بهذه الطريقة أشعر وكأنني أُسْكِرها بمشاعري. ولكن الآن يأتي الجزء الأفضل!

– هل تريدين أن تعرفي يا شيرلي؟ كما كنتُ أقول، توجَّهنا أنا والشباب إلى الصحراء لتوديع أسامة وميدو أمام أمواج بحر الرمال الكبير الذهبية. لقد تسابَقْنا ذهابًا وإيابًا على الكثبان الرملية مثل الأطفال؛ كان أسامة دائمًا أفضل في القيادة وكنَّا أقلَّ توترًا على متن السيارة مقارنة بالأيام القليلة الأولى. ثم أحضرنا ما يُشبه لوح ركوب الأمواج، وهو لوح خشبي رفيع، ذو شكلٍ طفيف، يمكنك الاستلقاء عليه على بطنك والسماح لنفسك بالانزلاق على التلال الشديدة الانحدار كما نفعل على الثلج. زدنا سرعتنا، وفي بعض الأحيان توقَّفت اللوحة وواصلنا الضحك والسقوط على المنحدر، ثم جنحت في تلك الرمال شِبه السائلة.

كنت أرتدي قميصًا أحمر وكان الأولاد يُضايقونني قائلين لي «ذات الرداء الأحمر» على الرغم من أنني لم أكن أرتدي قلنسوة. ابتسمتُ معهم، إلا أنه كان يُوجَد الكثير من أوجُه التشابه بيني وبين الفتاة الصغيرة الساذجة والشاردة، والتي، إذا فكَّرتُ في الأمر، كانت أيضًا مُتمردة بعض الشيء.

كان بابلو يلفُّ حول عنقه الكوفية المعتادة باللونَين الأبيض والأسود التي كان يرتديها عندما التقيتُه. وإذا لزم الأمر يلفُّها حول رأسه كما يفعل أهل سيوة. عندما أخبرتُه عن صديقتي نورا ومدى أهميتها بالنسبة لي، أخبرَني أن صديقه المُفضل هو الذي أعطاه تلك الكوفية: مُعتز، فتى فلسطيني عاش تجارب قاسية جدًّا في بلده، وقد علَّمه الكثير. فهناك أشياء كثيرة مشتركة بينهما، خاصة تلك المؤلِمة (في رأيي، كانت تجارب مُعتز أكثر موضوعيةً بكثير) ويشعر بابلو بالحنين إليه، وإلى رحلاتهما والليالي التي قضياها يتحدَّثان أمام النار على الشاطئ في اليونان.

مرَّ الوقت دون أن نُدرك ذلك. شعرنا بالسخونة في أجسادنا، وقد يكون هذا طبيعيًّا بعد كلِّ تلك الحركة. في الواقع لا، لم يكن الأمر طبيعيًّا: حيث ارتفعت درجة الحرارة بسرعة، وبدأت السماء تغيم. وبدأ لونها يُشبه بشكلٍ متزايد لون الرمال. حينها سيطر علينا جميعًا نوع من عدم الارتياح. تحوَّلت ملامح أسامة إلى الجدية والتوتُّر وأشار لنا بالعودة إلى الجيب فورًا. وقال بصوتٍ يكاد يختنق:

– خماسين!

لم يقُل أحد شيئًا، وانطلقت السيارة الجيب بأقصى سرعةٍ في طريق العودة.

رياح الخماسين، سُميت بذلك لأنها يمكن أن تستمر لمدة تصِل إلى خمسين يومًا، وهي موجات العواصف الرملية الأكثر فظاعة. صادفتُها في القاهرة، واضطررتُ إلى جمع أكوام من الرمال من شرفات وأرضيات المنزل (نظرًا لعدم إحكام إطارات النوافذ!) ولكن يكفي أن تبقى منغلقًا بالداخل وتتجنَّب الخروج. إنها ضيف ثقيل للغاية، لكنها بالتأكيد ليست خطيرة.

ولكن في الصحراء الأمر مختلف. في الصحراء قد تُصبح قوتها كارثية. ومَن يدري؟ إن كانت قد تمكَّنت عام ٥٢٤ قبل الميلاد، من دفن ما يصل إلى خمسين ألف جندي فارسي من جيش قمبيز، فمِن المُمكن أيضًا أن تكون رياح الخماسين مسئولةً عن اختفاء زرزورة، وبالتأكيد عن العديد من المُستكشفين الذين يبحثون عنها. وبينما أُفكر في هذه الكوارث

كنتُ في سيارة جيب تقفز بجنون في الصحراء هاربةً من العاصفة! مما أصابني بالذُّعر بالرغم من وجود بابلو بجانبي. بالطبع، إنها طمأنينة جميلة، ولكن ماذا لو اختفَينا معًا في الرمال ... يا له من شيءٍ رومانسي!

ازدادت السماء قتامة، وعمَّ ظلام غير طبيعي، أحمر اللون وكئيب ... إنه الليل بالنهار. تلاشى خط الأفق وارتفعت الرمال لتملأ الهواء. أما سطح الأرض فكان ألسنةً ولهيب نار ... لو كنَّا بالبحر لكانت بمثابة زَبَد الأمواج. لكنها رمال، جافَّة، صلبة، كثيفة، على شكل دوَّامات، حلَّت محلَّ السماء والهواء.

بدت السيارة الجيب كأنها تطير، وأصبح كل كَثِيب رملي نتسلَّقه بمثابة غزوٍ يتم تحقيقه من خلال أصوات الاصطدامات والهزَّات. اصطدمنا في كل مكانٍ أثناء محاولتنا استيعاب الحركات الفوضوية للسيارة. فنزول التلال خطير للغاية وخشيتُ عدة مرات أن تنقلب السيارة، وهو ما يحدُث عادةً بسهولةٍ حتى في الظروف المثالية.

ولحُسن الحظ أننا لم ننقلب، لكن أسامة رغم مهارته لم يتمكن من تجنُّب أن تنغرس العجلات في الرمال. سادت لحظة من الإحباط، مصحوبة بشتائم مكتومة، وبعد ذلك، لم يكن الكثير مما يُمكن عمله، ولا بدَّ من القيام به بسرعة. لففْنا أنفسنا بإحكامٍ بملاءات قطنية طويلة، ونزلنا لإزالة الرمال من العجلات. كانت الرياح قوية ومُزعجة، والرمال تلسعنا، وسرعة الرياح تخترق ملابسنا وملاءاتنا، مما يجعل الحماية عديمة الفائدة، وتحرير العجلات شِبه مستحيل.

قام أسامة بزيادة سرعة السيارة، لكن أخذت العجلات تدور دون حركة، وتصاعد المزيد من الرمال حولنا. لم يكن هناك وقت للخوف، حيث توجَد احتياجات أهم، مرَّتِ الدقائق ونحن ما زلنا عالِقين بشكلٍ متزايد. وفي مرحلةٍ ما، تسبب مزيج من قوة الدفع والرياح وزيادة سرعة السيارة في سقوط السيارة على جانبها! والحمد لله لم يكن أيٌّ منَّا تحتها، لكن الوضع ازداد تعقيدًا وازدادت حدَّة العاصفة.

هل سيأتي أحدٌ من القرية للبحث عنا؟ هل عرفوا وجهتنا؟ هل كان الخروج للبحث عنَّا خطيرًا جدًّا؟ يا إلهي! ... حينئذٍ بدأنا نشعر حقًّا بالقلق والخوف. إن لم يكن بسبب إزعاج الرمال الرهيب في العيون، والأنف، والأسنان، والحلق، الذي ارتسم بشكلٍ كلاسيكي على الوجوه، فسيكون بسبب أنَّنا نُحاول التنفُّس بصعوبة!

في لحظة مُعينة، هبَّت ريح عنيفة جردت بابلو من كوفيته، ورفعتها لأعلى في دوَّامة من الهواء. تحركتُ غريزيًّا لمحاولة الإمساك بها، بينما أُغطي وجهي بقطعةٍ من القماش ولا أكاد أتمكن من فتح عيني.

صرخ بابلو في وجهي بأن أترك الأمر وشأنه وأن أعود إليهم على الفور، حيث أخذوا يقتربون بعضهم من بعض على شكل مجموعة مغلقة في محاولةٍ للاحتماء خلف السيارة الجيب. لكنَّني، المُتيَّمة والمُغيبة، لم أرغب في ضياع الكوفية، لأنني أعرف قيمتها العاطفية، واندفعتُ للأمام، ثم في هذا الاتجاه، ثم في ذلك الاتجاه، دائمًا على بُعد خطوة من الإمساك بها، وفي كل مرة أعود بيدَين فارغتَين. كنت أسمع بابلو يُناديني بصوتٍ أجش بالفعل من الرمال، لكنني لم أرفع عينيَّ عن تلك القماشة ذات اللونَين الأسود والأبيض، التي تسخر منِّي بطيرانها للأعلى وهبوطها مع هبوب الرمال.

أصبح التنفُّس صعبًا جدًّا وازدادت كل خطوة صعوبة. ورغم ذلك انتصرت! وفي لحظةٍ قصيرة جدًّا كنت أسرع من الريح وأمسكت بها! وبشكلٍ غريزي، وضعت الكوفية أمام أنفي، حتى لا أتنفَّس المزيد من الرمال، وشعرت برائحة بابلو تُداعبني، وكأنها تُكافئني لبضع ثوانٍ على العمل الفذِّ الذي أنجزتُه.

ثم التفتُّ لأصرخ صرخة النصر، لكنني لم أعد أرى شيئًا. لا شيء! الرمال كالجدران، أمامي، خلفي، ومِن حولي!

كيف حدث هذا؟ فأنا لم أذهب بعيدًا إلى هذا الحد، لا يمكن أن يكون الشباب والسيارة الجيب قد اختفوا! أصبحت فريسةً للقلق والرُّعب. لم أعُد أعرف إلى أين أتَّجه، لا أستطيع التنفُّس، ولا الرؤية، ولا أسمع سوى أزيز الريح.

أمسكتُ بكوفية بابلو وقماشتي حول وجهي. هل كانت هذه نهايتي؟

حدث ذات مرةٍ أن أخبرت صديقًا لي عن رغبتي في أن يُنثَر رَمَاد جسدي في الصحراء بعد موتي. هل هذه هي أسرع طريقة لتفسير رغبتي وتحقيقها؟ هل سأبقى مدفونةً في تلك الرمال مثل «زرزورة» وكنوزها؟ فكرتُ في والديَّ، وكم سيتألَّمان لو تخيَّلاني في هذا الوضع، في تلك اللحظة، سجينة الصحراء التي أحببتُها كثيرًا.

ماذا عن الشباب؟ مزيج من مشاعر الفزع والرُّعب والغضب وعدم التصديق والضيق بسبب صعوبة التنفُّس، مع تلك الحرارة، وهذه السياط الساخنة، وعدم القدرة على استخدام صوتي ... جلستُ القرفصاء، احتضنتُ ساقيَّ المَثنيتَين، أخفيتُ وجهي بين ركبتَي، وأخذتُ أُصلِّي.

كم مرة شعرتُ أن الربَّ قريب جدًّا منِّي في الصحراء ... كم مرة صلَّيت بعُمق، وسط تلك الرمال وذلك الفضاء ... كنتُ متأكدةً من أنه يسمعني، وإن لم يكن مُقَدرًا لي أن أعود إلى المنزل سالمةً مع الشباب، سيُرحب بي هناك، بين ذراعَيه. لذلك، في كل الأحوال لستُ وحيدةً، لم أعُد أشعر بالوحدة وحلَّت الثقة مكان الخوف.

لا أعرف كم من الوقت قضيتُه في هذا الوضع، مُتكوِّرة على نفسي، ساكنة، مغمورة في كوفية بابلو، لكن عندما سمعتُ اسمي يُنطَق، شعرتُ بأكثر إحساسٍ روحانيةً وتأثيرًا في حياتي حتى تلك اللحظة. «مايا الحمد لله!»

رفعتُ رأسي وأخذني بابلو من يدي بسرعة وساعدَني على النهوض. كانت عضلاتي تؤلِمني. أخذ يُعانقني بقوة، حتى شعرتُ أنني أصبحتُ بداخله، بين ضلوعه وقلبه، بين أنفاسه ونبضات قلبه. أخذ يُثرثر بأنهارٍ من الكلمات بصوتٍ بالكاد يمكن التعرُّف عليه بسبب الرمال المحشورة في حلقه. لم أستطع أن أنطق بكلمةٍ واحدة وشعرتُ بأن الله هو الذي سمع صلواتي، وأرسل ملاكَه ليُنقذني. في الواقع كنَّا لا نزال في وسط العاصفة، في الصحراء، دون أي احتمالٍ يبعث على الاطمئنان، لكنَّنا كُنَّا على قيد الحياة وكنَّا معًا.

معًا بشكلٍ مُثير للإعجاب، في قبضة عناقٍ مؤثر، لا يناله أي ارتخاء، والذي لخَّص الأصوات والمشاعر المكبوتة حتى ذلك الحين، مَن يدري؟ بالخوف من الاستسلام، بالجرأة، بعدم الإدراك. أُصيب بابلو بالصدمة، وبدا وكأنه قد تحوَّل، وفَهِمَ كل شيءٍ فجأة، وكان يتحدَّث بلا انقطاع، ويمزج بين اللغات المختلفة التي يعرفها.

قال اسمي عشرات المرات، وكأنه يُريد أن يستدعيَ الماء، ليُطفئ تلك الحرارة، ليغسل الرمال التي غطَّتنا. لكن على الرغم من اسمي، كنتُ عاجزةً عن مساعدته: كنت بحاجةٍ إلى الماء مِثله تمامًا. كان يتحدَّث باللغتَين العربية والإسبانية، وباللغة الإيطالية قال إنه كان خائفًا جدًّا من فقداني، خائفًا جدًّا ... وذكر «ذات الرداء الأحمر» وفهمتُ أن اللون الأحمر للتيشيرت الذي أرتديه ساعدَه على رؤيتي وسط كل ذلك المجهول.

لم أستطع معرفة كم مرَّ علينا من الوقت، ربما ثوانٍ أو دقائق. لا أعلم، لكن الشباب ظهروا أيضًا. آمِنين وسالمين، ووجوههم مُغطاة بالقماش ومردومة بالكامل من الرمال. بقِينا مُتَّحِدين ومتماسِكين، وعُدنا إلى السيارة الجيب.

لا بد أنني لم أبتعِد عنهم كثيرًا، ولكن كان صعبًا رؤية أكثر من خمسة أمتار للأمام.

جلسنا نحن الأربعة على الأرض خلف السيارة. أعطاني أسامة زجاجة الماء وكان شُرب رشفة الماء هذه بمثابة لحظةٍ روحية أخرى من الشكر والحمد لله، وقال أسامة:

«سوف ترَون أنهم سيجدوننا» وقد صدَّقت ذلك. شعرتُ وكأننا آمنون بالفعل، على الرغم من أنَّنا لم نكُن آمِنين على الإطلاق. أدركتُ أنني فقدتُ حذائي، لقد ابتلعَتْه الرمال! لا يُهم ... كان لديَّ الكوفية! أظهرتها لبابلو وأنا فخورة وأحاول أن أبتسِم. كان مصدومًا جدًّا، حتى إن وجهه عبَّر عنه، وأدركتُ أنني كنتُ مجنونةً بمطاردة قطعة القماش تلك، التي مهما بلغت قيمتها، فإنها لا تُساوي الحياة بأكملها. الآن زادت قيمتها. أخذَها بابلو ولفَّها حول رأسي ورقبتي، ورفعها لأعلى لتُغطي فمي وأنفي. وضع ذراعَه حول كتفي، وساقيَّ فوق ساقَيه، وأسندتُ وجهي على صدره؛ وهو أسند خدَّه على رأسي. وبيدِه الأخرى كان يُداعبني بعصبيةٍ تقريبًا.

ومع ذلك، فإن تلك الحميمية المفاجئة التي فرضها الحدث الاستثنائي والخوف من فقدان الحياة بدَت لي أكثرَ شيءٍ طبيعي ووضوحًا في العالم، فأنا وهو لن نكون سوى مُتعانقَين، تقريبًا لننصهِر معًا ونُصبح شيئًا واحدًا. فقد بدأت روحانا ذلك منذ فترة، والآن انضمَّ إليهما جسدانا أيضًا. شعرت أن العاصفة قد فقدت حدَّتها، لكنني لم أتمكن من فَهم لو تأثَّر إدراكي بالعاطفة والحُب الذي يُهدئ كل شيء، ويتحمل كل شيء، ويُغير كل شيء ... ربما كان الأمر كذلك حقًّا، حيث رأينا سيارتَين تقتربان منَّا ورأيناهما من بعيد بفرحة لا توصَف! وهم أمير وعبد الله وابن عمه أحمد وعلوش. بالنسبة لي كان الأمر أشبهَ برؤية رؤساء الملائكة الأربعة ينزلون لإنقاذنا، فكانت الفرحة جنونيةً ولا تُصدق. ما إن خفَّت حدة التوتر، أخذتُ أبكي، وشعرتُ بالدموع الساخنة تتساقط وتشقُّ طريقها بين الرمال التي تُغطي بشرتي ... فكرت في الينابيع، وفي حمَّام كليوباترا الذي سأغوص فيه بكل سرور لأُزيل عني كل حبةِ رمل. تركنا الجيب وركبنا مع رجال الإنقاذ. أنا وبابلو مع أمير وعلوش، والآخرون مع عبد الله. لن يبدءوا في إصلاح سيارة أسامة إلا بعد أن تهدأ الرياح، وسيعتني بها أصدقاؤه من أهل سيوة، لأنه عليه العودة. لن يكون من السهل التعافي من تلك التجربة الرهيبة أيضًا. ومن الواضح أن العاصفة ضربت القرية أيضًا، لكن القرية حَمَت نفسها بشكلٍ أفضل. قامت زوجة عبد الله بالاعتناء بي، كنتُ أشعر بدوار في رأسي، وطنينٍ في أذني، وحلقي وعيني يحترقان بشدة. كان الشباب يُعانون أيضًا من هذه الأعراض، لكن بابلو، بمجرد أن اطمأن أنني بين يدي سميرة، هرب بعيدًا ولم أفهم إلى أين اتَّجهَ إلَّا لاحقًا.

استمعت لي شيرلي وقد حبست أنفاسها، ثم أخيرًا تنهَّدت تنهيدةً عميقة ويداها على وجهها واسترخت. وطلبت مني الجلوس مرةً أخرى وكأن التوتُّر قد أتعبها.

– يا لها من تجربة مُرعبة! ومع ذلك، فإن حُبك للصحراء لم يتأثر، ولم يمنعك الخوف من العودة إلى الكثبان الرملية ... أنا مُعجبة بكِ، هل تعلمين؟ لكنك أصبتِني بالقشعريرة، لم أعُد أعلم إذا كان من الصواب القيام بالرحلة بين الكثبان الرملية!

– أنا أيضًا، في ذلك اليوم، شعرتُ بأنني تعرضتُ لمعجزة. لكن صدِّقيني يا شيرلي، بمجرد زوال الخوف من الموت في الرمال المجنونة، كانت المعجزة التي شعرتُ أنها حدثت لي بالفعل، هي احتضان بابلو، واهتمامه، ودِفأه، وعذوبته التي أعادَتني إلى العالم، وعطفه الذي أعاد لي أنفاسي. لا أخفيكِ سرًّا أنني شعرتُ وكأن غطاء الحُب الدافئ يلتفُّ حولي ويحميني.

نعم، صدمتني العاصفة، ولكن ما أذهلني بالأكثر هو ذلك الشعور الذي لا يُمكن إنكاره الذي عبَّر عنه بابلو، والذي بدا لي حتى تلك اللحظة مجرد أملٍ وانطباع خجول حقيقي. في تلك اللحظة أردت فقط أن أكون معه، وأختبر هذا السحر، وأُخبره أنني أُحبه وأنني لا أريد أن أترُكه أبدًا.

لقد باركت تلك العاصفة: إنها الريح المجنونة التي دفعتنا الواحد نحو الآخر مثل نجمَين، بعد أن تجوَّلا في الكون، وتلاقَيا أخيرًا ليُصبحا نجمةً واحدة، نورُها أكثر إشراقًا.

أردتُ أن أغير ملابسي بسرعة، لكن سميرة أعدَّت لي حمامًا ساخنًا ومعطرًا، ومراهم مرطبة، وجلابية منعشة ونظيفة، وحذاءً وشايًا أخضر رائع المذاق، ينزل على حلقي كالبلسم بينما استمرَّت حبَّات الرمال الصغيرة تَصرُّ بين أسناني بينما أمضغ التمر اللذيذ.

وفي لحظةٍ ما، توقفنا أنا وهي، وقد أدهشنا شيء غريب. أخذنا نُنصت بعناية ونحن نتطلَّع نحو الباب: من بين هبوب الرياح العاتية بدأنا نُميز صوت موسيقى بعيدة. لم تكن تصل إلينا بشكل واضح، حيث إن أغنيات أشجار النخيل، التي تهتزُّ بفعل العاصفة تُغطي على ذلك الصوت العذب والمُنَغَّم. يا إلهي! إنه صوت بيانو! لقد كان بابلو! لا يمكن أن يكون إلا هو، يعزف على البيانو الكبير في منزل جدِّه ... ورفعت الريح تلك النغمات النابضة بالحياة، التي يُطارد بعضها بعضًا مثل فراشات حُبست لفترة طويلة.

سرت قشعريرة في جسدي: لقد ركض بابلو إلى جدِّه ليُعانق الحياة من جديد، ليمتلكها مرة أخرى، ليُعيد ذكرى جدَّته وموسيقاها إلى الحياة، وليتصالح مع عواصفه الداخلية!

أغمضَت سميرة عينَيها وكأنها تحاول أن تسمع بشكلٍ أفضل، وابتسمت مسحورة. على الرغم من الريح، بدأ الناس الفضوليون والحائرون في الخروج إلى الشارع. يتذكَّر الكثير منهم تمامًا ألحان جدَّةِ بابلو التي كان يتردَّد صداها في القرية بين أصوات الحمير والطيور. ولم يستطيعوا فَهم هذه الموسيقى العذبة التي عادت لتُسمَع في القرية، بعد أن أغلق موتُها ذلك البيانو.

كانت لحظة رائعة، مُثيرة للجميع، وصادمة بالنسبة لي حيث ما زلتُ أعاني مما تعرضتُ له من مفاجآتٍ أخرى في ذلك اليوم الخيالي. لم أتمكن من الحديث مع سميرة بسبب اللُّغة، لكني نظرتُ إليها وأخبرتها بكل ما يجب أن أقوله بعيني. ردَّت بابتسامةٍ متفهمة وأشارت لي بالذهاب. كنتُ أعرف جيدًا الاتجاه إلى بيت الجد، في نهاية بستان النخيل، وأنا ملفوفة بالقماش الأسود الجميل المُطرز بزخارف برتقالية، انطلقتُ بخطواتٍ مسرعة وكأن تلك الموسيقى تُناديني.

كلما اقتربت، أدركتُ تلك الموسيقى العذبة بشكلٍ أفضل، وشعرتُ بأن ذلك الصوت يُناديني كما تُنبه صفارات الإنذار البَحَّار.

وصلتُ إلى بيت الجد كريم وأنفاسي تكاد تكون مقطوعة، وتوقَّفتُ أمامه: لم أرغب في المخاطرة بإفساد تلك اللحظة. تعزف يدان داكنتان برشاقةٍ على مفاتيح البيانو السوداء والبيضاء، تمنحان صوتًا لآلةٍ صمَتت لفترةٍ طويلة. أنهار من المشاعر المكبوتة، ومن الغضب والحب والدم والروابط، تتدفَّق من الموسيقى لتتمايل في الهواء وتكسر جدران الكبرياء، وسوء الفهم، والألَم، والحنين. وشابٌّ ينفتِح وينطلِق في حياته، ويمنح جدَّه المُسنَّ حلقة الوصل بين ماضٍ ثقيل صنعَته التضحيات ومُستقبل ما يزال مُمكنًا، من المشاركة والحياة مع الأحفاد. وتوجَد قرية رفعَت رأسها، بعد العاصفة، التي خفَّت حدَّتها الآن، واقتربت لتستمتع بالموسيقى المؤثرة والمُحرِّرة، التي أصبحت بمثابة واحةٍ داخل الواحة، للمشاعر وللأرواح الحساسة. ثم أنا أيضًا، مايا، التي ربما كنتُ، دون قصد، المُحفِّز على ردِّ الفعل هذا، ووجدتُ نفسي كالثمِلة، أشعر بمشاعر جديدة، وسعادة لم اختبرها من قبل.

فالموسيقى تتمتَّع بالقُدرة على إظهار المشاعر والتصوُّرات المدفونة في حالات الوعي الخامل أو مِن عوالم أسلافنا التي لم نعتقِد أنها تنتمي إلينا. الموسيقى، مثل الحُب بين الناس، مصنوعة من التناغُم، والشعور بالخلود، والانتماء إلى الكون، الإلهي، والمقدس. الإيقاع، الضربات، الاهتزازات ... الموسيقى والحُب مكوَّنان من نفس العناصر، ينسجمان

مع النجوم، مع الطبيعة، ولسنا إلَّا أدوات تستمدُّ منها الطبيعة نفسها سيمفونيتها، وأنفاس حياتها، وموسيقاها.

أخذ بابلو يعزف لفترةٍ طويلة، دون توقُّف، لكنه كان يعلَم أنني هناك، رآني وتبادَلْنا النظرات للحظةٍ طويلة، كما تعوَّدنا، منصهرَين معًا على الرغم من بُعد المسافة. لم يتحرَّك الجَدُّ من على الكرسي الموجود في زاوية الغرفة. جلس في سكونٍ مغمض العينَين مُمسكًا بين يدَيه صورة رفيقة عمره. أعتقد أنه شعر بوجودها معه في ذلك اليوم، وكاد يلمسها مرةً أخرى. وكان هو أيضًا جزءًا من سعادتي.

عندما توقفَت يدا بابلو، بدا عليه التعب والإرهاق. بقيتُ في مكاني، أنتظر. نهض، أعدَّ الشاي، فاقتربتُ منه. صبَّ شايًا لي ولجدِّه، فأخذتُه منه بكل سرور. قال الجد: «شكرًا»، وباركَه ... ووجَّه لي أيضًا بعض الكلمات الطيبة. ثم قال بابلو إنه يُريد الذهاب ليأخُذ غطسًا في نبعٍ قريب؛ كان لا يزال يحمل الرمال على جسده، وبعد نفْض الغبار عن قلبه، يجدُر به أيضًا أن يعتني بجسده.

ذهبتُ معه. وعندما أصبحنا بعيدًا عن أعيُن السكان، أمسك بيدي وشعرتُ أنني فريدة في هذا العالم، ثمينة، ومُميزة، ومختارة. أخذنا نمشي هكذا، وبدأت يدانا تتعرفان جيدًا، وتتحدَّثان معًا دون كلمات.

عندما وصلنا إلى نبع الماء، خلع بابلو ملابسه وغطس في الماء. جلستُ وأسندتُ ظهري إلى جذع نخلةٍ ضخمة. شعرتُ أنني بخير، بل في أحسن حالاتي. خرج من الماء وأدركتُ أنه ليس لدَيه مناشف ليُجفِّف بها نفسه؛ لكنه لم يُحاول، أخذ يدي، وسحبني وعانقني، وبلَّلني تمامًا أيضًا! ارتعشتُ وانفجرتُ ضحكًا، بينما أُغمضُ عيني وأُرجِع رأسي إلى الخلف، كما يُمكنك تخيُّل ما يحدث للمرء عندما يضحك ... أما هو ... فقد قبَّل ضحكتي، ثم عيني، وجبهتي، وخديَّ، ورقبتي، ثم عاد إلى الشفاه ...

هناك لحظة مُحددة يتمزَّق فيها الحجاب، وتنفَك العقدة، وتُجتاز العتبة، بعدَها لا يعود شيء كما كان: غالبًا ما تكون قبلة. فالقبلة الأولى، مفتاح الدخول إلى بُعدٍ جديد، تعثر في نهايته على ذاتك، بعد فترةٍ طويلة من البحث، والتخيُّل، والمتابعة، والانتظار؛ إنه قبول الذات، بعد الكثير من الشكوك والتردُّد والآمال، في البُعد الحميمي نفسه. فجأة ننفتِح على الآخر، نتذوَّقه، نتنفَّسه، وأخيرًا نُصبح أحرارًا في الكشف عن أنفسنا والاعتراف بالرغبة في الاتحاد والاندماج. فالقُبلة يُمكنها أن تقول ما لا يمكن البوح به. إنها نهاية المقدمة وبداية

القصة، والتي يمكن أن تستمرَّ لبضع لحظاتٍ أو إلى مدى الحياة. يمكن أن تَفنى في ثوانٍ معدودة مثل لهب عود الثقاب أو أن تُشعل نيرانًا في القلب إلى الأبد.

وها أنا ذا وقد تركَتْ تلك النيران آثارها عليَّ منذ تلك القبلة.

القبلة بعد العاصفة، في تلك الجنَّة الأصيلة من المياه العذبة النابعة من بطن الأرض، الشفَّافة والمتلألئة مثل عيون حبيبي، شيء يستحقُّ أن يجيء المرء إلى العالَم من أجله، مهما كانت بقية حياته. ومع ذلك، بدا الأمر كما لو أنَّنا طالما كنَّا معًا، وكأننا يعرف أحدُنا الآخر منذ الأزل، كما لو أنه لا وجود لأي زمنٍ قبل هذه اللحظة. فقد كنَّا مثل القِطَع التي يتم تعشيقها تمامًا بعضها مع بعض. شعرتُ بأصابعه في يدي مثل المفاتيح السوداء بين المفاتيح البيضاء في البيانو، ورأيت فيها نفس الإمكانات اللامحدودة لتأليف ألحانٍ رائعة.

أردتُ أن أستمع إليه وهو يعزف مرةً أخرى، ربما لي فقط، وقد فاجأني بقوله إن موسيقاي في رأسه، وأنه يُلحنها، لتتحوَّل تلك الأيام إلى أنغام موسيقية، لنتذكَّرها متى أردْنا. كنتُ عاجزةً عن الكلام من السعادة ولم أفهم، لم أرغب في أن أفهم أن بابلو يضع لِقصَّتنا زمنًا محددًا، بل بالأحرى فترة «لها نهاية»، بينما اعتبرتُها أنا البداية لحياتنا الأبدية معًا ...

عندما نقع في الحُب، نرى ما نريد رؤيته، فنستبعد بقية العالم، لأننا نعتقد أننا نملك كل شيءٍ في قلوبنا، في عقولنا، في أيدينا، على شفاهنا، وفي أعيُننا. نفقد إحساسنا بالوقت، ولا نشعُر بالبرد، ولا بالحرارة، ويبدو كلُّ شيءٍ ممكنًا ولا توجَد عقبة لا يمكن التغلُّب عليها.

لقد هدأت الآن عاصفة الرياح والرمال؛ ولم تهدأ العاصفة التي تعصف بداخلي. عندما عُدنا إلى القرية، كنَّا أنا وبابلو شخصًا واحدًا، لم نعُد أنا وهو، بل أصبحنا «نحن». على الرغم من أن أيادينا لم تستطِع أن تتشابك ولم نستطع تبادُل العواطف، لكنني أعتقِد أن ارتباطنا بدا واضحًا للعيان، ذلك التواصُل البصري المُستمر، والنظرة الحالمة، والعقل الشارد قليلًا.

اعتقدتُ أن معظم الناس ربما أرجعوا عدم التركيز ذلك إلى تجربة العاصفة، لكن أصدقاءنا كانوا يعرفون، ربما قبلنا، أن الأمر يتعلق بشيءٍ آخر.

ذهبنا إلى مطعم عبده، وكان الناس يتهامسون، وفهمنا أن الموضوع هو حادثتنا في الصحراء. طمأنَّا الجميع بابتساماتٍ كبيرة وقدَّمنا المشروبات أيضًا على شرف المُغادرين

قريبًا. لكنني لم أستطع حتى التعامُل مع ذلك الأمر في ذهني. كنتُ أعيش اللحظة الحاضرة المُمتدة. تناولنا العشاء.

زاد الرحيل الوشيك من أجواء الحُزن نوعًا ما. بين الحين والآخر تمتدُّ يد بابلو الذي يجلس بجانبي تُصافحني خلسةً، وكان ذلك كافيًا ليُشعرني بالأمان. هو سيمكث في سيوة مع جدِّه، بينما سيُغادر الشباب في اليوم التالي، وقد فعلتُ حسنًا بأن أُغادر معهم، حتى لا أسافر وحدي بعدهم بيوم. سيُحضر هو سيارة أسامة إلى الإسكندرية، بمجرد إصلاحها. ولكن بعد ذلك سوف نتقابل مرةً أخرى بالتأكيد! على حدِّ علمي، أصبحَت لدَينا حياة يجب أن نُخطط لها معًا!

نظرت إلى القمر الآن عاليًا في السماء. لقد كان بدرًا مُستديرًا وأبيض، بما يكفي لتضيع داخلَه وتغرَق فيه بأفكارك.

كان هو من يشغل أفكاري. ما أراه، وما أشعر به، وما تذوَّقتُه، كان هو، كان مذاقه، وجوده اندمج مع وجوده، ذلك الذي كان خارجًا منِّي أصبح الآن بداخلي، بل أصبح «أنا». ذلك القمر الأبيض ذو النظرة المغناطيسية كان هو، وبالتالي كنتُ أنا.

– هل تنظرين إلى نفسك يا مايا؟

– لا، أنا أنظر إليك. قلت لبابلو.

– لكنني هنا.

تركت النظر إلى القمر ونظرتُ إليه. أخذت يدَه ووضعتُها على قلبي: أنت هنا.

فعل الشيء نفسه بيدي، وحتى اليوم، إذا فكرتُ في أنقى لحظة سعادة، تتبادر إلى ذهني تلك اللحظة. إحدى تلك اللحظات التي تخطر ببالك فكرة أن الكون بأكمله قد خطَّط ونسج حبكاته، مثل خيوط الدانتيل، ليجعل شخصَين يَختبران ويفهمان المعنى العميق للحياة. هذا ما حدث بالفعل، وأنجزنا المهمة: لقد عثر كلٌّ منَّا على الآخر، ثم تحقَّق القبول، واكتملْنا. ماذا بعد؟ بعد ذلك أمامنا بقية الحياة.

شيرلي متعبة. وأنا كذلك. عاطفيًّا وجسديًّا أيضًا. غادرت المنزل في السابعة صباحًا، وفي الثامنة غادرنا «سان جايتانو». في حوالي منتصف النهار كنَّا في مطار «فيوميتشينو». من الناحية النظرية كانت رحلتي في الساعة ٢:٣٠ بعد الظهر. من ساعة إلى أخرى يتغيَّر موعد المغادرة، وها نحن نقترب من الساعة الخامسة ولا نعرف شيئًا عن موعد الإقلاع.

أنا سعيدةٌ لأنني قضيتُ وقتًا مع هذه المرأة اللطيفة، نوع من الاستعداد الإضافي للرحلة التي تنتظِرني، لكن الوضع المُعلَّق، ذلك الذي وضعونا فيه ليس مُريحًا بالمرة. لا بأس أن

نتأخَّر، ولا بأس أن ننتظِر، لكن ليمنحونا بعض اليقين! حيث يُمكننا قضاء هذه الساعات في مكانٍ آخر! بطارية هاتفي على وشك النفاد وأحتاج إلى العثور على مكانٍ لشحنها. أستمر في إرسال الرسائل لإطلاع الأصدقاء والأقارب على آخر المُستجدات، وإذا توقفت للحظةٍ لأرى الواقع حولي أشعر بالصدمة والغضب. حدث هذا بالفعل للكثيرين. يوجَد ارتباك وهيَجان، لم نعُد نحتمَّل أضواء النيون هذه، وتلك الأصوات المعدنية الرتيبة التي تعلن فقط عن رحيل الآخرين. أرى شيرلي تغفو ورأسها مُستند على كتف زوجها وأفكر أن الخروج في الهواء الطلق ربما يُفيدني. قلت لأنطونيو:

– أراكَ بعد قليل، أعتقد أنني صدعت رأسها بثرثرتي!

– كيف تقولين هذا! لقد ساعدْتِها على مرور الوقت. بدت مُتأثرة جدًّا بقصصك، شكرًا لك!

– حضرتك لطيفٌ جدًّا. أراكم لاحقًا إذن. من فضلك لو حدث أي جديد، هذا رقمي، رنةٌ واحدة ستكون كافية.

حملتُ حقيبتي وسرتُ نحو أحد أبواب الخروج. أتقابل مع شابٍّ يتحدَّث الإسبانية مع آخر، وأُذهَل للحظة، ولم أعُد أعرف على وجه اليقين ما إذا كان السبب هو الذكريات التي تتدفَّق من رأسي أو ما إذا كان العالم قد استمرَّ بالفعل في الدوران حتى بعدَ «انسحابي» منه. ذلك العالَم الذي يطؤه المليارات من الأشخاص المُثيرين للاهتمام الذين رفضتُ أخذَهم بعين الاعتبار.

توقفتُ قليلًا على الرصيف، الهواء منعش، والناس في ذهابهم وإيابهم يُشتتون انتباهي بعض الوقت. وأثناء تناوُلي بعض البسكويت، لفَتَ انتباهي زوجان: هو نزل من السيارة الأجرة وركض ليفتح لها الباب، كانت جميلة، وأنيقة، ومُبتسمة. تحمل حقيبة أدوات تجميل، وهو يحمل حقيبةً متوسطة الحجم. يدخلان المطار مُتشابكَي اليدَين دون عجلة. أتساءل عما إذا كانا سيُغادران معًا أم أن أحدهما يُرافق الآخر ليودِّعه. أتساءل عما إذا كانا، مثل الآخرين، قادرَيْن على اختبار الحب كما اختبرته، أم إذا كانا ببساطةٍ يستمتعان بحالةٍ من الصفاء والعذوبة، دون تجربة الدراما والانفصال والعودة. هل سيكون لي مَن أشاركه بقية حياتي برومانسية؟ ربما بطريقةٍ عادية بلا ألعاب نارية احتفالية، ولكن بلا حرائق مدمرة للروح أيضًا. لا أعلم ... لقد حاولت بالفعل، بل منذ فترة ليست ببعيدة. خرجت مع «نيلُّو». شجع العم ميكيله هذا الأمر، يراه فتًى ماهرًا، ومُتفوقًا في عمله. والحق يُقال إنه أيضًا لطيف جدًّا، قضيتُ وقتًا مُمتعًا معه في تناول العشاء ثم الرقص ... أمسية خالية من

الهموم. بل وتبادلنا أيضًا القبلات عندما اصطحبني إلى المنزل، لكن ماذا عن المشاعر؟ بلا أية مشاعر. ربما أبدو مملةً ومتغطرسةً بسبب انفصالي عن الناس. يعتقد بعضهم أنني أشعر بالتعالي لأنني من روما، عاصمة العالم، ولا أتنازل وأستمتع بحياتي مع الصيادين والمُزارعين، لكن الأمر ليس كذلك. لقد غادرتُ روما لأنني لم أستمتع هناك أيضًا. نحن نحمل الانزعاج معنا في كل مكان، فهو شيءٌ في داخلنا. على الأقل في سان جايتانو أستطيع أن أُفْضي بذلك للبحر.

أحتاج إلى الهواء، والماء، والمساحات الكبيرة، وغروب الشمس الساحر. في سان جايتانو، الشاطئ من الحجارة، تلك الحجارة المستديرة الجميلة، التي نبحث فيها عادةً عن الرسومات والحروف والأشكال التي نُربِّت عليها. بين الحين والآخر آخُذ واحدةً إلى منزلي: يبدو لي أنها تحافظ على البحر الذي شكَّلها وجعلها ملساء. الرمال متحركة، وقابلة لتغيير شكلها، أما الحجارة فثابتة. أحتاج إلى حجارة لا ترفعها الريح، ومياه صافية، وسماء مفتوحة.

في بعض الأيام، يكون البحر هادئًا وصامتًا لدرجة أنه يبدو نائمًا، فيها أنتظر، أنتظر ... أنزل إلى الشاطئ وأدع الماء يتدفَّق ببطءٍ حول كاحلي، مثل التحية؛ أُخبِرُه ويدي جاثمة عليه، بأخباري وأفكاري، ويبدو كأنه يُخرخر مثل القطة. وذلك عندما يكون أكثر هدوءًا وصبرًا.

وفي أحيان أخرى، مثلما حدث منذ بضعة أيام، يكون عنيدًا وصاخبًا. يقول العم ميكيله عليكِ أن تكوني حريصةً على عدم الخلط بين صراخِه، فهو يُعاني أحيانًا، ويبكي، وبين ضجيجِه المُدَوِّي الذي يجعله يقذفُ بالحجارة وينحر الشاطئ، فهذا ليس سوى أَلَم، ولا يجب أن تحملي ضغينةً ضدَّه.

في ذلك المساء كان غاضبًا جدًّا وكان يصفع القوارب في الميناء كالمجنون العنيف. عندما يفعل هذا أبتعِد وأنظر إليه بجدية: إنه يزأر بصوتٍ عالٍ، مُتسلط، بل ويُزعج نومي! ولكن كيف لا نُحبُّه؟ أنا أُحبُّه على أي حال. في كثير من الأحيان يُقلق أولئك الذين نُحبهم نومَنا. ولكن لا ينبغي أن تسير الأمور على هذا النحو.

غادرتُ سيوة مع ميدو وأسامة، استقللنا الحافلة التي تنطلق من الميدان في السابعة صباحًا. في الأمسية السابقة، ذهبنا إلى الفراش في وقتٍ مُبكر، لأن ما عانيناه من توتُّر أثناء اليوم قد انعكس على عضلاتنا المتألِّمة.

لم نُخطط أنا وبابلو لأي شيءٍ لأن الوقت الذي تمكَّنَّا من قضائه معًا في الفندق قضَيناه في حوارٍ من القبلات، والمُداعبات، والنظرات، والصمت. عاد إلى جدِّه، ولكن في صباح اليوم التالي وجدتُه فجرًا عند عبده، عندما نزلتُ لتناوُل الإفطار.

يا لها من سعادة لا توصَف! ودَّعني بسرعةٍ حتى لا نلفتَ الأنظار، وكنتُ أحسب الدقائق الباقية على اللقاء التالي.

الحافلة غير المُريحة على الإطلاق كانت لي بمثابة سجادةٍ طائرة، أو فلوكة تنزلق ببطءٍ على طول شريط النيل اللامع، كانت أفكاري ناعمة وحلوة للغاية. رجعتُ للعمل تبدو عليَّ السعادة الشديدة حتى إنهم جميعًا قالوا لي: بالتأكيد تأثيرات زيارة سيوة مُذهلة! يجب الذهاب إليها، بين الحين والآخر!

تناولت الغداء في منزل نورا، بين نباتات الياسمين والكركديه على شرفتها المُطلة على النيل والأسطح المُغبرة لعقارات منطقة الزمالك. أخبرتُها القصة بأكملها واستمعَتْ إليَّ بانتباه، وقدَّمت لي الكباب والملوخية والجبنة البيضاء والعسل: كانت تقول دائمًا إننا نحن الإيطاليين نُبالِغ دومًا عندما نروي شيئًا ما، وكنتُ حريصةً أيضًا على أن أجعلها تفهم بالضبط ما أقصده. وعلى فهم حقيقة أن كلَّ تلك الحكاية الخيالية الرائعة قد حدثت لي. قالت لي بخصوص العاصفة الرملية: لقد خاطرتِ بحياتك!

– لا! بل عثرتُ عليها، عثرتُ على الحياة! فلم يسبق لي أن شعرتُ بأنني حيَّة بهذه الطريقة من قبل يا نورا!

اتصل بي بابلو قائلًا إنه وصل أخيرًا إلى الإسكندرية بسيارة أسامة، ومِن هناك سيستقلُّ أولَ حافلة صغيرة إلى القاهرة.

بعد العمل، ركضتُ للاستحمام واستقللتُ سيارة أجرة إلى ميدان رمسيس، أحد أكبر الميادين وأكثرها فوضوية في القاهرة، لانتظاره. وصلتُ إلى المحطة قبله، حيث تصِل الحافلات الصغيرة وتُغادر بالقُرب من محطة القطار الجميلة. لا توجَد أبدًا مواعيد مُحددة لوصول ومغادرة تلك الحافلات الصغيرة في مصر. في الحقيقة، الوضع في إيطاليا ليس أفضل من ذلك كثيرًا!

أخذت أتحقَّق من هاتفي عدة مراتٍ لمعرفة ما إذا كان أنطونيو وشيرلي قد هاتفاني. لا، سأبقى هنا لفترةٍ أطول قليلًا مع بسكويتي المُفضل.

كان الظلام قد حلَّ في ذلك المساء الدافئ من شهر مايو. كنتُ أجلس على أحد المقاعد وأحمل كتابي في يدي كالعادة. دخلَتِ الحافلة إلى المحطة وأشار لي أحد موظفي المكتب الداخلي أنَّ هذه هي السيارة التي أنتظرها. شاهدتُ الركاب ينزلون وقلبي يخفق في صدري، ورأيتُه أشعثَ ومتعبًا، وشديد الوسامة. لم أستطع أن أُصدق أن هذا الفتي الرائع يُحبني، وأنه هنا من أجلي. ونظرتُه إليَّ، بمجرد أن رآني بين الناس، تؤكد ذلك: فلم ينظر إليَّ أحدٌ قطُّ بهذه الطريقة، لا قَبلَه ولا بعده. لم نتمكن من تبادُل الأحضان. أخذ يُداعب رأسي، ويُحرك يدَه قليلًا بين شعري. ابتسامته احتضنتني، وشعرتُ بقشعريرة تسري في جسدي.

بقِينا معًا في القاهرة أسبوعَين ساحرَين ورومانسيَّين، غاية في الجنون. تحولتِ القاهرة بالنسبة لي إلى مدينة جديدة، مجهولة، تنتظِر من يكتشفها. لقد تبدَّل منظر كل شيءٍ رأيتُه حتى الآن. شعرتُ بأنني شخصٌ جديد، وبابلو شعر بذلك أكثر مني: المشاعر التي نختبرها جديدة، تُفاجئنا ساعةً بعد أخرى. كنا نبدو كالسكارى. كيف يمكن أن نتوقع أن يتكرَّر شيء كهذا في الحياة مع أشخاصٍ آخرين؟ يُقال إن الحُب دائمًا جديد، تمامًا كما نتجدَّد نحن في كل مرةٍ نقع فيها في الحُب، لكن هذا لم يحدُث لي بعدها.

– إذن إلى أين ستأخُذينني؟ أنتِ مُرشدتي هنا، أليس كذلك؟

– سآخُذكَ إلى أي مكانٍ تريد الذهاب إليه، لكن ألا ترغَبُ في أن تستريح قبلَها قليلًا؟ لقد قضيتَ اليوم كله في الطريق …

– حسنًا، هل يُمكنني أن آخُذ حمامًا سريعًا في منزلك أم أن أذهب مباشرة إلى الفندق؟

– فندق؟ اعتقدتُ أنك ستمكث في منزلي! لدَينا غرفة خالية، ستكون لديك مساحتك الخاصة …

– لكن ألن يُثير البواب ضجَّة … وزميلاتك في الشقة؟

– بالنسبة للبواب سنخترع قصة، وسنقول إنك قريبي. أما زميلاتي فهنَّ لا يَهتمِمنَ، وغالبًا ما يكنَّ غائبات، لا تقلق. إلا إذا كنتَ تُفضل الفندق، لسببٍ ما … ربما لا تُحبِّذ تلك الحميمية الشديدة بهذه الطريقة السريعة جدًّا؟

– مايا، لقد جئتُ لأمكث معك. أعترف أنه ليس لديَّ أدنى فكرة عن المكان الذي يمكن أن يأخُذني إليه هذا الإحساس الخلَّاب، وهذه الرغبة في أن أكون بجوارك، وأشم عطرك، وألمسك، وأعشقك … مع إيليني لم يكن الأمر هكذا. لم أشعر بهذا الإحساس مع أي شخص. أشعر تقريبًا بالخوف، هناك شيء ينسلت منِّي، لا أعرف ماهية هذا الجزء من نفسي، وعلى الرغم من صلابتي المعهودة في لحظاتٍ مُعينة، أشعر بأنني ضعيف جدًّا في لحظات أخرى.

ارتجفتُ عندما سمعتُ صوته ينطق كلمات مُعينة. أردتُ أن أخبره أنه ربما قد وقع في الحُب، لكنه كان بحاجةٍ إلى فهم ذلك والاعتراف به من نفسه.

ذهبنا إلى منزلي. كيف سأُدخله إلى شقة كلها نساء دون أن نلفت الأنظار؟ فالبواب، الذي يبدو وكأنه يعيش بالضبط على المقعد أسفل الدرج، ولا يفعل شيئًا في حياته سوى المُراقبة اليقظة، كان معتادًا على مجيء وذهاب أصدقاء غير مِصريين على ما يبدو، ففي نهاية المطاف كنَّا ثلاث فتيات أوروبيَّات في شقتي، ويوجَد آخرون في الطابق الثالث، ولكن كان الموقف مُحرجًا وباعثًا على التوتُّر، أن أُدخِل شخصًا ليبيت في المنزل. ربما يبدو بابلو مصريًّا، في النهاية، فجزء منه مصري، لكن الآن علينا أن نُقدمه كشخصٍ إسباني.

فلنستثني اسم كريم، فقط بابلو. باحث بجامعة الإسكندرية، وسيبقى بالقاهرة لمدة أسبوعين. نعم، هكذا يُصبح الأمر قابلًا للتصديق. لقد فعلنا ذلك، وقدمتُه إلى البواب، الذي، عندما سمع عن إسبانيا، بدأ في إدراج أسماء لاعبي ريال مدريد، ومع تلك الأحاديث الرياضية التي تجعل الجميع إخوة، بدأ الاستلطاف.

منذ ذلك المساء، تحيَّات عظيمة، وابتسامات عريضة بينهما، ومسافات كبيرة بيننا، والتي لا يكون لها وجود قبلَها أو بعدها بدقيقةٍ واحدة في المصعد، حيث نتبادل القُبَل والعناق.

نظر بابلو حوله في الشقة، وربما يُحاول أن يتخيل مقدار نصيبي من الأثاث؛ المنزل يقول الكثير عمَّن يعيش فيه. ولكن كان الجزء الوحيد الذي يُعبر عني هو غرفتي، وهناك بدأ بملاحظة كل حلية، وكل صورة، وكل تذكرة مسرح، وبطاقة بريدية، وكِتاب، وكل شيء.

– أريد أن أعرف كلَّ شيء عنك، مايا، لقد أضعتُ الكثير من الوقت بالفعل!

أطلعتُه على غرفتي كأنها متحف، وكان يستمتع بتلك المعرفة، يسأل ويندهش. أطال النظر في صورة والديَّ، باحثًا عن أوجه التشابُه:

– تُشبهين أُمك في الشعر والبشرة البيضاء، أما العينان فعينَا والدِك.

– وأنت؟ هل أنت تُشبه والدك أكثر أم والدتك؟

– لون بشرتي يبدو مِصريًّا إلى حدٍّ ما، لا أعرف … كنتُ أقول لنفسي إنني لا أشبههما على الإطلاق، لكنني … بدأتُ أعتقد أنني ورثتُ شيئًا من والدي.

ابتسم وهو يحتضنني، وأعتقدُ أنه يرغب هنا في الإشارة إلى أنه وقع في الحُب مثل أبيه. لكنني لم أُعلق، فضَّلتُ أن أعتقد هذا، ولم أرغب في أن يُخطِّئني.

بدأ ينظر إلى خريطة إيطاليا الملصقة على الحائط: كان عليها العديد من العلامات الملوَّنة:

– إلى ماذا تُشير تلك العلامات؟

– إنها جميع الأماكن التي يتواجد فيها والداي أو أقاربي أو أصدقائي المُقربون. انظر ... أجدادي لأبي يعيشون هناك، وأجدادي لأُمي هنا، لذا لدي خالة هنا، وأبناء عمومة هناك ... لستَ وحدك من لديه أصول متنوِّعة! أنا لا أعيش في المدينة التي وُلدت فيها أيضًا. لو كنتُ مكانَك، لأصبحتُ سعيدةً بالسفر بين اليونان وإسبانيا ومصر بحجَّة الذهاب لزيارة العائلة المنتشِرة في كل مكان!

– لكن هل تعلمين أنني لا أعرف الإسكندرية؟ لقد مررتُ بها، ومكثتُ بها، لكنني لم أرغب أبدًا في زيارتها، أمرٌ أشبَه بالرفض، لقد اعتبرتُ هذه المدينة، دائمًا، مصدر مشاكلي.

– إذن أعرف ماذا ينبغي علينا أن نفعل؟ سنذهب إليها معًا، قبل العودة إلى سيوة، وسوف تُدرك أن مدينة أسلافك رائعة وخلَّابة؛ لقد حان الوقت لتدرك هذا. أَعِدُك أنك ستشعر بالتحسُّن بعد ذلك، وستترك جزءًا صغيرًا من قلبك فيها أيضًا.

قبَّلَني، كما لو كان يختم ميثاقًا، على الرغم من ارتباكه الواضح. وفي ذلك المساء واصلنا أحاديثنا الخفيفة. أكلنا شيئًا ونِمنا، وهو نام قبلي، على وسائد الأريكة، يستمع إلى الموسيقى ويشرب الشاي بالنعناع.

لم تكن الليلة الأولى تلك مريحة ولا مناسبة، لكن شدة التعَب والانفعالات أدَّت إلى نومٍ عميق وشافٍ حتى بين الوسائد والسجَّاد في غرفة المعيشة.

في تلك الأيام القليلة، على الرغم من أنني كنتُ أعمل بضع ساعاتٍ في الصباح، وجدْنا وقتًا لكي نتجوَّل كالسائحين: قطعْنا كيلومتراتٍ سيرًا على كورنيش النيل، حيث يبدو الحديث سهلًا والكلمات تتدفَّق بسلاسةٍ مثل أوراق الشجر التي تقع في مياه ذلك النهر الخالد.

ذهبنا إلى أهرامات الجيزة لنُشاهد غروب الشمس تمامًا كما رآها هؤلاء العمالقة العظماء منذ آلاف السنين، وتجوَّلنا في دهاليز خان الخليلي، ونحن نُفاصِل في أسعار الفيروز واللازورد، أكلْنا الكباب والشاورما في شوارع مجهولة، والفلافل والكشري وساندويتشات الكبدة والحلويات المنقوعة في العسل وشراب السكر، وحلوى «أم علي» والبطاطا المشوية من الباعة المتجوِّلين ... شربنا عصير المانجو وقصب السكر من محلَّات العصير، ولترات من الشاي والسحلب والكركديه ... أحيانًا ما كنَّا نشعر بألَم في المعدة ونتخلَّى عن وجبة، وفي

أحيانٍ أخرى كنا نجلس في «جروبي»، متجر الحلويات القديم، لنملأ أعيُننا أوَّلًا ثم بطوننا بالمعجَّنات.

يمرُّ بابلو لاصطحابي من مكتبة الجامعة الأمريكية، وكان هذا يُسعدني فتعلو الابتسامة وجهي، مُستعدة للذهاب إلى أي مكان. بعد ظُهر أحد الأيام استأجرْنا فلوكة مع المراكبي الذي يقودها، وتركناه ليأخُذنا إلى نقطة مركزية في النيل، بعيدًا عن الضفاف، بعيدًا عن الأبواق المُزعجة، وحركة المرور المجنونة، وأعيُن أولئك الذين يُراقبون مَن يُحاول أن يتبادل مشاعر الحُب مع حبيبته.

كان المراكبي موجودًا، هذا صحيح، لكن عليه أيضًا أن ينظر إلى أين يتَّجه! لذا، تبادلنا أنا وبابلو باختلاسٍ بعض القبلات بأسلوب المراهقين في كل مرةٍ يوجِّه فيها سائق الفلوكة أنظاره إلى الأمام. ركوب الفلوكة رومانسي ومريح للغاية!

عُدنا ذات يوم مع نورا وميدو الذي كان في القاهرة للحصول على بعض المستندات، ومع أصدقاء مصريين وأوروبيين آخرين.

أحضرنا الفول والطعمية لنأكلهما، وعُدنا إلى المنزل في منتصف الليل. سائق الفلوكة، الأسود كالليل، بصُحبة رفيقٍ مُشابهٍ له، يستمتعان بعزف ألحان نوبية مُمتعة جدًّا ورائعة، بينما بدت عمامتاهما البيضاوان تتحركان من تلقاء نفسيهما على إيقاع العود والطبول: حيث يبدو وقد ابتلع الظلام وجهيهما الداكنَين، حيث تظهر ابتساماتٌ بيضاء في الليل في بعض اللحظات، بينما تدفع الريح الرقيقة شراع المركب العالي، وشعرنا بالنشوة والبهجة والتناغُم، وكأننا خارج العالم.

وفي إحدى الأمسيات ذهبنا إلى الحسين لنشهد عرْض الدراويش المُذهل. فضَّلتُ أن أترك نفسي تنجرف مع الإيقاعات والمزامير التي رافقت دوران الدراويش حول أنفسهم، بينما تنانيرهم الملوَّنة تُسكرني وتجعل حواسِّي لا تُدرك أي شيءٍ حولي.

في نهاية العرض، أحتاج دائمًا بعض الوقت لأطأ مرةً أخرى الأرض، وأعود من ذلك البُعد الصوفي الذي يُذهلني حرفيًّا. لم يكن بابلو يُصدق ذلك، إلَّا أنه رآه بنفسه وضحك، لكنه قال إنه يحسدني لقُدرتي على ترك نفسي تنجرِف وراء الموسيقى والرقص بالتنانير الملوَّنة.

وفي إحدى المرات صعدنا إلى قمة برج القاهرة، والذي منه استمتعنا بمنظرٍ يحبس الأنفاس، مُنفصلين مرةً أخرى عن العالم وبعيدين عن الضجيج من جديد، غارقين في الجمال. تبدو المدينة الهائلة، التي تُرى من فوق، مثل نِمرة نائمة، ولم تكن مخيفة؛ كان

النيل المهيب الذي يعكس الشمس مثل شريطٍ ذهبي مرِن يقسم المساحة المظلمة للمدينة إلى عدة أجزاء. وبعد غروب الشمس، أصبح النهر هو المُظلم، بينما أضاءت المدينة بالأضواء اللامُتناهية حتى بدت كسماءٍ مقلوبة مرصعة بالنجوم الملوَّنة. لا يمكن رؤية النجوم في سماء القاهرة، فالضباب الدُّخاني يُغطي المدينة حتى قبل السماء ببطانية ذات لونٍ برتقالي وأرجواني في الليل.

الظلام والهدوء لا يسودان أبدًا في القاهرة.

كنا نعود دائمًا إلى المنزل مُرهقَين ومذهولَين، نشعر بثقلٍ وبخفة في الوقت نفسه كالمَسحورَين.

في إحدى الأمسيات ذهبنا للرقص في ملهًى ليلي على متن قاربٍ راسٍ على ضفاف النهر، وفي أمسية أخرى انطلقنا في حفلةٍ على شرفة سطح المبنى الذي تعيش فيه نورا، بعد أن تناولنا معها عشاءً بهيجًا.

في تلك الليلة، بعد خروجنا من الحفلة، حيث وجدْنا أنفسنا بين أشخاصٍ من جميع أنحاء العالم، انضممنا إلى مجموعةٍ من الإنجليز والفرنسيين، وذهبنا إلى مركز التجارة العالمي للعب البلياردو. بين التعب والبيرة، لم تكن المباراة بالتأكيد الأفضل، لكن كم ضحكنا! تساءلت عما إذا كان الصبي الذي يضحك من قلبه هو نفسه الذي التقيتُ به، متجهمًا ومرتبكًا، في الصحراء. لكي أُصدق نفسي، حاولتُ أن ألمسه، وأن أصافحه خلسةً كلما أمكن ذلك، وقلتُ لنفسي: «نعم، مايا، إنه هو بالفعل»، وشكرت السماء على عطيتها.

خلال أحاديثنا الطويلة أخذْنا نتحاكى ونتنقل بين موضوعاتٍ تتعلق بالماضي والحاضر، ولكننا غالبًا ما نبتعِد عن المستقبل. وهنا كنتُ أغامر وحدي بالحديث قليلًا عن المستقبل، لأن رغبات ومشاريع كثيرة كانت تتملَّكني، ولم أفعل فيها شيئًا سوى محاولة وضعه هو وحُبنا فيها؛ من ناحية أخرى، على الرغم من أن بابلو يكبُرني بثماني سنوات، إلا أنه لم يفهم بعد «ما يريد أن يفعله عندما يكبر»، وبالنسبة إليه من الصعب أن يواجِه الحاضر الذي وجد نفسه فيه فجأةً. لكي يفكر في المستقبل عليه أن يتصالح مع الماضي، وكأن الحاضر يُساعده على النظر إلى الوراء، بدلًا من أن يجعله يتطلَّع إلى الأمام.

كنتُ أريد أن أذهب إلى فلسطين وأعمل في هيئةٍ غير حكومية، أو شيء من هذا القبيل، لمساعدة الأطفال الذين يعيشون حياةً صعبة، وأريد مواصلة السفر والتعرُّف على الناس والعادات والمناظر الطبيعية والبحار والجبال والجليد وغابات السافانا ... كنتُ حرفيًّا

عطشانة للعالم وللحياة، ولديَّ الحماس لمشاركة كل هذا. والآن بعد أن تضخَّم شعور الحُب العظيم حتى كاد ينفجر بداخلي، شعرتُ بأنني أقوى وأكثر امتلاءً بالطاقة.

في المساء، أو بالأحرى، في الليل، كان من الصعب النوم، إذا لم نكُن في غاية التعب والإرهاق الجسدي، بسبب كلِّ ما يدور في رأسنا من أفكار، وبدلًا من ذلك، في لحظة، نستلقي كلٌّ منَّا في حضن الآخر، ونروح في نوم عميق حتى يقترب الفجر وتبدأ الطيور في استقبال اليوم الجديد. وفي العمل، كان من الصعب أن أقاوِم النعاس فوق الكتب، لكن كانت لديَّ بالفعل طاقة فائضة! آه، إنه الحُب! آه إنها أعوامي العشرين!

وحان وقت المغادرة إلى الإسكندرية، ومنها إلى سيوة. لقد ساعدتني نورا كثيرًا في العمل لتُتيح لي قضاء وقتٍ مع بابلو. سأفعل الشيء نفسه بالتأكيد معها، هكذا يفعل الأصدقاء، لكني وعدتُها أنني هذه المرة لن أغيب أكثر من ثلاثة أيام، رغم طول الرحلة إلى سيوة، وأنني سأعوِّضها بأن أحلَّ محلَّها في عدد ساعاتٍ مُعينة من العمل، حتى تتمكن من الذهاب لبضعة أيام إلى البحر الأحمر، كما كانت تريد منذ فترة طويلة.

في أمسيتنا الأخيرة في القاهرة، كنَّا مُجبرَين أنا وبابلو كريم على النوم مبكرًا حتى نتمكن من الاستيقاظ مبكرًا جدًّا في صباح اليوم التالي، والركض إلى ميدان رمسيس، واستقلال أول حافلةٍ صغيرة إلى الإسكندرية والتواجُد هناك في الصباح. هكذا فعلنا. كان الأمر صعبًا، لكن البدء بفكرة الذهاب في نوع من الحج لطرد الأرواح الشريرة كان أمرًا مُثيرًا حقًّا: لقد أقنعتُ بابلو بالسير على الأقل على طول كورنيش الإسكندرية حتى قلعة قايتباي، تلك النقطة التي تقريبًا، التقى عندها والداه للمرة الأولى.

وبمجرد وصولنا إلى المدينة ركبنا سيارة أجرة وطلبتُ من سائق سيارة الأجرة أن يُطيل الطريق مرورًا بقصر المُنتزه الرائع، أحد القصور الملكية الأثرية الجميلة التي سكنَها الملك فاروق، والذي تُحيط به الحدائق الغنَّاء.

إن الإسكندرية مدينة جميلة، مليئة بالشهادات المهمة عن تاريخها، عربية، ولكن قبلًا كانت يونانية، ورومانية، وبيزنطية، وفارسية، إنها مدينة متوسطية لدرجة أنها تُذكرنا بواحدةٍ من مُدننا ... نابولي، باليرمو ... كان من الجميل أن تشعر أنك في مصر وتشعر أيضًا في الوقت نفسه بأنه خلف تلك المساحة الزرقاء من البحر المتوسط يوجَد «الوطن». ليس بدافعٍ من الحنين، بل الحُب؛ فالحب يُحاول الاقتراب.

– انظُر، إلى الشرق قليلًا، هناك في البحر، هناك الجزيرة التي نشأتَ فيها، وبعيدًا إلى الغرب، ها هي إسبانيا، موطن والدتك، تُطل هي أيضًا على البحر نفسه. لدَينا شيء مشترك مهم، لا يُمكننا أن نكون مختلفين إلى هذا الحد.

كنتُ أفكر بصوتٍ عالٍ وبدأ بابلو في إعادة التفكير فيما بدا دائمًا سيئًا بالنسبة له.

كان سائق التاكسي يستمتع بكونه مرشدًا، بطريقته الخاصة، ويُتمتم قليلًا من اللغة الإنجليزية، وحاولنا نحن الاثنين، حيث يغلي داخلُنا بالعواطف وأمورنا الخاصة، أن نُرضيه بأن نستمع إليه والظهور بمظهر الانبهار والسرور بمعلوماته.

عند نقطةٍ مُعينة توقَّفنا ونزلنا: كنا عند البحر، في نهاية اللسان الذي عنده يبدأ البحر في دخول المدينة، في ذلك المكان تبرز حجارة قلعة قايتباي البيضاء، وهي قلعة بُنِيت بالقُرب من النقطة التي كان فنار الإسكندرية الأسطوري، إحدى عجائب الدنيا السبع، قائمًا. في رأيي، من الممكن أن آنا، والدة بابلو، كانت تنظُر في ذلك الاتجاه وهي تُحاول أن تتخيَّل الفنار، وتأخذ القياسات ذهنيًّا لتفهم أين يمكن أن يصِل ارتفاعه المُذهل البالغ ١٣٠ مترًا.

أدركت أنني أستطيع أن أنضم إلى تلك السيدة التي بدت مسحورةً أمام معرفتها التي غذَّت، في تلك اللحظة، خيالها ودهشتها وسمحت لها برؤية المبنى الضخم يرتفع في ذلك الجزء الفارغ من السماء. وكان من المُثير للغاية تخيُّل فكرة أن القلعة البيضاء، التي تبدو وكأنها مصنوعة من السُّكَّر، شُيدت بحجارة الفنار، الذي دُمر بالكامل. وليس عجبًا أن نتوه في تصوُّر هذا الضوء المُتقطع الذي كان يظهر ليلًا لأعيُن البحارة حتى على بُعد ٥٠ كيلومترًا من الساحل، في الفترة التي كان يُسهِّل السهل فيها إدماج مفهوم «الضوء الذي يُرشدك في الليل» مع فكرة أن آلهة السماء والبحر هي المسئولة عن ذلك. حقًّا، ما زال هناك ما يمكن أن يسحرنا فيما يظهر أمامنا!

بقينا صامتَين لبعض الوقت، كما كان يحدث دائمًا عندما نكون معًا في حالة تأمُّل، ثم بدأت أيادينا ونظراتنا يبحث بعضها عن بعض.

– مايا ... لقد كنتِ على حق، لكنني لم أكن بحاجةٍ للمجيء إلى هنا لأفهم والدي وأسامِحه وأُقدِّر خياراته: لقد فعلتُ ذلك بالفعل، وقد حدث هذا. لقد حدث ذلك في الصحراء، عندما ارتعبتُ من فقدانك في العاصفة الرملية. ربما حدث ذلك من قبل، لكنَّني لم أكُن على علم به، وأدَّى إلى اللحن الذي عزفته بعد العاصفة. لقد كان هذا سبب تحرُّري يا مايا، كنتِ أنتِ سبب تحرُّري من شبحٍ طاردني طوال حياتي. أراكِ تنظرين إلى الأشياء بذهولٍ وفرح،

تبدو عيناكِ تُرحبان بكل صورةٍ وبكل لحظة تضعها الحياة بين يدَيكِ، دون أن تعولي هَمَّ أي شيء، تتَّسمين بالفضول ... وبالحياة!

أعتقد أن هذا ما قصده والدي عندما حاول شرح مقدار جرحِه عندما التقى بوالدتي، لذا، فصحيح أن الدم يحن ... لقد كان الدم قادرًا على صُنع الموسيقى، وعلى ممارسة الحُب. أدركتُ أنني أيضًا يُمكن أن أقع في الحب، وأن هذا أمر صادم، وأنا أختبره بنفسي وفي أعماق قلبي. شكرًا لك يا حبيبتي، فأنت منارتي.

شعرتُ بالتأثر، ولكن عندما قال «منارتي»، وغمز لي وضحك، لم أستطع مقاومة احتضانه، ولو للحظاتٍ قليلة، واحتفظتُ لنفسي بالدموع التي بدأت تترقرق في عيني.

حسنًا، منذ تلك اللحظة، اكتسبَت تلك النقطة من المدينة، تلك النقطة من العالم، معنًى رائعًا، وشعرتُ بالإغماء تقريبًا من الانفعال. اعتقدتُ في داخلي أنه لو رُزقنا بأطفالٍ لكان من المُمكن أن نُسميهم ألكسندرا أو إسكندر. ولكن هذا سابق لأوانه.

عُدنا إلى الواقع وإلى المحطة لنُكمل رحلتنا إلى سيوة. وصلنا في المساء مُنهكين بعض الشيء كالعادة، وذلك بسبب وسائل الراحة المحدودة للغاية التي تُوفرها الحافلات على هذا الطريق ونقاط الاستراحة البائسة، لكنَّنا كنَّا معًا ولم يؤثر أي شيءٍ على حالة السعادة التي نشعر بها.

في سيوة رحبوا بنا جميعًا بودٍّ شديد. تناولنا عشاءً مُبتهجين في مطعم عبده، حيث وجدنا الراحة والاسترخاء. كنت سأبيت في فندق يوسف كالعادة وبابلو عند جدِّه. أخذتُ حمامًا وبدلتُ ملابسي وقررتُ أن أُرافقه سيرًا على الأقدام، وأن أحرك ساقيَّ قليلًا بعد ساعاتٍ في الحافلة، وقبل كل شيء حتى لا أودِّعه هكذا سريعًا. هكذا أخذنا نسير، وبدأ الظلام يسود، وأخيرًا يُمكننا أن يُمسك أحدُنا يدَ الآخر ونطرد عنا كل توتُّر.

بدا الطريق قصيرًا جدًّا. شعر بنا الجد كريم ونحن قادمان، فأطلَّ من الشباك.

حيَّانا بتحفظ، ولكن بابتسامة برَّاقة، طلب منِّي بابلو أن أنتظره في الخارج وعاد بقطعة قماشٍ مطوية ومصباح. قال شيئًا لجدِّه بالعربية: «تعالي!» أمسك بيدي وواصل السير بين صفَّين من النخيل حتى قابلنا الصحراء والنجوم فوقها تتلألأ بالمليارات. تفوح رائحة الصمت والليل في الهواء. ذهبنا إلى النبع غير البعيد من هناك، ذلك النبع الذي غطس فيه بابلو بعد العاصفة الرملية. لم يكن الجوُّ حارًّا، بل كان الهواء باردًا، لكن بابلو خلع

ملابسه، وغطس في الماء، ودعاني إلى أن أفعل الشيء نفسه. وكنتُ مقتنعةً أنني لن أفعل ذلك أبدًا، ولم أكن لأبلل شعري مرةً أخرى بعد أن جفَّفته لتوِّي، وسأظلُّ مجرد متفرجة يقظة، في الضوء الخافت للمصباح، تحت غطاء مُرصَّع بالنجوم.

لكن قلبي هو الذي يحثُّني، ولم أعد أشعر بالبرد، بل على العكس، كانت النار تسري في عروقي!

خلعتُ ملابسي، وكنتُ أشعر بالسعادة والحرية والحماس والحيوية، غطستُ في تلك المياه النقية وفي حضن الرجل الذي أحببتُه وأرغبه بجنون.

نفوس عارية،
مُغطاة بأجساد عارية.
سأُعرِّيكِ وأُغطيكِ بالقبلات،
وأهبكِ بشرةً جديدةً من المُداعبات.
وسأضع لك بيدي،
على روحك المنفتحة،
عطورًا من الشعر،
وحجابًا من الموسيقى،
والكثيرَ من القبلات.
وأنت تتنفَّسِين
لتخلقي
جسدًا جديدًا،
مصنوعًا من اثنين.

وإذا لم يكن هذا هو الحب،
فأنا لستُ إنسانًا،
ولا أستحقُّ أن يكون لي قلب.

ب. ك. .P.K

أجمل ليلة في حياتي. ليلة تستحقُّ الحياة من أجلِها. الحب يملأ السماء فوقنا، والأرض، والرمال الناعمة تحتنا، والماء البارد والدم الدافئ، والليل الذي يُغطينا، والكلمات التي

أهداها لي، وكتبَها على الفور على تذكرة الحافلة التي بقِيَت في جيبي؛ لليوم الذي ينتظرنا، ولكل يومٍ قادم.

لم يعُد يُهمني أن أُعجب بقصيدة لنيرودا، بل ما يُهمني هو أن أرتدي تلك الكلمات، التي تتدفَّق عليَّ مثل ذلك الماء النقي الخارج من بطن الأرض، كلمات شفَّافة، طازجة، تغلي. إنها كلماته وكلماتي، كلماتنا معًا، كلماتنا فقط ...

رافقَني بابلو إلى الفندق. ترك لي «سلامة» المفتاح في المكان المعتاد، وكان الجميع نائمين. ثم عاد إلى العجوز كريم، بينما مكثتُ أنا أُحدق في سقف الحجرة حتى الفجر، ثملةً من السعادة، ثم نمتُ وأنا في غاية الإرهاق، واستيقظتُ فعليًّا في وقت الغداء.

عندما نزلت، كان بابلو كريم ينتظرني هناك. قبَّل جبهتي، وأبعد شعري عن وجهي وقال: صباح الخير يا قلبي.

كان جادًّا. كنتُ آمُل أن يكون مجرد انطباع.

– مرحبًا يا نهار وليل، ما هو برنامجكم ...؟

قال عبد الله عندما رآنا نصِل إلى مطعم عبده. وكان هناك أيضًا سلامة وعلوش: أن نحيا بسعادةٍ أكثر من أي وقتٍ مضى؟

أجبتُه.

– أوه، ولكن! ولكن معًا؟

سؤال جيد ... نظرت إلى الأسفل، وابتسم بابلو قليلًا، كما لو كانت مزحةً وقال إنه يجب أن يذهب إلى جدِّه للحديث عن بعض الأمور. والتفت إليَّ وهو في حيرة. وقلت: سأبقى معك. غدًا لا بد لي من العودة إلى القاهرة. اليوم نحن معًا.

في تلك اللحظة بالذات جاء علُّوش نحوَنا وهو يُناديني ويدعوني أن أتبعه. وهو يقول: مكالمة لكِ!

لم أشعر بالقلق لأنه كان مُبتسمًا.

– من يتكلم؟

سمعتُ صوت نورا يقول: إنه القدَر يا مايا! عودي سريعًا!

لم أفهم، حيث كنتُ واثقةً أنني لتوِّي ملكتُ قدَري بيدي ...

أخبرتني نورا في مكالمتها الهاتفية، عن تحقُّق الشيء الذي تمنَّيتُه منذ عامَين! لم أستطع أن أُصدق أنه قد غمرني فيضُ كلِّ تلك النعم في مثل هذا الوقت القصير وبهذه الأهمية؛ إحدى المُنظمات غير الحكومية التي تقدَّمتُ إليها للحصول على وظيفة أعلنت للتوِّ أنها قبلت مشروعي لغزة، ودعتني لتقديم نفسي في أقرب وقتٍ مُمكن لتقديم المُستندات والأوراق اللازمة.

كان هذا ما أردتُ أن أفعله بحياتي: شيء جيد للأشخاص المحرومين من الحظ، لأنهم وُلدوا في أماكن مُعَذَّبة بالظلم والحروب. لم أستطع أن أُصبح طبيبةً لأُساعدهم، لكن على المستوى الاجتماعي والإنساني، أعلم أنني أستطيع تقديم شيءٍ ما، ولديَّ رغبةٌ كبيرة في القيام بذلك، لأُساهم كقطرةٍ في بحر. أردتُ أن أكون مفيدةً، وأن أُقدم كل ما بوسعي لمن حياتُه أصعب من حياتي، حيث يجِب على المواهب التي منحها الله لي أن تؤتي ثمارها.

يترك الفقر أثره على الناس، لكن ما يلمسني بعُمق ويؤذيني، كان ولا يزال هو الظلم، والذي يتفاقم بسبب لامبالاة العالم تجاهه.

تلاشى حماسي بالفعل على الهاتف وشعرَت نورا بذلك.

– ماذا بكِ؟ ماذا حدث في سيوة؟ هل غيَّرتِ خططك؟ هل هذا بسبب بابلو كريم؟ قالت نورا.

– نورا ... نعم، هذا الشخص مُهم حقًّا بالنسبة لي ... ولكن مَن يدري؟ ... ربما يريد أن يأتي معي ...

– وماذا لو لم يرغب في ذلك؟ هل ستُلقين بكل شيءٍ في الهواء؟ نحن نتحدث عن أشياء جادَّة هنا. فكِّري جيدًا في دوافعك يا صديقتي، لأنك لو فقدتِ شيئًا يسيرًا منها، لن تتمكني من مواجهة الحياة في غزة. فقط أسرعي لأن الوقت ضيق. سأدعو الله أن تتَّخذي القرار الصحيح.

نورا، الصديقة الحكيمة والهادئة، تحدثت معي دون أن تجعل نفسها قاضية. كان الأمر يتعلَّق باختيار، لكنني كنتُ أفكر فقط في كيفية تجنُّبه، حتى لا أتخلَّى عن حلمَين يتحقَّقان في الوقت نفسه.

عدتُ إلى الطاولة مضطربةً بشكلٍ واضح، ولم تكن لديَّ أي شهيةٍ للطعام. لم يستطع أحد أن يفهم السبب تمامًا، نظرًا لأنه لم يكن أحد، باستثناء بابلو، الذي لم أكن أريد مُطلقًا

أن يشكَّ في ذلك، يعرف ما هي النار الجديدة التي تشتعِل بداخلي. رسمتُ الابتسامة على شفتي وأنا أُخبرهم بالأخبار التي وصلتني، وبنفس الابتسامة شكرتُهم على تهنئتهم لي، حتى لو لم يكن الجميع يرَون أنها فرصة جيدة.

كان عليَّ أن أتحدَّث مع بابلو بمفردي، يجب أن أتحدَّث معه عن هذا الموضوع. بدا لي أن هذا الغداء لن ينتهيَ أبدًا. ومِن حُسن الحظ أن المحادثة انتقلت إلى مواضيع أخرى، لكنني شعرتُ برعشة داخلية.

كنتُ بحاجةٍ ماسة إلى حلِّ كل شيءٍ على الفور. كان الأمر ببساطة مسألة تركيب قِطَع البازل معًا، وكانت جميعها موجودة، بين يدي، وعليَّ فقط العثور على الموضع الصحيح لكلٍّ منها في الصورة، حتى تكون صورة مُستقبلي المباشر واضحةً ومثالية. ربما توقَّعتُ أن يقول بابلو فرحًا: «أنا قادم معك يا حبيبتي! سأتبعك إلى أي مكان!» ونعيش معًا تجربة تقديم ذواتنا للآخرين، ويقوِّي كلٌّ منَّا الآخر بالحُب.

لكن لم يحدُث هذا. لم يفرح بابلو. لم يفرح على الإطلاق، ولم يقُل تلك الكلمات. وتركيب قِطَع البازل هذه لم ينجح. من المُمكن أن نكون معًا عن بُعد، ويرى كلٌّ منَّا الآخر من حينٍ لآخر. ربما سأبقى في غزة بضعة أشهر ... أو بضع سنوات ... ولكن ماذا كان سيفعل في هذه الأثناء؟ ثم إن الانتقال من هناك ليس سهلًا، ناهيك عن المصاريف. كان عليه أن يجد وظيفة، ويُمكنه القيام بذلك من هناك، ويُمكنه التقديم في المنظمة نفسها، غير الحكومية. أو ربما أتخلَّى أنا عن المهمة. بالطبع، كان بإمكاني التضحية بحلم، قد غذَّيتُه وعملتُ من أجله حتى ذلك الحين. أو ربما يمكنني أن أتخلى عن الحُب الرومانسي، والتضحية الشخصية باسم حُب أكبر للكون ومُفيد أكثر للمجتمع، من أجل المُثُل العُليا والرسالة الحقيقية ... ولكن ألن يكون إغلاق الباب في وجه عطيةٍ من السماء خطيئة مميتة؟

شعرتُ أنني في أزمة. لم أكن أريد التخلي عن أي شيء. لقد كنتُ حرةً في الاختيار، ولكني أردتُ حرية عدم الاضطرار إلى الاختيار.

بمجرد أن وجدنا أنفسنا وحدَنا، انطلقنا أنا وبابلو نمشي بجوار بستان النخيل. ونظرًا لعدم وجود أحدٍ في الجوار، استمتعنا بحريةِ أن تتشابك يدَينا، وكان ما يصلني من هذا الشعور كافيًا للصراخ بداخلي بأنَّني لن أتمكن من التخلِّي عن بابلو على الإطلاق. لا يمكن أن يكون هناك أي شيءٍ رائع بالقدْر نفسه، وفجأة لم أرغب في التحدُّث، أو التفكير، أو

ترتيب الكلمات، أو اتخاذ القرارات ... أردتُ فقط أن أُعانقه، وأضمَّه وأجد السلام: كنتُ في مركز العالم، وتبدو أشجار النخيل حولنا كأنها تحمينا من العالم حولنا، بإلحاحاته وطلباته.

كنتُ كالمسافر الذي وصل إلى هدفه، كالعطشان الذي شرب أخيرًا من الينبوع، كالبحَّار الذي رأى البر، ونزل من قاربه وألقى بنفسه في أحضان الموج والشاطئ، يُقبِّل الأرض، فهو أخيرًا في أمان، أخيرًا في المنزل. كنتُ أشعر بأنني في مسكني، وأنا بين ذراعي ذلك الشاب، لم يكن مكانًا ماديًّا، بل شعورًا وحالة روحية وسعادة.

كان بابلو كريم صامتًا، وبينما أنا غارقة في أفكاري المُضطربة، بدأ يتحدَّث.

– أنا سعيد بهذا العمل الذي ستتمكَّنين من القيام به... إن العالم، وخاصة العالم الأكثر عذابًا، يحتاج إلى أمثالك. أنتِ شجاعة وقوية، ولديك الكثير لتقدِّميه. أنا فخور بك.

فهو يتحدث كأنه متأكد أنني سأقبل الوظيفة. يبدو أنه لم يفهم تردُّدي الكبير، لذا تحدثت وشرحت له أنني لم أعد متأكدةً من القرار الصائب الذي يجب اتخاذه، سواء من أجل العالم المُعَذَّب أو من أجلي أو من أجلِنا. وشدَّدت على ضمير «نحن» وأنا أتكلم خشيةَ أن يشكَّ في مدى أهمية ذلك بالنسبة لي.

أمسك بي بقوة، لكنه لم يُشكك في أن الخيار الصحيح هو القبول والرحيل. اعتقدتُ أن لديه الحل وأنه يفكر في إمكانية القدوم معي.

وصلنا إلى منزل جدِّه، وحيث إنه كان جالسًا يستمتع بالهواء البارد تحت ظلِّ نخيله، قطعنا الحديث وسلَّمنا عليه.

وكما وعدني، أعدَّ لي هذه المرة القهوة التركية وفق طقوس الغليان الثلاث بإبريق نحاسي خاص بمِقبض جانبي طويل. شعرتُ وكأنني أشهد تحضير جرعةٍ سحرية قوية جدًّا لدرجة أنها قادرة على حلِّ تشابُك أفكاري. قام بإعداد ثلاثة أكواب من الفخار الأزرق اللامع على طبق أبيض.

تبادل الجد الحكيم كريم بضع كلماتٍ مع حفيده ومن مستوى الصوت والنظرات استطعتُ أن أستنتج أن بابلو قد أبلغه عن سبب نظراتنا الجادَّة. ومع ذلك، بدا أنه يعرِف بالفعل، ولم يُزعجه أي شيءٍ مما سمعه. يا لها من حلاوة في تلك العيون، ويا للمودة! ... يمكنك حقًّا قراءة تعاطُفه على تجاعيد وجهه؛ يبدو أنه يريد أن يُخبرنا أنه يفهم جيدًا أننا سنُعاني، وأننا قد وجد بعضنا بعضًا للتو، وأننا الآن بالفعل في موضع اختبار.

استغربتُ لذلك، فلم أكن أعتقد أنه يهتم كثيرًا بالعلاقة بيني وبين بابلو، إلا أنه كان شخصًا بعيد النظر. عندما انتهيتُ من شرب قهوتي الرائعة طلب منِّي أن أُعطيه الفنجان الذي بقيت فيه رواسب البن، وفهمت أنه سيقرأ الطالع وبقيتُ بفارغ الصبر في انتظار النبوءة التي اهتممتُ بها كثيرًا في تلك اللحظة.

عبس وجهه، ولم يُعجبني ذلك التعبير. يا إلهي! الكأس كُسرت في يدَيه! شهقت، وتجمَّدتُ بسبب ما بدا لي أنه نذير شؤم للغاية.

قفز بابلو ورأى أن جدَّه قد أُصيب أيضًا بإصبعه: فأخذ منديلًا وارتجل ضمَّادة، لكن الرجل العجوز قلَّل من شأن الحادث وطمأننا.

ابتسم لي، ربما لأنه رأى ردَّ فعلي السيئ، وأخبرني أن الأمر ليس مهمًّا؛ تجاهل إصبعه، وأظهر لي أن الكسر طفيف ومن السهل إصلاحه. فقام وغسل الجزأين وأخرج نوعًا من الطين، لا أدري من أين. قامت يداه المُجعدتان بتشكيل الكوب بلُطف إلى شكلٍ جديد كامل ووضعه في الشمس.

– ثم سأضعه في الفرن. لن تكون الكأس القديمة، لكنها ستكون كأسًا جديدة، كاملة، لا تقلقا.

أعترف أنني شعرت ببعض الهدوء. في تلك اللحظة قال العجوز كريم إننا ذكَّرناه بقصة قديمة كانت تُروى له في طفولته، وطلب من بابلو أن يُترجمها لي لأنه أراد أن يرويها لنا.

أسطورة النهار والليل

يُحكى أن تلك التي أصبحت الآن الصحراء، كانت في يومٍ ما مساحة شاسعة من الأرض الخصبة تُغطيها الغابات والمراعي، وتجري فيها المياه المُنعشة التي تسكنها الأسماك، وكان يعبش فيها الرجال والحيوانات في تناغُم فيما بينهم.

في النهار تتلألأ الشمس وتمنح الحياة واللون لكلِّ شيء. تمنح السماء لونها الأزرق للبحار وأسطح المياه، الأشعة الذهبية تُفتِّح الأزهار وتُربِّت على الحيوانات والهضاب. في الليل تُزين الظلالُ والنعاسُ الأراضي، ويُغطي غطاء طازج من النجوم كلَّ شيء، ويتبادل النهار والليل دورَيهما بتناغُمٍ وجهَين جميلَين لميداليةٍ ثمينة.

في أحد الأيام كانت الشمس حارقة وقوية، بينما يجلس أحد جامعي البلَح أسفل ظلال شجرة نخيلٍ يستريح. وبينما يتأرجح بحثًا عن بعض الانتعاش يتوجَّه إلى الشمس قائلًا: مِن المؤكد أنكِ أحيانًا تُبالِغين في حرارتك، عزيزتي الشمس! وبهذا الإيقاع ستشوينا جميعًا! أتمنَّى أن تغربي سريعًا، فالليل أحنُّ علينا جميعًا منك!

أجابت الشمس، وقد دهشها ذلك التطاول، لأنها تعتقِد أنها محبوبة بقدْر قُدرتها، وقالت بضيق: الليل؟ ولكن الليل مُظلِم! كيف تُقارنه بالنهار؟ كيف يُمكنك أن تُعجَب بكل جمال الطبيعة إذا لم أكُن موجودة لأنيرها لك؟

– هذا حقيقي بالتأكيد، ولكن أؤكد لك أن الليل أيضًا له سِحره، بالتحديد لأنه يُغلف كل شيءٍ في غموضه. عزيزتي الشمس، لا يرى المرء فقط بعينَيه! فالقلب لا يحتاج لضوئك، بل أحيانًا يُساعدنا الليل لنرى ما لا يمكن رؤيته بسبب ضوئك الذي يُغشِّي العينَين. في الليل نشعُر بحواسِّنا الأخرى، ونحلم، ويمكن أيضًا النظر إلى السماء. إن السماء في الليل يا صديقتي العزيزة، بهجةٌ مِن اللألأة لا يُمكنك تخيُّلها. ثم إن القمر موجود أيضًا!

مَلِكٌ صدِّقيني، فهو الرفيق اللامع والعذب الذي يُمكنه أن يُخفف وطأة الليل على العطشان للسحر، لمن يُحب، لمن يشعر بالوحدة أو لمن يشعر بالتعاسة، ولِمن يشعر بالفرح أيضًا …

شعرت الشمس بالإحباط: ما هذا الذي تقوله؟ كنتُ أعرف أنكم جميعًا تنامون في حالة عدم وجودي: الناس والزهور والحيوانات! فأنا مَن أمنحكم الحياة، والضوء والحرارة، فأنا من يُضيء الألوان ويُوضح لكم كلَّ شيءٍ في السماء، وأجعل المياه شفَّافة! كيف يمكن أن تُفكر أن غيابي أمر جيد؟ إن الليل يُشبه الموت، على حدٍّ عِلمي. ثم ماذا تعني كلمة «عاشق»؟ مَن هم أولئك العُشَّاق الذين يتحدَّثون إلى القمر؟ ولكن من هو ذلك «القمر»؟

– آه يا شمس! يُمكنني أن أُجيب عن كل أسئلتك تلك بإيماءة واحدة: أنا واثق أنك لو تعرَّفتِ على القمر، سيقع النهار أيضًا في حُب الليل، وستفهمين معنى هذا! ولكن لا يوجَد النهار في وجود الليل، ولا يوجَد ليل في وجود النهار.

– أريد أن أقابل القمر؟

– حسنًا، ولكن كيف؟

– لا أعرف … سأُحاول أن أغرب متأخرة، ربما أفاجئه لحظة حضوره …

في تلك الليلة حكى جامع البلَح للقمر أن الشمس ترغب في لقائه، وشعر هو برغبةٍ في ذلك، ولكن لم يكن يعرف ماذا يفعل. وحدث أن بدأت الشمس في التلألُؤ أكثر بقوةٍ لتُطيل النهار، وأصبح النهار والحرارة في الأرض غير مُحتملة. ثم كانت تُضطر لأن تترك الشمس فجأة. لم تستطع حتى أن تلمح القمر المُضيء. وأصبح واجب الليل أن يُعيد بعض الهواء المُنعش إلى الأرض القارصة الحرارة والجافَّة. ولمدةٍ طويلة بدأت الطبيعة الجميلة تُعاني من ذلك: فالنباتات بدأت تجف، والمياه تتبخر، والحيوانات تهرب بعيدًا، والصخور تتشقَّق، ولم تبقَ سوى بعض المخلوقات في تلك الصحراء.

إلا أنه أخيرًا حدث شيءٌ عجيب: جاء الليل بالنهار! كان وقت الخسوف! في ذلك اليوم قابلتِ الشمس القمر، في ذلك اليوم قابل النهار الليل، وانصهر الضوء في الليل، كانت النجوم تلمع في المساء في الليل، مجرد ثوانٍ، ولكن لم يعُد أي شيءٍ بعدها كالسابق.

لقد وقع النهار في حُب الليل، والليل في حُب النهار. منذ تلك اللحظة عاشا يجري كلٌّ منهما خلف الآخر، في انتظار لقاءٍ عابر آخر، يمنح معنًى لذلك الحُب. يُقال إنه في اللحظات الوجيزة للخسوف تعود الصحراء للازدهار والأنهار لتجري لامعةً بين التلال الخضراء. لثوانٍ قليلة، ثم يتوقَّف كل شيء. فحمية النهار العاشق تعود لتحرق مساحات الكثيب الذهبي وتُنعشها أمطار النجوم في الليل. سُمح فقط لأشجار النخيل أن تستريح،

ولبلحها أن يحتوي على المذاق العذب لذلك العشق، ذكرى جامع البلح الذي حدَّث النهار عن الليل.

دُهشتُ ولم أنطق. حكى الجد كريم القصة وهو يتوقَّف كل بضع عباراتٍ ليسمح لحفيده بأن يُترجمها لي، وتلك الوقفات الوجيزة المليئة بالكلمات العربية والتي يبدو لي أنني أُخمنها، مع تعبيرات الراوي، منحت للقصة تدفُّقًا شعوريًّا متزايدًا. وبالتدريج بدأ صوت بابلو يكشف المشاعر نفسها لدَيه، وبدأت القصة تزداد تأثرًا وبطئًا حتى بدا أنه لا يُريدها أن تنتهي. إذن كنَّا هكذا نبدو في عين الجد ... مثل عاشقَين مصيرهما البحث الواحد عن الآخر دون أن يمكثا معًا. شيء بشِع.

لم أكن قد عبَّرتُ بعدُ عن رغبتي في الانضمام إلى الجمعية غير الحكومية، إلا أن الأسطورة تتحدَّث بوضوح: الوقت الذي تقابلا فيه، وقعا في الحُب، وهكذا، انتهى هناك: فالفنجان كُسِر. يبدو واضحًا أنني لن أتخلَّى عن طريقي هذا، ويبدو أيضًا واضحًا أن بابلو لن يتبعني. امتنعتُ عن التعليق، حيث سيكون على بابلو الترجمة ... ببساطةٍ ابتسمت بحُزن للجد، ونهض هو ليُودِّعنا، أحنى رأسه قليلًا جانبًا بسلوكٍ أبوي وفاجأني بأن وضع يدَه على كتفي. تحدَّث معي بالعربية، ولكنني فهمتُ من عينَيه: سيسير كل شيءٍ على ما يُرام، رأيتُ ذلك في قاع فنجان القهوة، وسيعود الفنجان سليمًا. كل شيءٍ سيسير على ما يُرام، إن شاء الله. فترات الخسوف تحدُث. الله يباركك.

في تلك اللحظة اقترب بابلو من البيانو ودون أن يجلس عزف بعض النغمات الشديدة العذوبة: إنه لحنُك يا مايا. إنها مسيرتك، طريقك الجديد ... هل تسمعينه؟

موسيقى عرفَتِ الإجابات. عرفَتْها أفضل منِّي.

يثقل عليَّ التفكير من جديد في ذلك اليوم الذي بدأ رائعًا ثم أصبح بشعًا، تمامًا مثل البحر عندما يغضب فجأة، أو مثل الصحراء عندما تكتشف أن الواحة التي رأيتَها لتوِّك ليست سوى سراب.

أحتاج البقاء قليلًا بمُفردي لأُرتِّب أفكاري.

سرتُ بلا هدف، اللحن الذي عزفه بابلو على البيانو يدقُّ بعذوبته المُدمرة. كان تتابُعًا مُتبادلًا مِن الأحلام والكوابيس بعينَين مفتوحتَين، تتشابك فيما بينها مع ذكرياتٍ طازجة ورائعة لليلةِ الحُب. للأسف لم يبقَ في الوعي سوى الكابوس. ليس هناك الكثير لأفعله؛

فلستُ صاحبة الاختيار وحدي. لحقَ بي بابلو كريم برأسٍ مُنخفض. الأمر يثقُل عليه هو أيضًا، يُكلِّفه أن يقول ما يجب عليه أن يقوله لي، ولكنني من سأُعاني أكثر.

يُقال إن مَن يُحب كثيرًا قادر على ترك الآخر، إذا رأى أن الأمر لمصلحته. يُقال هكذا ... ويُقال أيضًا إن من لدَيه حصافة أكثر عليه استخدامها، ويُقولون أشياء أُخرى كثيرة، ولكنَّني لم أكن مُقتنعة. كنتُ أفهم وأُدرك ما يقولونه، ولكنَّني لم أُوافق على أي شيء، على الإطلاق.

في الليلة التي فيها أصبحنا أنا وبابلو شيئًا واحدًا، تلك الليلة التي فيها كان الحُب الذي شعرتُ به يستحق السماء المُرصَّعة بالنجوم والصحراء العظيمة، كانت هي الليلة السابقة للتمزُّق والانفصال. وعلى ضوء الأحداث أعتقِد أنَّ الموت في تلك الحالة كان سيكون أخفَّ ألَمًا، لأنه ربما لن يكون ثمرة اختيارٍ واعٍ؛ فالموت ينزع عنك الثمال، ويترك لك الذكريات الرائعة، والمشاعر المقدسة. الانفصال عن عمدٍ (وهنا أقصد من طرفٍ واحد) ينزع عنك ثِقتك بنفسك إلى الأبد، يُعذبك لأعوامٍ بأملٍ يبدو كمياهٍ ترتفع، ترتفع حتى تُغرقك وتقتُلك. ثم تُدرك أنك لم تمُت، لم تمُت فعليًّا، ولكنَّ شيئًا ما في داخلك مات إلى الأبد ومحله يبقى الغضب وعدم الأمان والإحباط.

كان بابلو أكبر سنًّا، وكان أكثر حكمة، قرَّر هو الشيء الأفضل لي. بكى بابلو أمامي، ولكنه كان مُقتنعًا أنه يعرف الشيء الأفضل لي. وعندما قلتُ له إنه منذ شهرَين لم يكن يعرف الشيء الأفضل لحياته، والآن فجأة فَهِم كل شيء، أخذ يقول: إنك صغيرة السنِّ جدًّا لتترُكي قلبك يُحدد لك اختياراتك؛ فالعالم ما زال عليه أن يُطلِعك على الكثير! والآن يُقدم لك الفرصة لتستفيدي من ثرائك الداخلي، من مشاعرك المُرهفة، ومن حُبك للقريب.

فقلت له: أنت لا تُقدِّر كثيرًا حُبي لك. ونسيتَ أن القلب لا يُسجَن ولا يُجبَر بالإقناع! لا أستطيع أن أستغني عن حُبك ...

– لا يا مايا، أنا لا أُقلل من قيمة حُبك، على العكس، لا أُريدك أن تكرِّسي نفسك لأجلي على حساب كلِّ شيءٍ آخر. أُقدِّر قيمة حياتك، ونفسك الحُرة، أقدِّر حماسك في البحث واكتشاف الجمال، ودهشتك عند العثور عليه. العالم بأكمِله ينتظرك، خبرة غزة لن تكون سوى البداية.

ماذا يُمكنني أن أمنحكِ؟ لا شيء، طريق غير واضح، بعض الأمنيات القليلة، آلاف التساؤلات، أشياء كثيرة لا بدَّ من توضيحها داخلي وخارجي.

كم مِن الكلمات الجميلة التي يغرسها في قلبي مثل المسامير ...

– مايا، أنت بالنسبة لي مثل أشعَّة الشمس في أعقاب التخبُّط طويلًا في الظلام، ولا أريد أن أكون أنا من يُطفئك، لستُ مستعدًّا، وليس لديَّ أي شيءٍ أُقدمه لك لأنني لا أعرف حقًّا مَن أنا. الشيء الوحيد الذي أعرفه هو أنك غالية جدًّا بالنسبة لي؛ ولهذا سأترُكك حرة. هل تفهمينني؟

– لا، لا أفهم، هذا شيء مُتناقِض، ولكنكَ تؤلِمني عن عمدٍ الآن!

– سأولمك بالفعل إذا أخذتُ على نفسي التزاماتٍ لن أستطيع الوفاء بها! إذا تركتُ نفسي ليَسحرني الطريق الذي يبدو أكثر سهولةً ومتعة، طريق الحُب، ولكن الأمر لا يسير هكذا؛ فأنا مُضطرب تجاه أشياء كثيرة، ولكنني أعرف يقينيًّا أن الطريق الأبسط ليس هو بالتأكيد الصواب، وفي حالة الحُب ... حسنًا ... كثيرًا ما يكون التخلِّي هو العطية الأعظم. فأنا أمنحك حُبي والحرية.

أقسم أنَّني كنتُ أفضل ضرباتٍ بالهراوة. لم أُجبه. بدا لي كلُّ هذا الحديث شرًّا صرفًا، نفاقًا، وأخذتُ أبكي برأسٍ منخفضٍ مُستندة على صدره، كانت قبضتاي مُغلقتَين مضمومتَين. بدا كأنه يريد أن يقوم بالاختيار الذي لم تواتِ أباه الشجاعة ليُنفِّذه، في زمنِه مع آنا. إلا ...

– إذا كان ذلك ما يُريده القدَر فإن تلك الشُّعلة لن تنطفئ ويومًا ما، من يدري، عندما يُغطي القمر الشمس، ستكون شعلة حُبنا ما يقشع الظلام مرة أخرى وتُنير حياتنا إلى الأبد.

– إذن عليَّ أن أنتظر خسوف الشمس؟ هل هذا وعدٌ أم موعد؟ تحدٍّ؟ أم مجرد سخرية من شخصية رومانسية؟

– ليس وعدًا يا مايا، لا بل وداع، ولكن إذا حدث ذلك الخسوف، سأكون أنا أيضًا موجودًا في ذلك اليوم. ذلك النهار الذي سيكون ليلًا أيضًا. وإذا عثرتُ عليك من جديد، سيكون ذلك للأبد.

لوهلةٍ شعرت بأنني مستريحة، أمام ذلك الاحتمال الظاهر، ولكنني بعدَها على الفور شعرتُ كم أنا غبيَّة أمام عبَث ذلك الأمل. كان يمكن أن يقول لي: لنتقابل يومًا في نهاية العالم، فذلك سيكون أضمن.

كل ذلك الحُب وتلك السعادة منذ تلك اللحظة تحوَّلت إلى غضبٍ ويأس. لم أرغب في أن أبكي ولكنَّني أردتُ البكاء لأعاقبه قليلًا وليشعر بالذنب بعض الشيء، ولكن في الوقت

نفسه أرادت كبريائي أن تقوم، وأن تنتصِر. انفصلتُ عنه، واستمررتُ في النظر إلى الأرض، رجعت خطوات إلى الوراء بينما مكث هو ثابتًا في صمت. حاول بعدَها أن يمدَّ يدَه ليصل إلى شعري، ولكنني تراجعت، واستمررتُ في عدم النظر إليه. عندئذٍ أدركتُ الصوت البطيء لخطواته، والتراب الذي ارتفع، وصوت مُحرك سيارة جيب يشتغل، وهكذا رحلَ بلا شكٍّ ولا أي تردُّد. رحل بعيدًا. وأصبح بابلو كريم فصلًا مغلقًا. إلا أنه كان موجودًا، كان مرئيًّا في الأفق، وبدأت كلماته الأخيرة تتردَّد في ذهني: إنه الوداع. إذا عثرتُ عليك من جديد سيكون ذلك للأبد.

ولكن هل هو وداع أم لا؟ رحلتَ بحثًا عن نفسك، وإذا عثرتَ عليها هل ستعثر أيضًا عليَّ؟ ولكن ممَّن ترغب في السخرية؟ يا لك من إنسانٍ منافق! كان يكفي أن تقول: كان كلُّ شيءٍ جميلًا، ولكن شكرًا لديَّ مشاغل أخرى. ماذا يعني كلُّ هذا الحديث حول ما هو الصواب بالنسبة لي، وعن الفراق في سبيل الحُب ... لترحمني إذن! ليس هذا مُمكنًا، تُرى هل سيلفُّ الآن ويعود إليَّ مرة أخرى، ليس هذا ممكنًا؛ فهو لم يكن ثِملًا في تلك الأيام، ولا يمكن أن أكون قد أخفْتُه لهذا الحد ... ولكن كيف استطاع أن يصِل إلى فكرةٍ بهذا الالتواء؟ كيف يُمكنه ترْكي هكذا وسط العالم، بعد أن أراني بوضوحٍ أن القمر الذي أبحث عنه موجود على سطح الأرض؟ ماذا سأفعل الآن وقد عرفتُ هذا؟ ماذا سأفعل بحبِّه هذا الكبير إلى هذا الحد؟ وببطءٍ وجدتُ نفسي وقد ربضتُ على الأرض ورأسي بين يديَّ، وأخذت أرتعش وأنا أبكي من الغضب وسط الميدان. لم أرفع نظري بعدَها، ولم أعُد أرغب في رؤية أي شيءٍ، ولا أن أسمع أيَّ شيء. إذن الشخص الذي قال إنه يُحبني هجرَني بهذه الطريقة، ماذا يجب عليَّ أن أتوقَّع مِن باقي العالم؟ وبعينَين أثقلتهما الدموع هُرعت لأحضر حقائبي، وضعتُ بعشوائيةٍ أشيائي في الحقيبة الكبيرة. مكثتُ في الفندق كل المساء دون أن أتناول العشاء، وفي صباح اليوم التالي كما قررت، وفي حالةٍ انفعالية لم أتوقَّعها على الإطلاق، سأترك سيوة بحافلة الساعة السابعة. أيقظتُ عبد الله وزوجته، وودعتهما بسرعة، دون أي تفسير. كانا يعرفان عن عرض المنظمة غير الحكومية، وتركتُهما يُفكران بأنني مُتعجلة لأن أبدأ حياتي الجديدة. أعطاني عبد الله كيسَ بلح وقال لي أن أعود لأن سيوة هي أيضًا منزلي، وتأثرت، لأنَّني كنتُ أشعر فعلًا أنني جزءٌ من ذلك المكان، ولأنه من الواضح، أنَّني لم أُنهِ دموعي كلها في الليل: بالتأكيد سأعود! وأثناء ذلك سأترك هنا بعضًا من نفسي، اعتنِيا بها، أنتما اللذان استطعتما رؤيتها وحُبها.

يا للحزن الشديد!

عادة ما تُسبب العودة إلى القاهرة لي بعض الحُزن أعقاب زيارة سيوة، لأن ترك سيوة كان يُسبب لي حزنًا حقيقيًّا، ولكن في ظلِّ ما حدث، تفاقم الألم من التمزُّق الحادث بين الجسد والقلب. حيث رحل جسدي فقط تاركًا قلبي مُحطمًا هناك على الرمال.

يُداعبني هواء الصباح المُنعش محاولًا أن يُقنعني بأن حياتي بالفعل ممتلئة بالجمال وأسباب الفرح. اختار لي علوش مكانًا في الصف الأول خلف السائق. أعدَّ أحمد ومرعي، نادِلا عبده، شطائر للرحلة وغلَّفوها بورق الصحف، وأحضر لي عبده حقيبتي إلى المحطة. بدا رحيلًا مهمًّا، رحيل ذلك الصباح. ظلَّ حُزني في تناقُض عميق مع الجوِّ المُفرح والمُشمس المعتاد المُحيط بي. الشيء الوحيد الذي يُمكنني الاستغناء عنه بسرورٍ في سيوة هو الناموس.

رحلنا. كانت الحافلة مزدحمة. يضحك السائق مُستمتعًا حيث سقط المُفتش سقطةً قوية، أخرج فيها تُراثه الكامل مِن السباب. كدتُ أضحك بدوري ولكنني منعتُ نفسي بالكاد، وفوجئتُ بأنني ما زلتُ قادرة على الضحك على الرغم من الجحيم الذي أحمِله بداخلي. يضحك الجميع ويُدخنون بسعادة. قررتُ بأن أعتزل وأخذتُ أقرأ في كتابي الذي يتحدَّث عن الصحراء. أردتُ البقاء في الصحراء. أردتُ أن أعيش السلام للأبد. يُمكنني أن أقدِّم نفسي ذبيحةً للناموس ولا أترك ذلك الفردوس، على الرغم من كل شيء. ربما استطعتُ الاستمرار في تنفُّس الحُب إذا مكثتُ هناك، لأن كلَّ زاويةٍ من زوايا الواحة كانت مُتشبعة بها، ولا يُمكنه أن يختفي. فأنا على يقينٍ أنه بين أغضان آلاف أوراق النخيل سُجنت الأنغام التي خرجت من بيانو جدة بابلو مثل حبَّات الرمال التي ترفعها الرياح، وهكذا أيضًا كلمات الحُب التي تُولَد هناك، تتطاير إلى فوق، وتبقى هناك.

كان السائق مُهرجًا واستمرَّ في السخرية من المفتش. استمرَّ هو أيضًا في التدخين، مثل حيوانٍ يُحدد الجزء الذي يخصُّه من الأرض، ولم يتوقَّف عن البصاق من النافذة. كان الشريط الأسود الأسفلتي الذي يصِل بين سيوة ومرسى علَم ملوَّثًا ببلغمه. جبروت. شيء لا يُصدقه العقل قدرة بعض الرجال في سيوة على ارتكاب أشياء عجيبة. لا يوجَد ما يمكن عملُه، فهذه طبيعة أخرى. شعر المُفتش بالإهانة هو أيضًا بدوره. توقف عن الضحك على استفزازات السائق، الذي استمرَّ في البصق خارجًا، بل وصل به الأمر لأن يحرق له يدَه بالسيجارة! توقف المُفتش عن الكلام تمامًا. مسرح صغير!

إلا أن أهل سيوة أناس طيبون! نفوسهم بسيطة، رقيقة، عذبة ... في حين أمام عيني كان المفتش ذو الضحكات المُصطنعة والعملية، والشوارب البشِعة، تقريبًا رجلًا

يُثير الضيق، وخاصة عند مقارنته بالمُسنِّ السيوي الجالس خلفه، شخصٌ حادُّ الذكاء و... حكيم. ذكَّرَني بجد بابلو، بحنانه وحسمه.

فالشخص المدني سيأتي ليعيش في طقوسٍ ساحرة، مشاعر سحرية، ثم بعد ذلك سيجد نفسه فجأة (بلا مُقدمات) في واحدةٍ من تلك الحافلات المكتظة بالسائقين أو المُفتشين الفظِّين، الذين يُعيدونه إلى الحقيقة على الفور مثل صوت جرس المُنبه في منتصف حلمٍ جميل، مثل إيماءةٍ مفاجئة على وجهٍ سعيد، ومثل نغمةٍ خرجت عن التناغُم، ومعها البصقات التي لا تتوقَّف والتدخين الذي لا ينقطع، والأصوات الشاذة. مَن يدري إذا كان باستطاعتنا بصق الألَم.

ولكن سيوة ستظلُّ موجودة، حتى لو رحلتُ وتركتها. بل وضعوا الأسفلت أيضًا في الميدان والشارع المؤدي إلى فطناس، فهي موجودة وستظلُّ ومعها أيضًا أهل سيوة.

السلام موجود وسيستمرُّ في الوجود. وشعرتُ بالامتنان للسماء من أجل هذا.

بكيت في الصحراء، متأثرةً بسمائها وعظمتها والحب الذي ينبض بداخلي، وبكيتُ وأنا أسير بين أشجار النخيل العالية والخضراء، بجوار شخصٍ يُمكنه أن يفهم معنى البكاء تأثُّرًا. عشتُ كل لحظة هناك بعُمق شديد. وكرستُ كل ثانية للقيمة الوحيدة والتي لا يمكن تكرارها للحظة الحاضرة بعينَين تُحدقان وذراعَين مفتوحتَين. عانيتُ، ولكنني أحببتُ وشعرتُ أنني محبوبة. عثرت على جزءٍ منِّي لم أكن أعرفه، ولم أكن حتى أعرف أنه لي، وفهمتُ أنني يُمكنني أن أُحبه. وأحببتُ أكثر قليلًا جزءًا من نفسي سبق ووصمتُه أكثر ممَّا ينبغي ببعضٍ من عيوبي. تعلمتُ أن أمنح ما لم أكن أعلم أنني أملِكه، وأخذتُ الكثير، بل الكثير جدًّا. أحبُّ مصر وصحراءها، وبسبب تلك الكثبان (التلال) أدركتُ أنها ستظلُّ جزءًا مني حتى نهاية أيامي. ستكون الجزء الذي ازدهر والذي أتمنَّى ألا ينطفئ أبدًا.

أثناء الرحلة كتبتُ ما يلي في مُفكرتي:

«الزمن، ماذا سأفعل أنا في تلك الفترة؟ أم هل هو الزمن الذي بداخلي هو ما يدور ويخلِط أفكاري؟ أريد أن أفهم ماذا وراء تلك الغمامة، وأسفل تلك المرآة اللامعة إلى هذا الحد؟ أتمنَّى لو أوقفتُ الرياح واستطعتُ أن أنظر إلى الأشياء الواحد بمنأًى عن الآخر. إلَّا أن نظرتي تدخُل وتخرج بيني وبين الأشياء وأتبع انفعالاتٍ ومشاعر على الآثار غير الواضحة التي تترُكها في الهواء، لا أستطيع

أن أفهم رسائلها ولا طبيعتها ولا ترتيبها ... أتمنَّى لو استطعتُ أن أتوقَّف للحظةٍ لأقرأ المناظر حولي، لأشعر بأنني واعية ومسئولة عن اختياراتي. تلك الصحراء مُترامية الأطراف، والينابيع القادمة من قلب الأرض، أعيُن الناس وصخب القاهرة، والحُب الذي يشتعل في أعماقي، غزة وفلسطين، تلك الأرض المُعذَّبة، وتلك المساحات المُمتدة من الرمال والشمس، ومن الشر والنقاء ... كل شيء يدور وكل شيء يتداخل، وأنا فقدتُ سلامي لأني لا أعثر على جوهر الأشياء وألعب بالظلال، أسبح بين الخيال والذكريات والآمال. ربما لا أفهم بالفعل رغباتي. تطير جميعها على رأسي ولا أستطيع إيقافها. أحيانًا تسقط أرضًا وأدعسها. كم أريدُ أن أترُك نفسي ليهزَّني ذلك التبدُّل بين السماء والأرض، بعينَين مغمضتَين لأتمكن من قراءة ما بداخلي. لا أريد أن أُهدر وقتي ومشاعري. أنا متأكدة أن تلك الرحلة كان لها معنًى ما، ربما لا أراه الآن، لأنه ليس المعنى الذي اعتقدتُ أنني عثرتُ عليه. إلا أنني أعلم أن كلَّ شيءٍ سيظهر لي فجأة كمسرحٍ يُكشف مع فتح الستار، وسيظهر العرض أمامي ويطفو إلى وعيي. سأعود لأكون نفسي، وستعود إليَّ سعادتي، وبذلك سأختار نفسي. ولكن أثناء ذلك؟ هل سأقبل العمل الذي طالما بحثتُ عنه؟ ربما يتعلق الأمر فقط بالنظر إلى الواقع، وكل شيءٍ سيتَّضح، كما كان واضحًا قبل تلك الرحلة. كما كان واضحًا قبل الانغماس في تلك السعادة، وقبل الغرَق في الألم. ربما. فأنا لم أعد من كنتُه قبل ذهابي. أي مصير مُقدَّر لهذا الحُب يجب أن يختفي أو يغوص في عُمق النسيان مع ذلك الذي سحرَني، فأنا لم أعُد من كنتُه من قبل.»

نمتُ بمجرد أن رحلنا من مرسى مطروح. رؤية زرقة البحر الذي يحتلُّ الأفق فكَّرني بتقلُّباته، وكيف يعرف أن يكون مرآةً ثابتة للسماء في تحطُّمه وتهشُّمه إلى ملايين القطع والشظايا، بقوةٍ وغضب، من خلال العواصف والمعارك. فالبحر يعرف غناء المراثي العذبة، يعرف أن يُهدهد، أن يقلِب السفن وينزع الأشرعة، أن يُمزق الصخور صارخًا ومتوعدًا. إلا أنه يظلُّ البحر دائمًا. كنتُ أنا بحرًا عاصفًا، ولكنَّني لم أكُن حرة لأصرخ وأكسر كلَّ شيء. ركزتُ في فكرة تيار السحب، تلك الحركة المُنتظمة مِن المد والجزر، ونمت، مُتعبة من أفكاري نفسها.

استيقظت في الإسكندرية، الفترة الكافية لأُغير الحافلة مرة أخرى. استطعتُ أن ألمح البحر من جديد، البحر الذي يُمزق ويواسي. استطعتُ النوم مرةً أخرى حتى وصلت إلى

القاهرة على الرغم من الاهتزازات العنيفة، والصخب الشديد لحركة المواصلات. بمجرد أن وصلتُ إلى ميدان رمسيس، في المدينة التي لا تنام، كانت رائحة العادم، وليس الصخب، هي مَن أيقظتني ونشَّطت حواسي. كان الشابُّ الذي جلس بجواري في المرحلة الأخيرة من الرحلة بطريقةٍ غريبة: أوقف لي سيارة أجرة وسألني إذا كنتُ بخير، وإذا كان كل شيءٍ على ما يُرام، وإذا كنتُ أحتاج لأن يصحبني أحدُهم أو إلى أي شيءٍ آخر. فهمتُ أنني بكيتُ أيضًا في منامي بينما أحلم، وأن هذا أقلقَه. أثر فيَّ كرمُه وشعرتُ ببعض الخجل أيضًا، شكرته وطمأنته ودخلت إلى ذلك التاكسي. فتَّشتُ في جيب حقيبة ظهري بحثًا عن منديل، ولكن شعرتُ بأصابعي بشيءٍ ما: جذبته خارجًا فوجدتُها ورقة مطوية أكثر من مرة. لم تكن تخصُّني، ولم أُدرك أن أحدهم وضعها لي في جيب الحقيبة. لا بد أنه علوش، فهو عندما ودَّعني قال لي: استمتعي بالحياة يا مايا، ولا تضيعي.

«استمتعي بالحياة يا مايا ولا تضيعي.» يا لها من كلماتٍ جميلة، أثرت فيَّ على الفور وأخذتُ أُرددها وأعيدها على نفسي كأنها المفتاح الذي أحتاج إليه. لم يكن علوش يخشى من أن أضلَّ الطريق لأعود إلى المنزل، وأنا أجلس على متن الحافلة الرائعة كالمُعتاد، ولكن عينَيه قالت لي بوضوح، مع تلك الكلمات القليلة ألَّا أفقد رؤية نفسي وجوهري وشغفي. وبدا لي للحظةٍ كلُّ شيءٍ واضحًا، من خلال وشاح الدموع الذي صعد مرة أخرى إلى عينيَّ.

ولكن ذلك الوضوح، الذي تفجر على الرغم من ساعات الرحلة الطويلة والنوم المُتعب، انطفأ على الفور بمجرد أن فتحتُ الورقة التي أعطاها لي علوش، وعندما فهمتُ أنه خطاب من بابلو. كان ذلك بمثابة لكمة خيانةٍ لم أكُن أتوقعها. يداي ترتعشان وتمزق وشاح الدموع، ويبس وجهي. أغلقتُه على الفور حتى لا أجد نفسي فريسةً لانفعالاتي في تاكسي انطلق في فوضى العاصمة، وفريسة لعيني السائق الذي كان يفحصني من المرآة الأمامية. كنتُ أحمل على كتفيَّ حملًا من الانفعالات المتضاربة، وليلةً بلا نوم، معاناة رحلة لم تنته، وتراكمت فوقي طبقةٌ ضخمة من الأتربة، في يدي حياة، وأمامي مفترَق طرق. الكثير جدًّا بالفعل لأواجهه في تاكسي قاهري، موسيقاه تعلو بصخب، تتدلَّى فيها الزينة، التابلوه مفروش بموكيت برتقالي، وسائق جاهز للتحدُّث. كان الإمساك بقطعة الورق بين أصابعي، وأنا أعرف أن بابلو سبق ولمسها، وأنا أرى خطَّه، اسمي مكتوب بيدِه كان أمرًا مُدمرًا: حيث جسد أمامي، ما سبق وتركتُه هناك في صخب الحياة التي تركتُها، حلمًا رائعًا كان يُمكنه أن يظلَّ محدودًا في الأبعاد غير الواقعية لفردوس سيوة. كان هناك بالفعل وكان حقيقيًّا. أي شيءٍ مكتوب هنا، كان بعضًا من بابلو الذي ظلَّ معي.

سيوة ٢٨ مايو ١٩٩٥م

هذه الليلة تبدو السماء في حداد، بلا نجوم، بين تلك الأسوار المصنوعة من الطمي، وفوق صدى نهيق الحمير أسمع نفَسي المُتقطع من الحزن.

لا أدري إذا كان لنا أن نتقابل مرةً أخرى يا حبيبتي، وإذا لم يحدُث هذا، فبالإضافة إلى الألَم سأشعر أيضًا بثِقل الخطأ. فهذا المساء لم تفهميني بالمرة، لم تفهي تصرُّفي، إلا أنك يومًا ما ستشكُرينني، في قلبك بأنَّني لم أمنعك مِن الرحيل، وأنك قمتِ باختيارك الخاص، وأنا سأعيش على أمَل تلك اللحظة، لأنه لو لم يحدث هذا ... سأكون فعليًّا أهدرتُ أكبر عطيةٍ أهداني إيَّاها هذا الإله (الذي أعرف الآن بوجوده): وهي أنتِ.

ربما بالنسبة إليك لن أكون سوى مَن هجرك، ومن أحبطَك، إلا أنني سأكون لك إلى الأبد، لأنك أنتِ مَن منحتِني الحياة الجديدة، لأنك أنتِ نَبعي في الصحراء وشعاع الشمس الذي أبعد سنواتٍ من السُّحب السوداء!

كتب جبران: «... تعطون القليل جدًّا إذا أعطيتُم من خيراتكم. لكن تعطون حقًّا عندما تُقدِّمون ذواتكم.» أتمنَّى لو استطعتُ أن أمنحك جزءًا من ذاتي، تحت تلك السماء التي بالتأكيد ستُوحِّدنا إلى الأبد، أينما أخذتنا الحياة.

عطية لك، أنتِ مَن كانت بالنسبة لي إحدى هدايا سيوة، ثمرة من ثمار سيوة، زهرة مُغلقة تفتحت، وملأتني بالعطر والألوان واستمرَّت بضعة أيام ... فهذا ما يحدُث للزهور كما هو معروف.

لقد تجوَّلت قليلًا في حياتي وشعرت بأنني أستطيع أن أفعل ذلك للأبد، بأنني يُمكنني أن أنتمي إليك كما ستنتمين أنتِ إلى كلِّ حلمٍ لي من الآن فصاعدًا. وما يُمكنني بالفعل أن أمنحك؟ لا شيء سوى كلماتٍ باطلة تتردَّد، تقول ولا تقول، تتمنَّى ولا تريد أن تتمنَّى، تريد أن تمنح ولكن في النهاية تسأل، تقريبًا تتوسَّل أن تعثر على تلك الرائحة أم تلك الحرارة ... أم تلك الزهرة. أغمض عينيَّ وأستدعي «زهرتي».

ها أنا أتركك لترحلي يا مايا، ربما لستُ سوى شخصٍ مجنون! في عينيَّ زهرة سيوة ما زالت لي، ما زالت نضرة، ودون أن أتسبَّب في أي ضوضاء، ما زالت كلماتي تتجوَّل في حياتك، على شفتَيك، تحت السماء الجميلة المُرصَّعة بالنجوم. بعينَين مغمضتَين لديَّ البساط الطائر الذي بحثتِ عنه في الليلة التي تعبتِ فيها من السير عندما أخذتُكِ بين ذراعيَّ جزءًا من الرحلة، كنتِ حِملًا عذبًا وضعَ لي جناحَين ... هل مِن الجنون الإيمان بهذا الحب أم لا، باسم كل ما هو عادل؟ ماذا يُمكنني أن أفعل لأفتح عينيَّ من جديد

وأرى هذا كلَّه مرةً أخرى؟ أن أرى الحياة كما لم تواتِني الشجاعة بأن أحلم بها قط. ها أنا، أُقدم لك حلمي: في شهر مايو الصحراوي الغريب هذا، والذي تتطاير فيه الزهور والأبسطة، أُهدي لك حلمي. حلمي بأن يلتقي النهار بليلِه، ويصبحا شيئًا واحدًا، لأن الحياة في عُمقها من هذا جُبلت، من النهار والليل، مثل فصول الصيف والشتاء، والأرض والسماء، الموسيقى والصمت، مفاتيح البيانو البيضاء والسوداء ... إن التناغُم فيما بينها جميعًا هو ما يخلق التكامل، مثلنا نحن الاثنين، يُكمل أحدنا الآخر، يملأ أحدُنا الآخر ... إن هذا كل ما يُمكنني أن أتركه لك من نفسي، هذا الحلم، الحرية، أن تعيشي حياتك كما تمنَّيتِ، كما كنتِ تُخططين لها. ستعيشين في أنفاسي، وتسيلين في عروقي، ستكونين في صلواتي للإله الذي سمحتِ لي بمعرفتِه، ستكونين في الماء الذي سأشربه، في الشمس التي ستُدفئني، في الرياح التي ستعبُر بين شعري وستكونين في موسيقاي، في موسيقاكِ، فأنت مُلهمتي التي عثرتُ عليها! أشكركِ على الحياة التي وضعتِها مرةً أخرى بين يديَّ، على الأمل الذي علَّمتِني إيَّاه ببساطتكِ، وشفافيتكِ وحبكِ المُخلِص، على السلام الذي ساعدتِني على تذوُّقِه، على فرح وانفعال القبلات التي استمتعتُ بها كما لم أفعل من قبلُ في حياتي ...

مايا، لقد وُلدتُ من جديد معك، وأقلُّ ما يُمكنني أن أُقدمه لك في المقابل هي تلك الحرية. وسأفعل الصواب.

أنت، يا مَن تعرفين أن تجلسي على شاطئ البحر، تعرفين جيدًا أن الحجارة الصغيرة المصقولة تلمع مثل الذهب والأحجار الثمينة، ولكن فقط إذا ظلَّت هناك، حيث تُربِّت عليها المياه التي تُنعش ألوانها، وتحت أشعة الشمس التي تجعلها تتلألأ. نرغب في أن نأخُذها، وأن نأخذ معنا جزءًا من تلك العظمة لنحتفظ بها. ولكن بمجرد أن ننزِعها من هناك، تفقد سحرَها ولا نتعرَّف عليها. ستلمع قليلًا بين يدَيك المُبلَّلتَين، ولكن سيخبو ذلك البريق كما تُطفأ نجوم الفجر. تقريبًا لا شيءَ على الإطلاق كما يبدو. ولكن هذا يعتمِد ... يعتمد عادة على من ينظُر إليه. يعتمِد على الشوق.

أحيانًا نجِد الجمال إذا كنا مُستعدِّين للنظر إليه دون أن نمتلِكه، دون أن نتشبَّث به بين أيادينا. فالبحر والسماء والقمر كلها ملكٌ لنا فقط إذا قبِلنا أننا لا نمتلِكها. فالزهرة التي نقطفها، تموت، والحجارة الجميلة على الشاطئ، إذا ابتعدت من هنا، تخبو. وزرزورة ... زرزورة تحت السماء الرحبة، أمام الجميع، لن تتلألأ كما تلمع في حلمِ مَن يبحث عنها.

الصحراء، مثل البحر، حنين يبتلِعنا، ذكرى للجسد، أغنية للذهن، مساحات لا مُتناهية للأعين القصيرة النظر والمُغمضة، في ظلام الشتاء وفي برد البعاد، في القلق من المساحات الشاسعة، سأحتفظ بكل شيءٍ بأن أترُكه.

تمنِّياتي لك بحياةٍ طيبة يا حبيبتي. كوني سعيدة يا زرزورتي للأبد: أنا أعلم أنك هناك، موجودة، تَلألَئي وانشُري ضوء أحجارك الثمينة في صحراء العالم. مجرد رؤيتك ومعرفة أنك موجودة في الحياة، يكفيني لأن أعتبر أن هذا العالم القديم صندوق يحفظ كنزي.

بابلو كريم

قطعة الورق تلك، ما تزال موجودة، اهترأت من عدد المرات التي أمسكتُها بها بين يدي، مُغلقة أو مفتوحة مرةً أخرى، ومِن الدموع التي انسكبَت فوقها. قبل أن أرحل فتحتُها من جديد بعد أعوامٍ مثل الأثر الثمين. لا أحتاج أن أقول إنني يُمكنني أن أتلوها دون أن أفتحها مرةً أخرى، نظرًا لأنني حفرتُ تلك الكلمات بداخلي، كلمةً كلمة.

استمرَّت الحياة، وتلك التي بدت حياةً رائعةً ومُحققة، أصبحَت مجرد مُزحة، سلسلة مِن عثرات القدَر. الآن أنا بخير، سعيدة ومُطمئنة بوجودي مع الأعمام في فيليريو، بالقُرب مِن بحري، منغمسة في الحاضر وعطاياه، تُواسيني صفحات مئات الكُتب الجميلة، يُهدهدني الجمال المُحيط بي، حرة، هادئة ومنفتحة على الحياة. لديَّ إيقاعاتي البسيطة، لحظات الغروب، وابتسامات الأطفال الذين يأتون إلى المكتبة ليستمعوا إلى الحواديت. فعلتُ كل ما في إمكاني لأفهم ولم أفهم، لأعثر على بابلو من جديد ولم أعثر عليه. لم يرغب هو قطُّ في أن أعثر عليه، حيث كان في استطاعته أن يُرسِل أخباره عن طريق العديد من الأصدقاء المُشتركين. لهذا توقفتُ عن البحث عنه. ثم توقفتُ أيضًا عن انتظاره. وفي النهاية توقفتُ عن تذكُّره، وعقدتُه في أكثر الثنايا خفيةً في قلبي.

عدتُ في أسرع وقتٍ إلى إيطاليا لأُنجز بسرعة كل الإجراءات البيروقراطية الضرورية لأُقنن وضعي في فلسطين. نوع العَقد الذي قدمَتْه لي المنظمة غير الحكومية التي وافقت على مشروعي لا بدَّ من توقيعه في الجهة المرسَل إليها، بعد تقديم المستندات المطلوبة، إلا أن أمي سِمعتني أسعل ولم تُعجبها سعلتي. اعتقدتُ أن الأمر يتعلق فقط بقلق الأم أثناء الاستعدادات للرحيل، ولكنها لم تهدأ إلا بذهابي إلى الطبيب. قلق الطبيب وطلب أشعةً

واتضح أنني مصابة بالتهابٍ رئوي. ارتفعت حرارتي بالفعل بضعة أيامٍ ولكنني اعتقدتُ أن الأمر لا يتعدَّى تغيير الجو، فقد تركتُ أجواء مصر الصيفية ووصلتُ إلى روما بينما كانت تُمطر بغزارةٍ في نهاية الربيع، وجو مختلف تمامًا. صُدمت، ثم هدأت، واعتقدتُ أنه سيُعالجني وأنني سأرحل بعد ذلك، كما هو مُخطط، إلا أنني ظللتُ في المستشفى للعلاج ولم يتوقَّع أحد فترة العلاج. لم أستطع تصديق نفسي: فقد هويتُ من السماء إلى الأرض في بضعة أيام، كما يقولون، بل وهويتُ بقوةٍ حتى إنني غرست في الوحل! فخلال أيامٍ قليلة سحبتِ المنظمةُ غير الحكومية عرضَها، وقيَّمت مشروعَ شخصٍ آخر، بينما أتأمَّل أنا كيف تتساقط حياتي قطعةً تلوَ الأخرى من على فراش المُستشفى. أخذ الجميع يقولون إنني محظوظة جدًّا لأننا اكتشفنا هذا المرض قبل رحيلي، لأنه لو حدث هذا في غزة لكانت مشكلةً عويصة، بدا أن الجميع يعرفون ما هو أفضل لي ولمُستقبلي، بينما أنا في ضربةٍ واحدة لم أفقد فُرصتي في الذهاب إلى فلسطين فحسب، ولكنني تركتُ مصر أيضًا، وعملي هناك لمهلةٍ غير مُحددة، وغير متوقعة، لأُصبح تحت جناحَي «ماما إيطاليا» الحامِيَين.

في الفترة التي قضيتُها في المستشفى بسبب الالتهاب الرئوي لم يُحالفني الحظ بعقد أي صداقاتٍ ولم أكن حتى مُستعدة للتواصُل مع أحد. كنتُ محبطة للغاية. أعتقد أنني استبعدتُ تلك الفترة تمامًا جزئيًّا من حياتي، حيث إنها كانت الأسوأ في حياتي. بعدها استسلمتُ للأمر الواقع بعض الشيء، ودفعني لذلك رغبتي في حماية نفسي خوفًا من العودة للألم، وأيضًا لانعدام الدوافع.

كان فقدان منصب المنظمة غير الحكومية بمثابة صفعةٍ شديدة، وخاصة لأنني حصلتُ على تلك الفرصة في لحظةٍ خاصةٍ جدًّا وعذبتُ نفسي طويلًا وأنا أسألها ماذا لو كنتُ أكملتُ قصتي مع بابلو، وماذا إذا لم يُهاتفوني بالتحديد في تلك الأيام. أعرف أنه حينئذٍ قد بدأ يستعيد لتوِّه مسيرته في استعادة ثِقته في الحياة، وفتح عينَيه قليلًا لينظر إلى نفسه وإلى جذوره. بل إنه استطاع أن يفهم أنه يمكنه الصلاة، وأن الله موجود للمسيحيين وللمسلمين ولأي شخصٍ آخر، وأن علاقته به مُمكن أن تكون خاصة به وحدَه. ولكن ربما كنتُ سأتمكن من أن أمكث بجواره ونستكمِل طريقَنا معًا، يدانا مُتشابكتان، وكنتُ أنا أيضًا سأنضج معه. لم يكن عمري في نهاية الأمر سوى أكبر مِن العشرين بقليل، وكأن أمامي أنا أيضًا مسيرتي الخاصة.

لكن يبدو أنني توقفت. لم تكن لدي قصص بناءة. لم أبحث عنها، ولم أُرِدها، ولم أعُد أَصدُق فيها.

إلا أنني مؤخرًا استعدتُ بعض الثقة في نفسي. عندما أخذتُ محلَّ ابنة عمي لورينا، والتي هربت إلى قبرص مع صديقها صانع الوشوم، وبدأتُ أعمل في المكتبة، ملأني ذلك بأفراح صغيرة حقيقية ورغبة في آفاق مفتوحة. عرفتُ أناسًا جددًا، وعقدتُ صدقات، وحكيتُ حكايتي لعمِّي الذي استطاع أن يُساعدني على أن أواجه مرةً أخرى الذكريات المؤلِمة، وبطريقةٍ ما استطعتُ أن أواجِهها. أفادني ذلك كثيرًا. لولا هذا لما كنتُ هنا الآن.

وبهذه المناسبة. كم الساعة الآن؟

ألا يمكن أن أكون قد فاتتني الطائرة ولم أُدرك حتى هذا؟

أنظر إلى الهاتف لأرى إذا كانت هناك أي مكالمات. لا توجَد. أتَّصل أنا بشيرلي، أشعر أنني مكثتُ هنا بالخارج عمرًا بأكمله!

– شيرلي، أنا مايا ... هل توجَد أخبار؟ سأعود حالًا، أين أنتما؟

– آه يا مايا! كنتُ على وشك الاتصال بك! تعالي إلى بوابة ٢١، جمعونا وننتظِر منهم إشعارًا فوريًّا، أسرعي!

كمن استيقظ من سباته أعود إلى عام ٢٠٠٦م، وإلى ممرَّات مطار ليوناردو دا فينشي لأصِلَ إلى بوابة ٢١ جريًا. وها هما عزيزاي أنطونيو وشيرلي.

– مايا، يقولون إن رحلتنا أُلغِيَت، ربما لا يمكن لطائرتنا أن تُحلق ... وأنهم سيقسموننا على الطائرتَين المباشرتَين المُغادرتَين إلى القاهرة، حسب الأماكن المُتوفرة. يبدو أنهم سيُصعدون العائلات التي تصحب أطفالًا وكبار السن، ثم الآخرين.

تُخبرني السيدة ذات الرداء الوردي وتُضيف: في هذه الحالة سيفرقوننا، يا للخسارة! هذا يؤسِفني كثيرًا حقًّا! لقد تركتِني في منتصف قصتك ولا أعتقد أنني أنوي البقاء تشغلني التساؤلات يا فتاتي! ثم كيف يُمكنني إذن الاستمتاع بثمار رحلتك إلى مصر؟

أضحك وأنا أُفكر في كل ما دار في ذهني خلال تلك الساعة التي قضيتُها بمفردي في الخارج ولا يُمكنني قطُّ أن أُعيدها على شيرلي الآن. لا أعرف متى ستصعد هي وزوجها على متن طائرتهما، ربما لا بد أن يظلَّا في وضع الاستعداد. ثم إننا يُمكننا أن نتقابل مرةً أخرى في القاهرة، فذلك سيُسعِدني كثيرًا، وبلا شكٍّ يُمكننا أن نتقابل مرةً أخرى هنا في إيطاليا. بغضِّ النظر أنَّنا ما زلنا في إيطاليا. في المنطقة المُعلقة، تلك التي تُدعى المطار، أبدأ من جديدٍ في إرسال رسائل هاتفية للأطراف المَعنية لأنقلَ إليهم التطوُّرات (أي أنني ما زلتُ

حيث أنا) بعضهم تعصَّب. ولكن ليس أنا. فهذا الوضع من الثبات الإجباري يُنقذني من بعض التوتُّر.

ألخِّص سريعًا القصة لشيرلي. أقول لها عن الأيام الرائعة التي قضيناها أنا وبابلو في القاهرة، والعودة إلى سيوة، وليلة الينبوع الساحرة، والتي أثناء حكيِها أكاد أقسم أن وجهها اكتسى باللون الأحمر، صديقتي الرومانسية، على الرغم من أنني لم أدخُل في التفاصيل! أحكي لها عن أسطورة النهار والليل، وكلمات الجد كريم. أتوقَّف عند حكاية شُرب القهوة وقراءة الفنجان، وعند كسر الفنجان الأزرق الفاتح، وكيف أن الشيخ أصلحه وهو يدهنه بمادةٍ تُشبه الخزف. تُبهرها حكاياتي، وأحاول أنا أن أفصل نفسي عن تلك الحكايات، أن أتحوَّل لمُستمعة تمامًا مثلها، ولكن دون أن أستخدم الكثير من علامات التعجُّب. أحد مَن ينتظرون معها، ينظر إليها بفضول، وبالتأكيد يتساءل ما الذي أحكيه لها يُسبب لها كل تلك الدهشة. ولكن الأفضل أن أقول إن الدهشة الحقيقية، وعدم التصديق يحدثان عندما أصل إلى الشيء الذي حدث بعد ذلك: مكالمة المنظمة غير الحكومية، قطع العلاقة والانفصال والخطاب، وأخيرًا الالتهاب الرئوي! لم يكن لدى شيرلي أي تعليق. كدت أضحك وأنا أراها مندمجة عاطفيًّا إلى هذا الحد، تلك السيدة الرقيقة ... يبدو أنها لم تستطِع استيعاب كل هذا.

– شيرلي، تخيَّلي أن الأمر احتاج مني سنواتٍ لاستيعابه! إلا أنني حتى الآن لم أستطع أن أُنحِّيه جانبًا.

– لهذا إذن تذهبين، في انتظار خسوف الشمس. أليس كذلك؟ نحو نهاية الشهر سيحدُث الخسوف! يا إلهي! لا بد أنها ستكون لحظة الحقيقة!

– أجل يا ليدي شيرلي. الأمر كذلك. عندما كان عمِّي ميكيله يتقاسم غرفة المستشفى مع أستاذٍ جامعي مُولَع بعلم الفلك، ويشعر بالحنين مثله، سمع القصة عن الموعد البعيد الذي افترَضه بابلو، ونظرًا لأنه يعرف عن الاقتران الوشيك للخسوف، أصرَّ على عودتي بأي شكلٍ إلى سيوة. الجميل أنني عندما كنتُ أروي حكايتي لعمِّي، وكأنني أُمارس سِرَّ الاعتراف مع الكاهن، كان هو يحكي قصتي بكلِّ انفعالٍ لرفيق الغرفة، بالإضافة إلى الأطباء والمُمرضات والذين لم تكن لديهم حيواتهم الخاصة التي عليهم الاهتمام بها! وكانا هما من ساهما بالنقود لأبتاع تَذكرتي إلى القاهرة، حتى لا أتذرَّع بأي شيءٍ وأرفض تلك الفرصة. شعرتُ بالإحراج الشديد.

تضحك شيرلي وتُصفق مثل طفلة سعيدة على تلك الفقرة المرحة «من كتاب القلب» والتي تُوافق عليها وتؤيِّدها.

– يا لحظِّ أن تكوني مُحاطة بشخصياتٍ جميلة هكذا يا مايا! يا لها من هدية رائعة! حتى إن لم يكن بابلو في سيوة للخسوف، يُمكنك على كلِّ حالٍ أن تُقابلي أصدقاءك من جديدٍ والصحراء محبوبتك. لا بد أن تنتفضي في كل الأحوال يا فتاة، أليس كذلك؟

– أجل يا شيرلي. يُمكن العيش بسلام وسعادة أيضًا دون التورُّط الذي يجلبه الحُب، ولكن لا بد أن نتحلَّى بالأمانة: صباح اليوم نظرتُ لنفسي في المرآة وقلتُ لنفسي، أجل، ما زلتُ أريد أن أُحب وأن أكون محبوبة، أريد أن أعود لأشعر أنني حيَّة مِن أعماق قلبي، أريد أن أجد نفسي مرةً أُخرى في قصيدة حُب رائعة!

ولكن هل تعلمين أمرًا يا شيرلي؟ أعتقد أنني قابلتُ بابلو كريم مرة بعد تلك الليلة المنكوبة التي تركني فيها. بل إنني متأكدة، حتى وإن لم يرَ أحدُنا الآخر. أو الأفضل أن نقول إنه لم يراني. وأطلقتُ على ذلك اللقاء «الخسوف الجزئي».

بعد تشخيصي بالالتهاب الرئوي، مضت ستة أشهر قبل أن أتحرَّك مرةً أخرى من منزل أبويَّ.

في تلك اللحظة لم أكن أحتاج إلى وثائق ولا تطعيمات، لا شيء. وانتهزتُ الفرصة. بالتأكيد وضعتُ نفسي في قائمة الانتظار، ومكثتُ في انتظار الفرصة الثانية. في القاهرة كنتُ قد تركت بالفعل العمل في الجامعة الأمريكية. وهناك تركتُ كل أشيائي لدى نورا. حيث إن عودتي كان لا بدَّ وأن تكون مؤقتة: وعند عودتي من إيطاليا كنتُ سأمرُّ على مصر وأُنظم كل شيء. إلا أنها مرَّت ستة أشهُر، ستة أشهر من الجحيم، وما يزال كل شيءٍ معلقًا.

كانت صديقتي نورا هي مَن دفعني على العودة إلى القاهرة، بعد الالتهاب الرئوي وكل ما حدَث. كانت تعرِف كل شيء، الوحيدة المُطلعة على التفاصيل كلها، وتُدرك أيضًا أنني بحاجةٍ إلى العودة لأماكن تركتُها وأنا نادمة بشدة. كنتُ أحتاج إليها وإلى العثور على نفسي هناك حيث كانت حياتي قبل المرَض.

رحلتُ في فبراير، بمجرد انتهاء شهر رمضان. أتت نورا لتستقبلني في المطار، وكان عناقنا جميلًا. كان يُمكنني أن أمكث بين ذراعَيها في صمتٍ تامٍّ وأنا أعرف أنني مفهومة تمامًا ومحبوبة، يا له من علاجٍ شافٍ للنفس! ترتدي المدينة ملابس العيد وتشعُّ الفرحة في الطرقات. تحتفل العائلات بصخب بنهاية الشهر الكريم والأضواء تتلألأ من المنازل والبنايات. إلا أننا خطَّطنا للبقاء في القاهرة أقلَّ وقتٍ ممكن، بسبب الهواء الذي لا يمكن

تنفُّسه، وأن نقضي بعض الأيام في واحةٍ ما، ولكن نورا رأت أنه من الأفضل ألا نعود إلى سيوة. قرَّرنا إذن الذهاب إلى الواحة البحرية، مكان آخر رائع، به ينابيع مياه ساخنة وساخنة للغاية ويمكن السباحة فيه أيضًا في الليل، أسفل النجوم، مع الحرارة الخارجية القاسية في ذلك الموسم: ركن آخر من أركان الفردوس الصحراوي، بالتأكيد كانت فكرةً رائعة. اتصلت بعبد الله ورويتُ له عن أخباري، وبينما أتحدَّث كنتُ أعرف أن تلك الأخبار يمكن أن تصِل إلى أُذنَي بابلو، بطريقةٍ ما. تساءلت: ترى هل سيحدُث ذلك عن طريق جدِّه، أو ربما عن طريق عبد الله نفسِه. أعترف أنني سألتُ لو كان بابلو في سيوة، ولكن قيل لي إنه قد رحل بعدي ببضعة أيام، وأنه عاد ليزور جدَّه قبل شهر، ومكث يومَين فقط. يرى عبد الله أنه لا بدَّ وأن يكون في القاهرة، وأن زيارته الوجيزة جعلته يفترِض أنه وجد عملًا، ولذلك ليس لدَيه الكثير من وقت الفراغ. حقًّا، ولكن أين؟ إلَّا أنه لم يعرف أي شيءٍ آخر. قال لي فقط إنه في تلك الزيارة السريعة عزف البيانو طويلًا، وتحدَّث الجميع في القرية عن ذلك وابتسامة تعلو شفاههم. يا لجمال الموسيقى ... إنها كالرياح التي تُداعب الجميع.

تلك الأخبار القليلة كانت كافيةً لتُثير انفعالاتي بشدة. إذا كان بابلو في القاهرة يُمكنني أن أُقابله صدفةً في الشارع! تُفكك نورا افتراضاتي الطفولية، وهي تُذكرني بأن المدينة بها حوالي سبعة عشر مليون نسمة، وأنه ليس مُستحيلًا لقاؤه فحسب، بل احتمالات حدوثه أيضًا مستحيلة. بالإضافة إلى أنَّنا خطَّطنا بأن نبقى في القاهرة ثلاثة أيام فقط قبل رحيلي، بسبب مشكلة التلوُّث وحالة رئتي. أمسيةَ أحد تلك الأيام الثلاثة سنُنظم حفلًا لنجمع كل الأصدقاء الذين يمكن رؤيتهم مرةً أخرى، وفي مساءٍ آخر سنذهب إلى مسرح الأوبرا كما اعتدْنا أن نفعل عندما عشتُ هناك. وابتاعت نورا بالفعل تذاكر عرضٍ إيطالي أيضًا. عنوان العرض «العثور على المُلهمة»، وبمجرد سماعي تلك الكلمات فكرتُ على الفور في بابلو، عندما كان يقول إنني أنا الملهمة التي أعادت إليه الوحي، التي عثر عليها ليعود مرةً أخرى للعزف، وكتب ذلك أيضًا في خطابه. في الحقيقة، كل زاويةٍ وكل كلمة، وكل انفعال، وكل نجمةٍ في السماء تدفعني للتفكير فيه. فعندما نكون عاشِقين، كل ذرة موجودة تكون ذريعةً للتفكير في المحبوب، ويكون الأمر غايةً في العبث عندما نُسميها مصادفات. كل هذه مصادفات؟! فنحن نرى في الخارج ذلك الذي يكمُن في داخلنا.

نتسلَّى أنا ونورا ونحن نرتدي ملابس السهرة، وهو أمر لا يحدُث في القاهرة إلا إذا كنَّا ذاهباتٍ إلى المسرح أو إلى حفلٍ من حفلات السفارة الإيطالية، وكان هذا جزءًا من جمال الأمسية. وضعنا الماكياج بوضوح، وكأنَّنا المُمثلات اللاتي سيظهرنَ في العرض.

كان عرض «العثور على المُلهمة» عرضًا مسليًا، رحلة خيالية ورائعة بين ألحانٍ مُنتقاة من أكثر أعمال الأوبرا والأوبريت شهرةً، يختارها جواكينو روسيني ومعه امرأة شابَّة تتولَّى أعمال النظافة في المسرح. في العرض يفقد روسيني الوحي ويعثر في تلك الخادمة الشابَّة على إلهامه، أثناء حكيِه لها أكثر قصص الحُب ألمًا والتي يحكيها بالموسيقى والكلمات والرقص. تنجح الشابَّة أنجيلينا، بأساليبها الشائكة وذكائها العملي وثقافتها الضئيلة، على الرغم من كلِّ شيءٍ، في الاستحواذ عليه ببساطتها ودهشتها التي لا بد أنها قد ظهرت عليها أثناء استماعها لحكاياته. تتراوح الحوارات بين روسيني وأنجلينا من الباليه إلى أغاني الأوبرا، وكل شيءٍ يجري بشكل مُمتع في ثورة من الانفعالات. ربما راكمتُ أنا كمًّا من التوتُّر والهشاشة التي لم أستطع التعبير عنها بعد، لأنني أعتقد أنه لا أحدَ مِن الحضور ذرف مثلي كميةً من الدموع بين الضحك والبكاء!

جاءتني أول لطمةٍ على رأسي بأغنية فيوليتا «وداعًا للماضي» في أوبرا ترافياتا[1] لفيردي:

وداعًا يا أحلام الماضي الجميلة الضاحكة.
قد ذبلت وردات وجهي، وشحب،
وحبُّ ألفريدو أيضًا غاب عني.
هو من كان سندًا وعزاء، لنفسي المُتعبة.
آه، يا إلهي، ارحم الضالَّة وشوقها،
واغفر لها، واقبَلها في رحابك.
الآن انتهى كل شيء.
قريبًا جدًّا سينتهي الفرح والألم،
فالقبر مصير كل بشر.
لن تسقط دمعةٌ أو زهرة على قبري،
ولن يُغطي عظامي، صليب يحمِل اسمي.
آه، يا إلهي، ارحم الضالة وشوقها،
واغفر لها، واقبلها في رحابك.
الآن انتهى كل شيء.

[1] قصة الأوبرا مُقتبسة من رواية «غادة الكاميليا» لألكسندر ديوما الابن.

هي، التي في سبيل الحُب تركت حُبها الوحيد والحقيقي، ألفريدو، جعلتني أفكر في تصرُّف بابلو تجاهي. فهي، فيوليتا، تركته وكذبَت عليه لتحميه وتحمِل هي الذنب حتى لا يتألَّم كثيرًا. فعلَت ذلك عندما أدركَت أنها لن تستطيع أن تمنحه ما أرادت، بحريةٍ وبلا همٍّ، ما يُمكن أن يتطلَّبه حبهما، وبأنها لن تستطيع أن تكون على قدْر منحِه مستقبلًا رائعًا، بسبب ماضيها …

على الأقل اتَّسم بابلو بالصِّدق. لم أُقدر ذلك، ولكن يبدو لي تصرُّفه الآن أقلَّ بشاعة، بينما أتماهى الآن في ذلك الجو المُدمِّر. بالإضافة إلى أن فيوليتا كانت مريضةً وشارفت الموت، مأساة داخل المأساة، فهي في سبيل الحُب تتخلَّى طواعيةً عن الحب، بينما الحياة تبتعِد عنها.

كيف تمكَّنتُ مِن ألا أدمِّر ما وضعتُه من مساحيق التجميل؟ مكثتُ منفعلةً قليلًا، بينما أنجيلينا وجواكينا يتبادلان النِّكات اللطيفة في أوبرا كارمن ليبزيه، ثم جاء المصير البشِع لماما باترفلاي، ثم المُهرجين، وبعدها الريجوليتو … وتتوالى مأساة بعد الأخرى، تحدُث كلها باسم أسمى المشاعر التي تتصادم مع الخسَّة الإنسانية، لتُذكرنا أننا نعيش ونموت من أجل الحُب، ولا يمكن لشيءٍ آخر أن يمنح المعنى لأي حياةٍ على الأرض سوى الحُب، سواء كان مُتبادلًا أم لا، مكتملًا كان أم ناقصًا، مفهومًا أم غير مفهوم، مشروعًا أم غير مشروع، طالما كان حُبًّا كاملًا مُطلقًا.

عندما أُضيئت الأضواء مع بداية الاستراحة، انفجرت نورا في ضحكةٍ عالية وصادقة، رغم أن عينَيها كانتا دامعتَين ووجنتَيها حمراوَين، ونظرت إليَّ مباشرة. ثم مدَّت يدَها إلى حقيبتها لتُصلح بعناية ما دمَّرتُه من مكياجي. قالت مازحة: لقد تحوَّل مكياجك إلى كارثة! لكنها أعادتني إلى حالتي الطبيعية في لحظة.

في المقصورة معنا، كان هناك زوجان في منتصف العمر وشاب آخر؛ جميعهم من الشمال، بشعر أشقر وباردون، ولم نتبادل معهم أي حديثٍ سوى التحية المُعتادة. لم ينخرطوا في ضحكاتنا ولا تعجُّبنا. وبينما كنَّا نجلس في أماكننا نُعلق على الأداء، كان الموسيقيون يضبطون آلاتهم، فتصدُر تلك الأصوات غير مُلحنة، التي عادة ما تخلق أجواءً سحريةً خاصة بالحفلات والعروض. فصوت الكمان الذي يبحث عن الانسجام يُعطي شعورًا بالانتظار وبدايةً وشيكة، مما يزيد من الإثارة ولا يُزعج على الإطلاق، على الرغم من أنه ليس موسيقى حقيقية.

إلَّا أنَّ ما أزعجني حقًّا، أو بالأحرى أثر في أعصابي، كان ذلك اللحن القصير على البيانو. أعتقد أن أحدًا لم ينتبِه إليه وسط الضوضاء وصوت آلات الكمان التي تبحث عن

الانسجام، ولكنَّني سمعتُه بوضوحٍ وكأنه سهمٌ اخترق قلبي. لم تكن سوى بضع نوتات، ربما مقطوعة موسيقية قصيرة، لكنها كانت كافية لتجعلني أقفز من مكاني كالمجنونة سألتني نورا عما حدث، فلم أجد جوابًا سوى أنني قلت: بابلو هنا!

فتلك هي النغمات الافتتاحية للحن الذي أَلَّفه لي، والذي لم أسمع نهايته أبدًا لأنه لم يُنهِه عندما افترقنا. لكن ظل اللحن محفورًا في ذهني، يُؤرِّقني ليلًا أحيانًا، يُذكرني بأنَّنا أحبَبْنا حقًّا وأنني لم أكن مُخطئة. هو وحدَه يعرف هذا اللحن. آه! الموسيقى والحب! ما أجمل هذا الاقتران! لا بد أنه هنا. سأذهب!

– أين تذهبين؟

هكذا سألتني نورا، محاولةً إيقافي، وسط الوجوه الشقراء الجامدة لرفاق المقصورة.

– بابلو هنا، نورا، هل تفهمين؟ لقد ناداني، أراد أن أعرف، يجب أن أجده!

هُرِعتُ دون أن أعرف وجهتي، وكانت فترة الاستراحة على وشك الانتهاء. بدافع الغريزة، حاولتُ الوصول إلى الأوركسترا، لأن اللحنَ جاء من هناك. أخذتُ أركض كروحٍ مُعذبة وسط نظرات الناس الغاضبة الذين بدءوا في العودة إلى مقاعدهم. دفعت بعضهم عن غير قصد، كنتُ أرتدي حذاء بكعبٍ عالٍ، كنتُ أتحرك بشكل سيئ، ولكن بسرعة، دون أن أعرف كيف أصِل إلى الموسيقيين. توقفتُ فجأة، فقد تذكرتُ أنه بما أنه لم يعزف سوى بضع نوتات، فربما انتقل إلى مكانٍ آخر، وربما كان يبحث عني أيضًا … لكن دار الأوبرا في القاهرة واسعة للغاية، وفي تلك الليلة بدت وكأنها متاهة خطيرة. كنتُ أشعر بالذُّعر الذي يُشبِه نوبات الهلع مع كلِّ لحظةٍ تمر. خفت الأضواء، ودعونا للعودة إلى مقاعدنا بسرعة. لم أستطع العودة إلى مقعدي وكأن شيئًا لم يكن. هل كان كلُّ هذا يحدُث بالفعل أم أنني كنتُ أحلم بسبب مزيجٍ غريب من النغمات؟ شعرتُ بالغباء واليأس والسعادة في الوقت نفسه، ولكن الأضواء خفَّت ودعاني موظفو المسرح للعودة إلى مكاني.

كان الرد الأكثر واقعيةً واطمئنانًا الذي يُمكنني تقديمه لنفسي هو أنني أخطأتُ، وأن بابلو لا يمكن أن يكون هنا. لو أراد رؤيتي أو لقائي لفعل ذلك بطريقةٍ أكثر «تقليدية» وآمِنة من خلال الأصدقاء المشتركين.

عُدت إلى نورا، واستؤنِف العرض، وهدَّأتني الموسيقى كما تُهدئنا القطة الحنونة، وشعرتُ وكأنني جزءٌ من هذا العالم العاطفي الذي يُعاني ويُحب في نفس الوقت. وعنوان العرض «الموسيقى المفقودة والعائدة» يحمِل في طيَّاته نهايةً سعيدة، حيث فقد جواكينو روسيني مُلهمته ثم وجدَها في أنجيلينا التي ألهمت أوبرا «سندريلا». وانتهى العرض

بـ «نخب» من ترافياتا، كأنه نشيد للحياة والحُب المنتصِر، وأخذت هذا النخب كأمنيةٍ طيبة، وشعرتُ بحرارة في يدي كما أشعلَتِ الموسيقى قلبي. أما الشماليون فقد شاهدوا عرضًا مجانيًّا داخل العرض ولم يُدركوا ذلك.

خرجنا أنا ونورا صامتَتَين، تستند كلٌّ منا على ذراع الأخرى حتى لا نتعرقل بالأحذية ذات الكعب العالي على أرصفة الزمالك غير المُستوية. واستقللنا أول سيارة أجرة مُتجهة إلى المنزل. ولكنني لم أكُن أرغب في البقاء في المنزل، فقد عُدت إلى القاهرة، المدينة التي لا تنام أبدًا، وكنتُ أشعر بحماسةٍ لا توصَف. غيَّرنا ملابسنا وخرجْنا مرة أخرى.

كنتُ سأعرف طريق خان الخليلي، حتى لو مُغمَضة العينَين. الجسر العلوي ورائحة التوابل النفَّاذة دلَّاني على أننا وصلنا. أتذكَّر جيدًا ذلك المزيج من الروائح القوية التي تُغطي التلوُّث والغبار وتأخُذنا إلى تلك الزاوية السحرية من القاهرة، حيث الشوارع الضيقة المُتشابكة مثل المتاهات، المُزينة بالذهب والأقمشة الملوَّنة والبرديَّات والهدايا التذكارية، والسياح والحشود البشرية.

ذهبنا إلى قهوة الفيشاوي، ذلك المقهى العريق الذي زاره العديد من الكتَّاب والشعراء، وهو مكان كلاسيكي حيث يشرب مُرتادوه الشاي بالنعناع ذو المذاق القوي، ويُدخنون الشيشة بنكهة التفاح فتفوح رائحتها وتُغطي المكان بضبابٍ أبيض، وتعكس المرايا الضخمة على الجدران هذا الدخان ممزوجًا برائحة النعناع والحياة النابضة.

هناك، اختلط ارتباكي الداخلي بكلِّ شيءٍ آخر ووجد توازُنه. كان فقط البقاء في هذا المكان، ولم يكن ذلك مُمكنًا، ولكن الفترة القصيرة التي قضيناها كانت حلوةً كالمرجوحة، مُهدئة وعذبة. حتى الزمن، على طاولات الفيشاوي، يتمدَّد ويأخُذ قسطًا من الراحة. تمكنتُ من نسيان المسرح، وقبلتُ هذا الحاضر المِثالي ونمتُ ليلة هادئة.

في ليل حالك، يُرفرف شبح مُتلألئ، يرتفع ويفرد جناحَيه
على البشرية السوداء اللانهائية.
يستدعِيه العالم أجمع ويتوسَّل إليه.
لكنَّ الشبح يتلاشى مع شروق الشمس، ليعود ويُولد في القلب.
يُولد كلَّ ليلةٍ ويموت كلَّ يوم.

جاكومو بوتشيني

ثم رحلنا إلى الواحات.

قضينا أنا ونورا أيامًا هادئة، نتحدَّث بِحُرية، نسترجع الذكريات، نضع افتراضاتٍ وحسابات ومشاريع، ونضحك كثيرًا! كم كنتُ بحاجةٍ إلى الضحك وتخفيف آلام قلبي! ما أجمل الأصدقاء! وكانت المفاجأة السارَّة هي لقاء صديقي أمير، «أمير الصحراء»! أخبره عبد الله بأنني سأكون في الواحة البحرية فجاء من سيوة لرؤيتي. شعرتُ بسعادةٍ غامرة! حاولتُ ألا أتحدَّث عن بابلو، لكنَّه نظر إليَّ ذات مساء وقال: «ذلك الموسيقار ... هو الوحيد الذي وجد زرزورة ثم تركها تذهب ...» شعرتُ بقشعريرة، لكني حاولتُ التقليل من الأمر قائلة: أمير، أنا متأكدة أنك فعلتَ الشيء نفسه ... أنت تعرِف أين تقع زرزورة، أعلم ذلك، إنها تلمع في عينَيك، ومع ذلك لا تكشف عنها، لا تكشف عنها للجميع ... هكذا تكون لك وحدَك، ولكن يمكن للجميع أن يحلموا بالعثور عليها بين الرمال، وأن هذا مُمكن حقًّا.

وأدركتُ وأنا أتحدَّث أن ما قُلته ينطبق عليَّ أيضًا: يمكن لشخصٍ آخر أن يفوز بقلبي، على الرغم من أن بابلو يحتفِظ بي في قلبه. ابتسم أمير دون أن يقولَ أيَّ شيء. استلقَينا على ظهورنا لنستمع إلى أنفاس الأرض وننظُر إلى النجوم، وتحوَّلنا إلى رمالٍ ونجوم ... وشعرتُ حينها أنني شُفيتُ تمامًا، شُفيتُ من كل شيء، وأصبحت ذرةً من الكون في انسجامٍ تامٍّ مع الطبيعة.

عُدنا إلى القاهرة ونحن نشعر بالراحة التامة، على الرغم من طول الرحلة. نوم هانئ ووجبة إفطار شهية أزالا كلَّ أثرٍ للتعب، وبعد ذلك حان الوقت للقيام بالمهام العملية: فرز الأشياء والاحتفاظ بما أُريد، وتوزيع ما سأتركه على أصدقائي، سواء كان مُقتنيات أو ملابس. كانت مُهمة صعبة بالنسبة لي. فأنا أريد الاحتفاظ بكلِّ شيء، أريد نقل عالمي المصري الصغير إلى إيطاليا، أكوابي، سجَّادتي، إبريقي، ستائري، مصابيح الطين الجميلة التي اشتريتُها من أفران الفسطاط ... كل شيء، أردتُ أن آخُذه معي، على الرغم من أنني سافرتُ كثيرًا وأعرف من التجربة أن أيَّ شيءٍ «ننقله» يفقد سحرَه، وأن الحنين لا يزول بالأشياء، بل بالعكس. حتى الشاي لا يملك المذاق نفسه عند نقلِه، على الرغم من أن الفارق الوحيد هو الماء. قالت لي نورا مازحة: وهل المياه شيء هيِّن؟ في إشارة إلى اسمي الذي يعني «ماء»، وأكملَت: المياه تصنع كل الفرق! ثم غمزت لي صديقتي الحنونة، ذلك الجزء الخاص بي الذي سيبقى في مصر. أحببْنا بعضنا البعض كثيرًا وما زِلنا، ومعرفتي بوجودها في مصر يعني وجودي أنا أيضًا قليلًا، وهذا يُريحني كثيرًا. تكبُرني نورا بسنةٍ واحدة فقط،

لكنها أكثر حكمةً وعملية، كانت تعيش بمفردها منذ خمس سنوات، وتعتمد على عملها. تعيش أُسرتها القبطية المُتديِّنة في حيٍّ بعيد جدًّا عن المدينة، يُسمى «ستة أكتوبر» بالقُرب من عمل والدها، لكنها فضلت الدراسة في الجامعة الأمريكية ومن وقتِها عاشت بمفردها في الزمالك، تلك الجزيرة الراقية في القاهرة.

كنتُ أختار وأتذكَّر وأروي قصصًا. أضع الأشياء جانبًا، ثم أعود إليها، وأُفكر مليًّا. كانت نورا تُدللني، فتُعد لي أم علي والسحلب، وتقول لي إنني بحاجةٍ إلى التغذية جيدًا. وفي الصباح تُحضر لي طبق «القشدة-الكريمة» للإفطار، وهو أمر يستحقُّ في حدِّ ذاته الاستيقاظ من أجله. وبضعة أيام في مصر كانت كافيةً لزيادة وزني ثلاثة كيلوجرامات! صحيح، كان عليَّ العودة إلى إيطاليا، ولكن هذه الفترة كانت بمثابة نقطة تحوُّلٍ في شفائي، على الأقل جسديًّا.

بينما أستمتِع بكوب السحلب الكثيف والمُعطر، مزينًا بشرائح الموز والقرفة وبذور السمسم والمكسرات، وأنا جالسة على الأرض محاطة بالأمتعة والصناديق، تلقَّت نورا مكالمة هاتفية مفاجئة من ميدو. بالطبع، أجابت نورا على كلماته باللغة العربية، ولم أستطِع فَهم أنهم كانوا يتحدَّثون عنه. ثم قالت: «انتظر دقيقة، سأسألها.» وغطَّت سماعة الهاتف بيدِها وهمست لي بسرعة: «اسمعي يا مايا … كان بابلو في منزل ميدو الأسبوع الماضي، ربما عندما كنَّا في الأوبرا، وكتب لك رسالة، ولكنه ألقاها في سلَّة المهملات. وجدَها ميدو اليوم في السلة، وفهم أنها لك، وبالرغم من أن بابلو ربما لا يريد أن تعرفي، إلا أن ميدو يعتقد أنه من حقِّك أن تعرفي. ماذا أقول له؟ هل تُريدين الرسالة؟ هل أنت مُستعدة لذلك؟ لكنَّنا لا نعرف المكتوب فيها …

كانت هذه الكلمات سريعة لدرجة أنني احتجتُ إلى بعض الوقت لترتيبها في ذهني. مجرد سماع اسم «بابلو» كان كافيًا لإرباكي. ثم «رسالة»، «منزل ميدو»، «ألقاها»، «هل تُريدينها؟» أدركت نورا حيرتي وقالت لميدو: معذرة، لتصبر معنا قليلًا، سأتَّصِل بك مرةً أخرى.

ربما كانت تلك هي المرة الوحيدة في حياتي التي لم انتَهِ فيها من كوب سحلب. فقدتُ شهيتي فجأة، عندما تخيلتُ أن بابلو كان بالفعل في دار الأوبرا، وأنني كنتُ سأجده وأنا على وشك المُغادرة، ثم فكرتُ فيما قد كتبَه لي. بالطبع، ظننتُ أنه أخبرَني أنه خطب أو شيئًا من هذا القبيل، بالتأكيد لم تكُن أخبارًا جيدة، وإلا لما ألقي الرسالة. اتصلت نورا

بميدو وطلبت منه الحضور بأسرع ما يمكن لإحضار الرسالة، وكان لطيفًا جدًّا وأتى إلينا على الفور. كان قلبي يدقُّ بسرعة، لقد رآه، ويُمكنه أن يُخبرني كيف حاله، وما إذا كان يعمل، وما إذا كان يعيش في مصر أم في مكانٍ آخر. كنتُ متوترةً قبل أن أرى ميدو، ولا أستطيع وصف حالتي بعد أن قرأتُ الرسالة.

«كم كنتِ جميلة يا حبيبتي ... كنتُ أعرف أنني سأراكِ هناك، أخبرني جدِّي بذلك قبل أن أُغادر القاهرة لأذهب إليه في سيوة، ولم أستطع مقاومة ذلك. نظرت إليكِ طوال الوقتِ ورأيتُ في عينيكِ كل المشاعر. كان الأمر كما لو أن الموسيقى تمرُّ عبر جسدي لتصِل إليكِ، حاملة معها كل أفكاري. لم أستطع مقاومة الإغراء، وتوجَّهت إلى بيانو جانبي قابع في مكانه وكأنه يُناديني، وعبَّرتُ عن مشاعري لكِ في تلك النغمات القليلة. وأنا أعرف أنها وصلتك، بل ومتأكِّد من ذلك، وتلك الثقة لوهلة، أشعرَتْني بأنني فريد في هذا العالم، ولكن في الوقت نفسه شعرتُ بالندم أيضًا لأنني خُنت وعدي بأن أتركك حرة ... حرة حتى في أن تنسيني. يا لحسنِ حظِّ الجالس بجوارك، فهو محظوظ لأنك منحتِ له قلبك: أتمنَّى أن يُدرك قيمة الكنز الذي منحَتْه إيَّاه السماء ليحرسه. وأتمنَّى لكِ السعادة أكثر، لأن أسوأ شيءٍ بالنسبة لي هو أن أعرف أنك حزينة. فتقديم الإنسان حياته لشخصٍ آخر لا يعني بالضرورة أنه يُحبه.

لكنكِ تبقين أول ما أُفكر به عند الاستيقاظ، كشمس الصباح، حمراء برتقالية في ضباب الفجر الساحر. أنت البداية والنهاية، وغروب أفكاري عندما يترك النهار مكانه لليل، مُفلتًا أصابع يدَيه الواحدة تلوَ الأخرى، ويُقبل عينيَّ النائمتَين، راقصًا على أنغام الموسيقى وعلى نبضات قلبي. مايا ... أنتِ حقيقية، لم تكوني مجرد حلمٍ في سراب سيوة، أنتِ تمشين على طرقات العالم نفسه الذي أعيش فيه، وتجعلينه مميزًا وغاليًا، مثل اللآلئ التي زيَّنت رقبتك في المسرح، مثل قطرات السيليكا التي سقطت من السماء لتُقبِّل رمال الصحراء الذهبية، مثل الماء الذي يروي النخيل ويجعل التمر حلوًا. كم كنتِ جميلة يا حبيبتي ...»

كانت تلك الرسالة المُمزقة بمثابة صدمة مطرقةٍ على رأسي. صحيح تألمتُ حيث إنني فقدتُ إمكانية رؤية بابلو في المسرح، لكنني صُدمت عندما علمتُ أنه اعتقد أنَّ الشابَّ الأشقر المُحنَّط الجالس بجواري هو رفيقي! بابلو يعتقد إذن أن رجلًا آخر في حياتي! لكن

كيف يُمكنني هذا؟ ألا يفهم حقًّا حقيقة مشاعري نحوَه؟ هل اعتقد حقًّا أنه يمكن أن تتغيَّر مشاعري بهذه السرعة؟ ولو لم يكن ذلك الشاب موجودًا هل كان سيُحاول الوصول إليَّ؟ أم سيكتفي أن نلتقي في ممرٍّ ما؟ لقد رآني، وكنتُ أستطيع رؤيته.

بدلًا من كتابة الرسالة، كان يمكنه الاتصال بي، أو إيقافي، أو العودة، كان يُمكننا أن نتحدَّث كشخصين بالغين، لكنه لم يفعل ذلك. وفي الوقت نفسه، وبكتابة تلك الكلمات التي اعتقد أنه تخلَّص منها برمْيِها في سلة المهملات، تمكن من وضع ختمٍ شمعيٍّ على قلبي، لأنه من الصعب نسيان محبوب لا يُريدني، ولكن من المُستحيل عمليًّا نسيان شخصٍ لا يزال يُحبني بهذه الطريقة، ولكنه يعتقد أنني أُحب شخصًا آخر. في ذهني، تحوَّلت أيامنا في سيوة إلى فيلمٍ أشاهده مرارًا وتكرارًا، وأتوقَّف عند أجمل اللحظات، عند العناق والقبلات، بما في ذلك القبلة الأخيرة، عندما لم أكن أعرف أنها ستكون الأخيرة. لا بد أن يعرف أنني لم أرتبط بآخر، وأنني لا أُحب سواه، لا بد أن أقول له إنني ما زلتُ أُحبه من كل قلبي! وهل يعني هذا أنه بينما كنَّا في الواحات البحرية كان هو في سيوة؟

وبدأتُ أعاتب ميدو، وأُمطره بالأسئلة التي لم يكن لدَيه إجابة عليها: فهو لا يعرف أين يعيش بابلو، أو إلى أين ذهب، أو إذا كان لدَيه رقم هاتف ... قال إنه عاد إلى خيوس وأنه مرَّ بالقاهرة فقط لزيارة جدِّه في سيوة. وقال إن زياراته دائمًا قصيرة. وأضاف إنه لم يُخبر بابلو أنه سيأتي إلى الأوبرا ولم يذكُرني له. بل ذكر إيليني، وخلال لقائهما القصير، كان ميدو هو من تحدَّث عن نفسه وعن دراسته للدكتوراه وخُططه المُستقبلية. في تلك اللحظة أدركتُ أنني أتعامل بقسوةٍ مع شابٍّ فعل كلَّ ما في وسعه من أجلي، أي إنه أحضر لي الرسالة.

فهل عاد إذن إلى إيليني؟ وما الهدف من مجيئه إلى الأوبرا لرؤيتي وأن يُسمِعني لحنَنا؟ هل لا يزال مُقتنعًا برغبته في الانفصال عنِّي كما أعلن منذ تسعة أشهر؟

أحيانًا تنتهي قصة حُب بليلةٍ من العشق بدلًا من كلمة «النهاية»، وعلى الرغم من حلاوتها وسموِّها، إلا أنها تُشبه طعنة سكين بطيئة، مثل الموت الذي لا يستطيع أن يكتمِل، وكأن الروح تريد أن تموت والجسد يصِرُّ على البقاء على قيد الحياة، يُعذبها حتى لا يتركها تموت.

هل أتمنَّى لو لم أعِش تلك القصة؟ هل أتمنَّى لو عدتُ بالزمن شهرًا إلى الوراء لأتجنَّب عبور تلك العتبة، وكشف ذلك السر؟ لا، لا يُمكنني أن أشعر بالندم. بل سأشعُر بالندم طوال عمري لو لم أقبل هذه الدعوة الجميلة للوقوع في الحُب في تلك اللحظة بالذات.

لفترةٍ طويلة، استمرَّ جسدي في العيش بينما كانت روحي مُمزقة ومُحطمة. ظلَّت جروح روحي تنزِف لفترةٍ طويلة، حتى تحوَّلت إلى ندبةٍ جميلة، أصبحت جزءًا لا يتجزَّأ منِّي، أساسيًّا كالصخرة التي تقوم عليها حياتي، واعتمدتُ عليها كلَّ لحظةٍ من حياتي، حتى إنني حاوطتُها وحاولتُ حمايتها، وتجاوزتُها في كل علاقةٍ جديدة، وفي كل شعورٍ جديد. لا أعرف كم من دموعٍ سقت تلك الزهرة، ربما قدْرَ نهر النيل في موسم الفيضان. ولكن كما يجلب النيل الحياة إلى الأرض، جعلت دموعي ذلك الحُب خالدًا، على الرغم من أنه أصبح ذكرى. لهذا السبب، لا يزال الحديث عن ذلك يؤثر بي كثيرًا؛ فأنا أحكي عن ولادة جزءٍ منِّي لا يزال حيًّا، رغم كلِّ شيء، ولا يُؤلمني كثيرًا، رغم كلِّ شيء.

في البداية، كانت شظايا تلك التفجُّرات الساحرة تغرس نفسها في جسدي، وكان غياب بابلو أمرًا لا يمكن تصوُّره بالنسبة لي، كنتُ متأكدة من أنه سيعود. كنتُ أنتظِر أن أراه مرة أخرى، وأن أسمع صوته عبر الهاتف، وأن أتلقَّى رسالةً أو خبرًا، أو حتى رسالةً من حمامٍ زاجل. كنتُ أعتقد أنني سألتفتُ وأجدُه هناك، بابتسامته الحزينة ونظراته العميقة ... كثيرًا ما شعرتُ برائحته، وسمعتُ صوته يحمِلُه لي الريح، لطالما شعرتُ بقربه، كنتُ أومن أنه لا يُمكن أن يتحوَّل كل هذا إلى لا شيء في لحظة، في يوم، في عام. لم يكن ميتًا، إذن كيف يمكن أن يختفي هكذا؟ لا، لم أُصدِّق ذلك، لم يكن منطقيًّا. ربما أقنَعَه كلامه في تلك اللحظة، ولكنه بالتأكيد يفتقِدني، وبالتأكيد فكَّر فيَّ كثيرًا وأنه بالتأكيد سيعود ... فهو يعرف، بل يجِب أن يعرف أنني سأرحِّب به، لا بدَّ أنهم قالوا له إنني لم أكن مع ذلك الأشقر البارد، لا بدَّ أن يتخيَّل أنني لم أُصدِّق أنه تركَني، وأن يفهم أن ما بيننا أقوى من أن ينتهيَ بهذه السهولة. ولهذا انتظرت. وخلال الانتظار، عشتُ حياتي.

كنتُ أستيقِظ في الصباح سعيدةً بأمل يومٍ جديد، وكل دقيقة كانت تمرُّ أسرع، لأنني كنتُ على يقينٍ بأن لحظة رؤيته تقترِب. كنتُ آكُل، أعمل، أسير في الشارع، في المترو، في الزحام، تحت جسور تيفيرى، في منزلي ... كل شيءٍ كان يبدو مختلفًا بعد سيوة وبعد بابلو، وكل شيءٍ خافت، يترقَّب. وفي المساء، أنظُر إلى السماء قبل أن أنام، وأُرسِل نداء صامتًا إلى النجوم، متأكدةً أن تلك السماء تراه أيضًا، ويومًا بعد يومٍ زادَ صمتُه والفراغ وأصبَحا أكثر ألمًا ويأسًا. بإمكانه أن يَجِدَني لو أراد، فلدَيه عنواني في روما، ومعارف يُمكنه أن يسألهم، لكنه لم يفعل. كنتُ أتصل بعبد الله بين الحين والآخر، وأسأله لو عاد بابلو إلى سيوة، أو لو ذكَر جدُّه شيئًا عنه، أو لو ظهر أحدُ أفرادِ عائلته. يقول إنه يذهب إلى هناك أحيانًا، ويبقى لبضعةِ أيام، لكنهم يعرفون ذلك بعد أن يرحل. كان أشبَهَ بالشبَح، اختفى. كنتُ أتذكر

العاصفة الرملية البشِعة، واللحظة التي بدأتُ فيها أرى خيالَه وسط تلك الدوَّامة المظلمة، شعرتُ بالراحة والسعادة في تلك اللحظة، اختفت مخاوفي وعادت شجاعتي لمواجهة المِحنة. كنتُ أتخيل الشعور الذي سأشعُر به عندما أراه يعود، أو أتلقَّى رسالةً منه، أو يتَّصِل بي، أو تُخبِرني أُمي أنه بحث عني وأنها أعطتْهُ رقم هاتفي. كنتُ أُفكر في تلك اللحظة كثيرًا، وأحاول تخيُّل تفاصيلها، وعندما يرنُّ الهاتف، يقفز قلبي من مكانه. وعندما أفتح الكمبيوتر أشعر بقلبي يدقُّ سريعًا وأنا أبحث عن اسمه بين الراسلين.

كنتُ أتابع برامج كلِّ حفلات البيانو في أوروبا وخارجها، لكن اسمَه لم يكن يظهر بين العازفين. مرَّت الشهور ثم السنوات، واستبدلت بالثقة الأمل الأقل، ثم استسلم الأمَل للحقيقة ثم ترك مكانه للاستسلام، وطلبتُ ضارعةً النسيان لكي يُخفف من آلامي. أردتُ أن أنسى أنَّني وضعتُ أمَلي في ذلك الأمر وأنني انتظرت. وكما قلتُ لكِ يا شيرلي، وضعتُ حُبي كجوهرةٍ في صندوقٍ خفيٍّ في روحي، لكنَّني أُدرك أنه على الرغم من ذلك، لم يفقد بريقَه وقيمته، كالجمر الذي يحتفظ بالنار تحت الرماد.

هذه هي القصة بأكملها. ربما أفادني الآن أن أرويها لنفسي من جديد، كحكايةٍ من الحكايات التي أقرؤها في المكتبة في الأيام التي تحملني فيها الرياح من البحر حُزنًا. أحيانًا يبدو أن الأمواج تصِل إلى الشاطئ حاملةً حزنًا خفيًّا، بلا ضجيج ولا رغوة بيضاء، وكأنها أغنيةٌ حزينة. تدخُل نسمة هواء دافئة إلى المكتبة وتُداعب شعري. أُغلق عيني وأترُك الصفحات تتقلَّب بين يدَي. أنا سعيدة لأنني عشتُ حُبًّا كهذا، حبًّا لا يُحالف الحظ الكثيرين في العثور عليه، مثل لهيب شمعةٍ مهما كان قصير العمر، فإنه يبقى نارًا ونورًا.

«انتباه رجاءً! الركاب المُتجهون إلى القاهرة يُرجى التوجُّه إلى البوابة ٢١ لتلقِّي إشعارات مهمة!»

حانت ساعة الرحيل! هل كنتم تنتظرون أن أُنهي قصتي؟ لقد انتهيت، نحن مُستعدون، هل حان وقت مغادرة أحدِنا؟

ما زالت شيرلي مُشتتةً بسبب حديثي وتجد صعوبةً في فهم الأمر. وضع أنطونيو ذراعَه حول كتِفها ليُهدئها ويُعيدها إلى الواقع: «هناك طائرة قادمة من باريس بها حوالي أربعين مقعدًا فارغًا سنقوم بملئها نحن كبار السنِّ والآباء الذين لدَيهم أطفال صغار. ومِن المتوقَّع أن يُغادر الآخرون مع الرحلات الأخرى القادمة من فرانكفورت خلال ساعتَين.»

يا إلهي، ساعتان أُخرَيَان! يبدو أننا سنقضي ليلةً بيضاء وسنصِل إلى القاهرة في وقتٍ غير مناسب على الإطلاق. ولكن إذا صعد أصدقائي أنطونيو وشيرلي إلى الطائرة الآن، فسيمرُّ الوقت ببطءٍ شديد …

– لا تقلقي، لن ننطلِق على الفور: فالطائرة القادمة من باريس تتوقَّف في مكانٍ ما، وسيتعيَّن على الركَّاب قضاء ساعةٍ على الأقل في المطار. وأعتقد أن هذا سيستغرق وقتًا أطول لو لم تتزامن الرحلتان. أخبرَني أنطونيو الذي تابع كلَّ تفاصيل هذه الفوضى من الرحلات والتأخيرات.

شاهدنا مجموعةً كبيرة من الركاب يدخلون وهم يتحدَّثون بلهجةٍ فرنسية مُركبة وينظرون إلى ساعاتهم. ليس كلهم فرنسيين، فقد رأينا العديد من العرب والنساء المُحجَّبات وأمريكيين مُميزين … ورأيتُ شابًّا وسيمًا يرتدي بدلةً وربطة عنق، ذا بشرة سمراء وشعرٍ أشعث قليلًا، وعينَين عميقتَين … لقد لفت انتباهي! لكنني شعرتُ أنني رأيتُه من قبل! يا إلهي، هذا الوجه مألوف! قالت لي شيرلي وهي تنظر إليه بنظرة مُتواطئة: «شابٌّ وسيم، أليس كذلك؟» قلت: «نعم، بالتأكيد! لكن وجهه يبدو مألوفًا، لا أستطيع أن أتذكَّر …» وبينما كنتُ أنظر إليه، الْتقى نظري بنظره، وعقد حاجبَيه قليلًا كما لو أنه يُحاول تذكُّر شيءٍ ما، ثم ابتسم ابتسامةً واسعة أضاءت وجهه. قال: «مايا! أنتِ! نعم، أنتِ، لم تتغيَّري على الإطلاق!» قلت: «لا أُصدق! ميدو! ميدو! كيف حالك؟ ماذا تفعل؟ يا إلهي ما هذه المفاجأة! لقد مرَّ وقت طويل!» كانت شيرلي مصدومةً مِثلي، وقدمتُ كلًّا منهما للآخر. وبدا لي أن رحلتي بدأت للتو، على الرغم من أنني كنتُ في مطار ليوناردو دا فينشي! تحدَّثنا باللغة الإنجليزية، وشرحنا له الموقف، وعرف أنه سيُغادر مع صديقيَّ على متن الطائرة نفسها، وذهب أنطونيو بالفعل ليضع الأسماء في قائمة ركاب المجموعة الأولى مُمسكًا الجوازات بين يدَيه.

– لا بدَّ أن أنتظِر تلك القادمة من فرانكفورت، ما زال أمامي بعض الوقت. سعيدة جدًّا أنني رأيتُك! أراك في أحسن حال.

كنتُ أشعر بأنني في أرضٍ محايدة، كان يُمكنني أن أُعانقه على الفور، فقد كنتُ بالفعل سعيدةً جدًّا لرؤيته، ولكن حتى إن «كنتُ ألعب في أرضي»، فهو لا يزال شابًّا مصريًّا مُسلمًا، ولا بدَّ لي من أن أتحفظ. سألني إذا كان أنطونيو وشيرلي أبويَّ، أهزُّ رأسي نفيًا، وأشرح مأساتنا الصغيرة. يطلب منِّي أن أنتظره لحظة. يتوجَّه نحو منضدة الإقلاع، وأراه يتحدَّث مع موظفٍ في الشركة يبدو فرنسيًّا. يُشير إلى التذكرة وينظر للساعة، يتناقش

الموظف مع زميلٍ له سريعًا. يبتسِمان، ويستدعِيان شخصًا يبدو مُهمًّا ويبدو متوترًا. يبتسم هو أيضًا، ويشدُّ على يدِ ميدو. يبدو الجميع مسرورين، وأشعر بفضول. عاد ميدو إلينا وهو يبتسِم ابتسامةً عريضة تُناسب بدلته الزرقاء الأنيقة. قال: «كل شيءٍ على ما يُرام، مايا، سأنتظِر معكِ: لقد طلبتُ تغيير مقعدي إلى رحلةٍ أخرى، وكان هناك رجل مسافر إلى القاهرة على عجلةٍ من أمره ولم يتمكَّن من الحصول على مقعدٍ في الرحلة الأولى، فرحَّب بالفرصة. سننتظر معًا وسنسافر معًا، وآمُل ألَّا يُزعجك ذلك!» قلت: «يا إلهي! هذا تصرُّف لطيف جدًّا! شكرًا لك، أنا سعيدة جدًّا بذلك».

أشعُر بالارتباك. لا أزال أُحاول فهم مكان ميدو في كل هذه المشاعر. لم أتوقَّع أن أراه، ولا أستطيع فصلَه عن ذكرياتي لكي أراه كما هو الآن: حاضرًا ولطيفًا، وجميلًا ونشيطًا، يرغب في البقاء معي لفترةٍ أطول. قادمًا من باريس، أنيقًا ورجلًا. طالما كنتُ أنا من يحكي قصتي لعمِّي ميكيله أو للسيدة شيرلي، كان الأمر كله وكأنه صوتٌ يخرج من خزانة مُغلقة مليئة بالمعاطف. أما الآن فقد انفتح باب الخزانة وخرج صوتي بصوتٍ عالٍ. كان هو هناك، وقد رأى وسمِع وعرف كل ما مررتُ به، وكان صديقًا لبابلو. أنظر إليه الآن وأتساءل كيف لم أقَع في حُبه من قبل.

أنظر إليه وأريد بشدة أن أسأله عن بابلو. قال لي: هل نذهب لتناول العشاء؟

نظرتُ إلى شيرلي وعانقتْني بقوة وقبَّلتني وقالت: اذهبي يا عزيزتي، سننتظرك هناك، وسنستقلُّ الطائرة قريبًا. أنا سعيدة لأنكِ لستِ وحدَك هنا، وأنكِ لن تَصِلي إلى القاهرة في منتصف الليل أو في وقتٍ متأخر. لقد كان هذا حظًّا سعيدًا! أتمنَّى لكِ كل الخير. سأراكِ في مصر، إن شاء الله.

قلتُ لها: شكرًا لكِ يا سيدتي شيرلي، لقد كان من دواعي سروري أن ألتقيكِ. رحلة سعيدة، وسأراكِ قريبًا.

وقمتُ بتقبيلها مرةً أخرى وشددتُ على يدِ أنطونيو، ثم افترقنا.

شعرتُ بالارتباك. أريد أن أعرف كلَّ شيءٍ عنه، عن حياته، عن سبب وجوده هنا. أريد أن أسأله عن بابلو، لكنَّني خائفة من أن أُفسد اللحظة. أريد أن أستمتِع بكلِّ دقيقةٍ معه.

يبدو ميدو مُشرق الوجه، وأنا مليئة بالأسئلة. قال لي: تعالي، لنبحث عن مطعم. لم أُرد أن أُزعجه، كان من الواضح أنه يستمتع بدور فارس، وأنا أيضًا كنتُ سعيدة بالجلوس والاسترخاء قليلًا. كان هناك الكثير من الضوضاء والأضواء. شعرتُ بالتعَب، لكن هذا كان مجرد بداية لِما ينتظرني في القاهرة.

سألَني: كيف حالك يا عزيزتي؟ منذ متى وأنتِ لم تذهبي إلى القاهرة؟ وكيف حال عائلتك؟

قلتُ له: لقد غادرتُ مصر منذ عشر سنوات، أتذكُر؟ التقَينا في ذلك الوقت. ولم أعُد إليها منذ ذلك الحين. يُمكنني القول إن حياتي تغيَّرت تمامًا.

قال بفخر: نعم، أعرف! أنا أيضًا، منذ أن بدأتُ العمل، تزوَّجتُ، وانتقلتُ إلى بلدٍ آخر ... وأصبحتُ أبًا أيضًا!

ولكن هناك شيءٌ ما لم أفهمه.

قلت: تَهنئتي! إذن أنت تعيش في فرنسا؟

قال: نعم، أعيش في باريس، وأعمل مُحاميًا. لكنَّ زوجتي مصرية. الآن أنا ذاهب لزيارة والديَّ، فأبي مُسن، وأزوره كلما استطعت. وأنتِ، ماذا عن زوجك؟

ابتسمتُ وأخفضت عينيَّ: لا، لست متزوجة.

– لقد تغيَّرت حياتي، نعم، بمعنى أنني توقفتُ عن السفر حول العالم. التقَينا آخِر مرة عندما عدتُ إلى القاهرة لترتيب بعض الأمور. لقد شُفيتُ من الالتهاب الرئوي الذي حرَمني من العمل في المنظمة غير الحكومية، ثم استقررتُ في مكانٍ على البحر في إيطاليا، وأعمل في مكتبة أعمامي. أشعر بالسعادة، حياة هادئة وهواء نقي ...

وبينما أتحدَّث أشعر بأنني مُملة وغير جديرة بالاهتمام. كل ما فهمه ميدو هو:

– أوه ... فهمت ... فالزواج لم ينجح؟ متى حدث ذلك؟ ولكن لربما كنتُ أعرف هذا بالفعل ...

لماذا يُصر على هذه القصة عن الزواج؟ أنا لستُ كبيرة في السن لدرجة يفترِض فيها أنني متزوجة!

قلت: لا، ميدو، لم أتزوَّج قط. هيَّا، لدي الوقت الكافي للزواج، أليس كذلك؟ هل أبدو عجوزًا؟

قال: لا يا مايا، أنتِ جميلة كما كنتِ دائمًا، لم تتغيَّري على الإطلاق ... لكنني كنتُ أعتقد أنك تزوجت!

سألته: من أخبرَك بذلك؟

أجاب: أخبرَني بابلو بذلك، أعتقد. ثم ربما أخبرَني أيضًا أنكِ لم تعودي كذلك؟ لا أتذكَّر بالتحديد ...

شعرتُ بالغضب الشديد. تساءلتُ كيف يُمكنه أن يقول مثل هذا الشيء؟ كيف يُمكنه أن يربط بيني وبين رجلٍ آخر هكذا؟ شعرتُ بالإهانة. حاولتُ أن أتحكَّم في غضبي وطلبتُ بعض الطعام، رغم أنني لم أشعر بالجوع.

قلتُ له: كيف يُمكنه أن يقول هذا، هو أو أي شخصٍ آخر، بما أن هذا لم يحدُث أبدًا؟ وأنا أُمسك بالمنديل بيدي وأحاول كبح غضبي.

قال: ولكن عندما زرتِ القاهرة آخِر مرة بعد مرضك، ألم تكوني مع شاب؟ من شمال أوروبا، أعتقد ... ألم تكونا معًا في الأوبرا؟

تذكرتُ الرسالة المُمزقة التي تركها بابلو، وربما قرأها ميدو وفهم الأمر خطأ ...

قلت: بالطبع لا! من أين أتيتَ بهذه الفكرة؟

كان الرجل الذي كان معي في الأوبرا مجرد صديقٍ لنورا، وكنَّا خمسة أشخاص في ذلك المكان ...

قال: أوه! اعتقدتُ أن الأمر كذلك، لأن بابلو أخبرَني بذلك عندما رآكِ في إيطاليا، عندما كنتِ في المُستشفى.

قلت بغضب: ما الذي تتحدَّث عنه؟ بابلو لم يزُرني في إيطاليا ولم يرَ أي رجلٍ معي لأنني لم أكُن مع أي رجل، لا في المستشفى ولا في أي مكانٍ آخر!

هل يسخر منِّي؟ هل يمزح معي؟ كانت هذه مزحةً شديدة السخافة منه؟ لم أعُد متأكدةً من أنني مُستمتعة بصحبة هذا الشاب الوسيم الذي يستمتع بالسخرية منِّي. بل وسنجلس متجاورَين في الطائرة. أو على الأقل، هناك احتمال كبير أن يحدُث هذا.

قال: هدِّئي من روعك، هدئي من روعك! لا أعرف ... اعتقدتُ أنكما عاودتُما الاتصال. لم أتحدَّث مع بابلو منذ سنوات، بالتحديد منذ أن ذهبتُ لأعيش في باريس، ولكن كان هو الذي حكى لي تلك القصة عندما تقابلنا في إحدى تلك المرات الأخيرة. ولكنَّني لم أُخبره قط أنني وجدتُ الرسالة وأعطيتُها لكِ لأنني لم أجد الشجاعة لأفعل ذلك.

قلتُ له: اعذُرني يا ميدو، هل يُمكنك أن تُخبرني بالتحديد ما قاله لك بابلو؟ لأنني بصراحة، أحببتُه أكثر من أي شخصٍ آخر في حياتي، وهو أحبَّني أيضًا.

– بالطبع أعرف ذلك.

– لكنه تركني فجأة دون سببٍ واضح، واخترع أعذارًا لم أُصدقها أبدًا. لقد عانيتُ كثيرًا. انتظرتُه وبحثتُ عنه، واستمررتُ في حُبه، وفي النهاية استسلمت. لكن ما تقوله الآن يجعلني أشكُّ في أن هناك شيئًا ما لا أعرفه.

قال: ربما كانت آخِر مرة أرى فيها بابلو، بعد أن رحلتِ أنتِ بسنة. اتصل بي كما يفعل دائمًا عندما يكون في مصر لزيارة جدِّه. ذهبنا في نزهةٍ بالسيارة في صحراء سيوة، وكان معنا أسامة أيضًا. كانت رحلة مُمتعة ... أفتقد تلك الأيام.

يُفكر قليلًا في الماضي، كما نفعل جميعًا عندما نتذكَّر أيام شبابنا. نعم، ما زلنا نحن نفس الأشخاص الذين كانوا يستمتعون بالانزلاق على الكثبان الرملية الذهبية، ثم نجلس حول النار نشرب الشاي ونحكي القصص، كنَّا أحرارًا، بعيدًا عن قيود الوقت والمكان. أحرار لنتخلَّى عن الساعة والحذاء والملابس الأنيقة، دون خجلٍ من أن نُغني بأعلى صوتٍ تحت السماء. نظرت إلى ساعته الذهبية وربطته، ولكنني رأيتُ في عينَيه إثارة تلك الرحلات بالسيارة الجيب على الرمال وعثرتُ على الشابِّ الذي أعرفه. عاد ليتحدَّث من جديدٍ ونظرته ما زالت بعيدة.

– في سيوة، لم نستطع ألَّا نتذكَّرك عندما تَحدَّثنا عن العاصفة الرملية وعن الخوف الذي شعرنا به في ذلك اليوم. سأل أسامة إذا كان أحدُنا يعرف أي أخبار عنكِ، فقال بابلو إنك بخير وإنكِ ربما تعيشين في إيطاليا وإنكِ تزوجتِ وإنك لم تستطيعي الذهاب للعمل في فلسطين بسبب مرضك. فوجئتُ عندما سمعتُ أنه قال إنك متزوجة، فقد رأيتُك في القاهرة قبل عامٍ بعد مرضك ولم تُخبريني بشيء. لكنه أكد ذلك وقال إنه عندما علم بمرضك الشديد سافر على الفور إلى إيطاليا، وذهب إلى روما، ولا أعرف كيف عرف المُستشفى الذي كنتِ فيه، ربما بحث حتى وجدَك!

قلت بصوتٍ مُرتجف: ولكنه لم يحضر لزيارتي على الإطلاق!

– لكنه قال إنه وجدك، وأنه رأى رقم غرفتك وتوقَّف على بُعد بضعة أمتار من الباب لأنه رأى شابًّا أشقر يحمل باقة وردٍ حمراء يدخل الغرفة وهو يقول «صباح الخير يا حُب حياتي!» ولم يرَ ما بداخل الغرفة، ولكنه استنتج أن الورد كان لكِ، ثم رحل دون أن يظهر نفسه. ثم رأى الشابَّ الأشقر نفسه معكِ في الأوبرا، فكان متأكدًا من أنه زوجك.»

قلت: زوجي! بسبب باقة ورد! وكأنني كنتُ وحدي في الغرفة! كنا ثلاثة أشخاصٍ في تلك الغرفة! كيف يُمكنه أن يكون غبيًّا وجبانًا إلى هذا الحد. كنا ثلاثة في تلك الغرفة والورود لم يكن لي في ذلك الصباح! يا للهول ... ولكن هل تُصدق هذا؟ أتذكَّر هذا الصباح جيدًا جدًّا، ووصول خطيب تلك الفتاة زميلتي في الغرفة، أتذكَّر غيرتي منها، هي التي لم تستقبل بحماسٍ كبير باقة الورود. أتذكَّر كم كنتُ أشعر بالوحدة والحزن ... لا أستطيع أن أُصدق أن بابلو كان قريبًا جدًّا منِّي في تلك اللحظة.

يا إلهي، أقسم أنني على وشك البكاء. ولكن كيف يكون ردُّ فعل ميدو؟ ينفجر في الضحك. وأشعر بأنني أكرهه.

– لا يمكن؟ هل كان بالفعل خطيب تلك الأخرى؟ هاهاها! إذن، كنتُ أنا على حق، عندما قلتُ إن مَن كان في الأوبرا لم يكن على صِلةٍ بك! كم هو عنيد بابلو هذا، يا له من شخصٍ غريب!

مزقتُ منديلي الورقي تمامًا. يستمتِع ميدو بتناول ستيك الفلفل الوردي بينما لم أستطع تناول أي شيء. يبدو أنه لا يُدرك ما أشعر به. بل يبدو أنه يستمتع بمُعاناتي. لا يعرف كم عانيت، لا يعرف شيئًا. إنه شخصٌ غير متعاطف. وأنا هنا أعاني من انهيارٍ عصبي وهو يضحك. يجب أن أتنفَّس بعُمق وأهدأ وأُقنع نفسي أن كل شيءٍ كان مُقدرًا أن يحدث هكذا. يجب أن أكون هادئة.

قال: مايا، سامِحيني على الضحك، ولكن الأمر مُضحك جدًّا: شخص يسافر من اليونان إلى مصر ثم إلى إيطاليا، ويُنفق الكثير من المال، ويظهر وكأنه عاشِق شجاع، ثم يرتكِب مثل هذا الخطأ السخيف! ويعود دون حتى أن ينظر إلى عينَي حبيبتِه. لا أعرف، ولكن بمجرد أن قلتِ لي هذا وأنا شعرتُ برغبة في الضحك، ولكن الآن وأنت تحكين لي أن الخطيب لم يكن خطيبك، وأنه كان يُمكنه أن يدخل إلى غرفتك بكل هدوء، سامِحيني، أشعر برغبة شديدة في الضحك.

أمامي الآن حلَّان، إما أن أخنقه أمام الجميع أو أحاول أن أتعامل معه بكل أساليب الفلسفة التي عرفتها. أبتسِم ابتسامة خفيفة وأقول وأنا أنظر إلى شريحة اللحم التي قطعت منها قطعةً لأذوقها رغمًا عني: يبدو أن هذا ما حدث.

– مايا هل معقول أنك لم تفهمي قط؟ إذن فأنت عنيدة بعض الشيء مثله، لقد وقعتُ أنا أيضًا في حُبك في تلك الفترة.

– نعم!

فوجئتُ بكلامه بالفعل. لا بدَّ أن شريحة اللحم تلك لن تجد طريقها إلى معدتي بسهولة، ولا فائدة من ذلك! فتوقفتُ عن الأكل. قرَّر القدَر أن يضحك في وجهي واضعًا أمامي سلسلةً من المصادفات التي بدأت تساعد على توضيح الماضي المدفون، ماض مختلف عن ذلك الذي عرفته واجتررتُه إلى ما لا نهاية.

– نعم يا عزيزتي، أحببتُك، ولكنك لم تكوني حتى ترينني، فأنت لم ترَي سواه، وأنا لم أقُل لك ذلك أبدًا. ولماذا أقول؟ لم يكن هناك مجال للمنافسة. عادة أحصل على إعجاب

الفتيات دون أدنى مجهود، ولكنكِ أنتِ، أنتِ من أُعجبتُ بها، لم تنظري إليَّ حتى. أو ربما حقدتُ على النظرة التي بها اعتدتِ النظر إليه، تلك النظرة الحالمة والعاشقة التي نادرًا ما يراها المرء. أجل، ربما كنتُ أشعر بالحقد أكثر من الغيرة. فقد كنتِ جميلة جدًّا، وجمالك جمال طبيعي وبريء، مختلفة عن النمط المعتاد للغربيَّات الباحثات عن المغامرة! لم أفعل أي شيء، والتزمتُ مكاني، وعندما تركك بابلو، تقريبًا شعرتُ بالسعادة. كنتُ أعرف أن ذلك لن يجعلك متاحةً لي، ولكن شعرتُ بالتحسُّن عندما عرفتُ أن ذلك الكمال لم يؤدِّ إلى شيء. كل هذا الحُب! وماذا حدث بعد ذلك؟ كلٌّ منكما ذهب إلى حال سبيله. إذن، لم يكن الحُب ما يمكن أن يُعوَّل عليه في نهاية الحال. أو ربما لم يكن حُبكما حقيقيًّا.

– لا أعرف ماذا أقول لك. يؤسِفني هذا. لا يؤسِفني أنكَ عانيتَ من الحقد. ولكن يؤسِفني أن أعرف أنكَ لم تكن قادرًا على أن تُحبنا وتفرح لنا. على الأقل لبابلو، نظرًا لأنكما كنتما صديقَين. يؤسفني أيضًا أنه هو أيضًا اعتقد أنني مخطوبة أو متزوِّجة، ببساطةٍ لأن هذه لم تكن الحقيقة. ويؤسِفني أسفًا شديدًا أنني لم أرَه في روما، ولم أعرف حتى أنه أتى لزيارتي.

ثم لأنزع عن نفسي فضولي سألته: ماذا عن زوجتك؟ هل تُحبها؟ هل استطعتَ أن تفهم ما هو الحب؟

– بالتأكيد أُحبها! فهي شابَّة ماهرة، تطهو جيدًا جدًّا، تعرف كيف تعتني بالمنزل وكيف تُربي الطفل. تهتمُّ بي وبعائلتي، وهي أيضًا جميلة ورقيقة، مُتخرجة في الجامعة ووالدَاها مُثقفان.

– آه، فهمت إذن ... هذا هو حُب فعلًا. هل تعرف شيئًا يا ميدو؟ إذا أصبحتَ أنت سعيدًا يُصبح الجميع سعداء، لأنك أنت سعيد. أليس كذلك؟ فأنت لديك كل ما تتمنَّاه.

– أجل، الحمد لله. لديَّ كل ما يمكن أن أتمناه.

لم أعُد أستطيع أن أتحمَّل أكثر من ذلك. أرغب في الرحيل فورًا من هنا وأن أستوعِب كل تلك المفاجآت الجديدة. تتصل بي نورا قلقة.

– أجل يا صديقتي العزيزة! ما زلتُ في مطار فيوميتشينو، شيء عجيب، ولكن هذا ما حدث. أعتقد أنهم يتحدَّثون الآن عن الصباح الباكر ... نامي الآن، ولا تُفكري حتى في أن تأتي لتأخُذيني ... لا، أنا مُصرة، حقيقي! بعد قليل سأدقُّ جرس بابك ... هل تتذكَّرين ميدو؟ أجل، هو بنفسه. نحن مسافران معًا ... أجل، أجل ... أنا سعيدة. سأحكي لك فيما بعد. ليلتك سعيدة، يا نورا. شكرًا على المكالمة!

– نورا ... كيف حالها؟

– بخير، شكرًا. أشتاق كثيرًا لرؤيتها. سأتعرَّف أيضًا على خطيبها، ربما أعود مرةً أخرى إلى القاهرة لأحضر زفافها.

أخيرًا أبتسم وأستطيع أن أتطلَّع للمستقبل. أشعر بالألم من أجل هذا الشابِّ النفعي الذي لدَيه كل شيءٍ بالفعل، ولكن تنقُصه الحساسية والمشاعر النبيلة. على الأقل هذا هو الانطباع الذي تركه لديَّ. أشعر بالفعل برغبةٍ شديدة الآن للصعود على متن تلك الطائرة المباركة وأترك خلفي هذا المطار الذي أشعر أني قد قضيت فيه حياةً بأكملها!

– اسمع، إذا أردتَ يُمكننا أن نخرج من هنا، لن آكُل أي شيءٍ آخر، لم أعد جائعة، اعذرني.

كانت ذكرياتي رائعة. أحفظها عن ظهر قلب. كل حدثٍ فيها وكل حوارٍ وكل لحظةٍ من ذلك الماضي المُتبلور، تنتمي إليَّ. الآن يأتي هو، والذي كان في ذكرياتي رائعًا ومحددًا، ليجرح صورةً حتى يُشوهها، كما يحدُث عندما يصطدم حجر بلوحٍ زجاجي. كل هذا وقد تقابلنا للتوِّ! الصبر جميل، والاستمرار في العيش يتضمَّن أيضًا هذا. سأتعامل أيضًا مع هذا الموقف. أنا أيضًا أحطتُ نفسي بطبقةٍ من البلُّور. أقلعت طائرة شيرلي وأنطونيو منذ فترة، ونحن نُحاول معرفة ما إذا كانت الطائرة القادمة من فرانكفورت قد هبطت، وأي بوابة سنستقلُّها منها. أشعر بأنني مُستعدة بالفعل، حان وقت النمو.

أخيرًا حان الوقت! مررْنا بجهاز الكشف عن المعادن وصعدنا إلى الطائرة! كانت الساعة تقترب من العاشرة مساءً، وقد قضيتُ يومًا طويلًا في مطار ليوناردو دا فينشي. لم أحصل على مقعدٍ بجوار ميدو، كما توقعت، وكنتُ سعيدة بذلك. قررتُ أن أسترخي، شددتُ حزام الأمان، واستمعتُ إلى تعليمات المُضيفات، لقد مرَّ وقتٌ طويل منذ آخر مرةٍ استمعت فيها إلى هذه التعليمات! استندتُ إلى مسند الظهر وأغلقتُ عينيَّ للاستمتاع بالإقلاع بينما تبدو روما صغيرة جدًّا من الأسفل. فتحت عينيَّ مرة أخرى عندما ارتفعت الطائرة في الجو وأعلن الجرس أنه يُمكننا فكُّ أحزمة الأمان. وضعتُ سماعات الرأس واخترتُ الموسيقى الكلاسيكية، كما أفعل دائمًا. قدَّموا لنا المشروبات، وشعرتُ بتحسُّن، وتذكرتُ أنني لم أتناول العشاء. عادة ما تكون وجبات الطائرة غير مُستحبَّة، ولكن الأمر يعتمد على الحالة المزاجية. كنت مُتعبة جسديًّا، لكنني شعرتُ بطاقةٍ كبيرة داخلية.

– وجدتك.

– أهلًا ميدو ... بدأتَ تتجوَّل بالفعل.

كنت بخير، ولكن حضوره فجأة أزعجَني. أجلس بجانب النافذة والمقاعد بجانبي مشغولة، وآمُل ألا يبدأ بالحديث عن أمورنا الشخصية أمام هؤلاء الناس. لكنه بدأ يسألني: «أخبريني، ماذا قال لك بابلو في الرسالة الأخرى؟» بدأ محادثة حميميةً للغاية وسط الناس، وكأنني لا أريد أن أسمع! قلت: «أي رسالة؟ تلك الرسالة المُمزقة التي وجدتها وقرأتها وأعطيتني إيَّاها؟» قال: «لا، أعرف ما كان مكتوبًا فيها. لم تكن مُغلقة، وكانت في سلَّة المهملات في منزلي، لذلك كان من حقي أن أقرأها، أليس كذلك؟ لكنها كانت مكتوبة بالإيطالية، وأنا فرحتُ لأنني فهمتُ أنها لكِ! لا أقصد تلك الرسالة، أقصد الرسالة المغلقة.»

– لم أتلقَّ أي رسائل مُغلقة من بابلو. عثرتُ على ورقة مطوية في جيب حقيبتي عندما عدتُ من سيوة، ولم تكن في ظرف.

لا أريد أن أجيب وأنا أجيب في الوقت نفسه. علاوة على ذلك، أشعر بالغضب لأننا نتحدَّث عن أمور حساسة وهو يتحدَّث عنها بوقاحة شديدة. قال ميدو: لا، لا أقصد تلك الرسالة. أقصد الرسالة التي كان يجب على نورا أن تُرسلها إليك، إلى عنوانك في إيطاليا.

– نورا؟ لم ترسِل لي أي رسائل من بابلو! هل تمزح معي يا ميدو؟ هذا ليس مضحكًا. أرجوك، احترم مشاعري واتركني وشأني. بالإضافة إلى ذلك، نحن نزعج الأشخاص الآخرين هنا.

لا أعرف جنسيات الأشخاص الجالسين هنا، ربما هم ألمان. نحن نتحدَّث باللغة الإنجليزية، وبالتأكيد يفهمون ما نقوله، وهذا يجعلني أشعر بالحرَج أكثر. بدأ ميدو يُمسك ذقنه وينظر إلى نقطةٍ ما، وكأنه يحاول تذكُّر شيء ما: «أنتِ تعرفين، لا أتذكَّر إذا أعطيتُ الرسالة لنورا أم لا. ربما نسيتُ أن أعطيها إيَّاها.»

في هذه اللحظة، تمنَّيتُ لو أن هذا الأحمق يسخر مني، لأنه إذا كان صادقًا، فإن هذا يعني أنه بسبب خطئه لم أتمكن من معرفة الحقيقة كاملةً عن علاقتي ببابلو. أردتُ أن أقف وأخنقه، ثم أرميه على الأرض وأدوس عليه، وأُلقي به خارج الطائرة، هو وأي شخص يحاول الدفاع عنه. قبل أن يأتي كنتُ أشعر بتحسُّن حتى إنني أردت أن أتذوق العشاء الذي يبدو كالبلاستيك ولا يتمتَّع بأي رائحةٍ للشركة الألمانية، وها هو يأتي ليُشعرني بالاضطراب من جديدٍ ويقلب توازُني العاطفي.

– ما الذي تُلمح إليه يا ميدو؟ دعني أفهم بوضوحٍ ولا تمزح.

لا أريد أن أغضب بشكلٍ واضح حتى لا أعطيه الشعور بأنه يُمسك بزمام الأمور.

– مايا، سامِحيني، لا بد أنني نسيتُ الأمر. الآن، رؤيتكِ مرةً أخرى، والحديث عن بابلو ورحلتنا مع الشباب إلى سيوة، أعاد إليَّ هذه الصورة: هو يُعطيني ظرفًا ويقول لي أن أُعطيه لنورا لكي تُرسله إليكِ في إيطاليا لأنه لم يكن لدَيه عنوانكِ، وكان عليه البقاء في سيوة قبل العودة إلى خيوس، بينما أعود إلى القاهرة. أراد أن يصِل إليكِ في أقرب وقتٍ ممكن.

بدأتُ أصدق ذلك وأشعر بقشعريرة واضحة.

– ثم؟ سألتُ بإلحاح.

– ثم ... أعتقد أنني لم أعطِ ذلك الظرف لنورا أبدًا!

يقول بنبرة شِبه منتصرة، واثقًا الآن من وضوح ذاكرته التي عادت إليه.

– وتقول لي هذا بكل بساطة؟

– وكيف يجب أن أقول؟ تذكرتُ الظرف وفكرتُ أنك استلمتِه، لذلك سألتُك عن المكتوب فيه! مَن يدري أين وضعته ...؟

معذرةً، يجب أن أترك مكاني، مِن فضلكم اصبروا معي ... معذرةً. فهذه محادثة لا يمكن أن تستمرَّ وأنا جالسة في مكاني وهو واقف في الممر، واثنان من الغرباء في المنتصف.

يتراجع ميدو، أعتقد أنه بدأ يُدرك حالتي. بالتأكيد لا يمكن أن أضع يديَّ حول عنقه، ولكنني أريد بنظرتي أن أنقل له ذلك تمامًا.

– حاوِل أن تتذكَّر وأخرِج من هذا المخيخ غير المُفيد أين وضعت، منذ عشر سنوات، ظرف بابلو. انظُر، أُحذِّرك، سأفعل كارثة. كن حذرًا للغاية لأنني سأجعلك تدفع الثمن، وقد بدأَت بالفعل تتبادر إلى ذهني بعض الطرُق. هل كنتُ واضحة؟

آه لو رأتني السيدة شيرلي الآن! لقد تركتني مع ميدو وهي في غاية السعادة، لكن لو علِمَت بما يحدُث من هذا اللقاء، لكانت وقفت هنا بجانبي مسلحةً ببعض الأدوات الصلبة ونظرة تهديدية. يبدو الشاب أخيرًا في مأزق، وفي ممرٍّ طائرة لا يوجَد الكثير من المخارج. يبدأ في المشي للخلف نحو مقعدِه وهو يُتمتم: نعم، انتظري، سأُفكِّر الآن ...

وأنا أتقدَّم إلى الأمام، مُصمِّمة. الغضب يُساعدني على عدم الاستسلام لليأس. مِن المُمكن أن تلك الرسالة كُتبت بالأسلوب نفسه مثل الرسائل الأخرى، أي مليئة بكلمات الحُب ولم تكشف عن أي شيءٍ مُهم، لكن، حتى لو الأمر كذلك، أريد ويجب أن أحصل عليها. ربما كان ينتظر إجابة، ربما كان سيُخبرني أين أجِدُه، أو ربما سيسألني إن كنتُ حقًّا مع الأشقر. أيًّا كان ما كتبَه، من حقي أن أقرأه، لكنني لم أستطع بسبب هذا الشخص

السطحي والحسود الذي نام قرير العين بينما أُغرِق وسادتي بدموع الألم، جاهلةً بشيءٍ ربما كان مُهمًّا. لكنني لا أستطيع أن أتخيَّل أن ميدو قد أخفى الرسالة بنيَّة إيذائي. آمُل أن يكون الأمر مجرد نسيان حقيقي، ربما زلة فرويدية، لكن بحُسن نية. أُفضِّل أن أعتقد أنه أحمق ومُهمل بدلًا من أن يكون خبيثًا وشريرًا إلى هذا الحد.

– لا بدَّ أنها كانت بين صفحات كتاب، كتاب كان معي في سيوة وكنتُ أقرأه في تلك الأيام. ما هو، دعيني أفكر ... كتاب لنجيب محفوظ، ميرامار! من يدري؟ ربما لا يزال لديَّ، في بيت أهلي، إذا لم تأخُذه أختي معها ...

ومضة أمل.

– حسنًا. بمجرد وصولنا سآتي معكَ إلى بيتِ أهلكَ لتبحثَ عن ذلك الكتاب. أدعو أن يكون موجودًا.

– مايا، كوني عقلانية! سنصِل في منتصف الليل، لا يُمكنني أن أُحضر معي فتاة، ثم إن والدي ليس على ما يُرام، على أي حال، سيكون لدَينا وقت. كنتُ أفكر في أن أوصلكِ إلى فندق هيلتون لهذه الليلة، أو إذا كنتِ تُفضلين فندق فلامنكو، لتكوني قريبةً من بيت نورا، ما رأيكِ؟

– آه! أنتَ تتذكَّر حتى أين تسكن نورا! حيث كان من المُفترَض أن تُسلم الرسالة، أليس كذلك؟ ما الذي منعك من ذلك، يا ميدو العزيز؟ هل كان عليك أن تلعب الجولف في نادي سقارة الريفي؟ كنتَ مشغولًا؟ لن أتركك. هذه الليلة سآتي إلى بيت أهلكِ ولن أُغادر حتى نتأكَّد من مكان ذلك الكتاب.

– حسنًا يا مايا، اهدئي الآن. عودي إلى مكانكِ، أنتِ تُزعجين المارة في الممر، ألا ترَينهم يمرُّون بعربات العشاء؟ هيا، سنتحدث لاحقًا، حسنًا؟

لم يعُد يتصرَّف بتبجُّح، المحامي الذي يرتدي ملابسه والذي يتمتع بحياة مُرضية وكاملة. أعود إلى مكاني وأبتسم للسيدَين الجالسين بجواري واللذين يتزاحمان قليلًا ليسمحا لي بالمرور. حتى إنني أكلتُ تلك الأشياء الملوَّنة ذات الأشكال الهندسية التي يسمُّونها «عشاء» وشربتُ معها القليل من النبيذ الفوَّار الذي ساعدني على الاسترخاء قليلًا. يجب أن أعثُر على ذلك الظرف.

كان هذا اللقاء مصادفة ملحوظة. من الواضح أنه بمجرد أن نقبل تنشيط حياتنا مرةً أخرى، تأتي هي لمُلاقاتنا وتُعطينا دفعةً إضافية لكي نفهم أنها تُشاركنا.

أخيرًا بدأت عمليات الهبوط: ربطنا أحزمة الأمان بعد رحلةٍ هادئة للغاية. كنَّا نُحلق بالفعل فوق كيلومترات وكيلومترات من الأضواء الصغيرة التي تُحدد اتساع القاهرة، وكدتُ أتأثر بالاقتراب من هذه الأرض التي أشعر أنها أرضي والتي أعطتني الكثير. تأثرتُ لكن يجب ألا أغفُل عن ميدو: لا أريد أن يستغل الفوضى عند النزول ويهرب. ربما لا يتعيَّن عليه الوقوف في طابور فحص الجوازات وليس لدَيه حتى حقيبة ليستردَّها من السير المُتحرك، وقد يتمكن من مغادرة المطار قبلي. نعم، سيكون قادرًا على ذلك.

عند الإشارة التي تدلُّ على الإذن بفكِّ الأحزمة، قفزتُ على قدمي ونظرتُ أين هو. كان لا يزال هناك، عالقًا بين الأشخاص في الأمام. للخروج، يجِب عليه المرور من هنا، وسأُمسك به. رأيتُه محرجًا وكنتُ متأكدةً أنه فكر في الهروب دون انتظاري.

– ألستَ تُفكر في المغادرة بدوني ...

– لا لا، يا مايا ...

– حسنًا، هكذا ستُساعدني أيضًا في حمل الحقيبة. في هذا الوقت لا ينبغي أن يكون هناك الكثير من الطابور عند فحص الجوازات.

خرجتُ من الطائرة واجتاحني الهواء الدافئ الذي تفوح منه رائحة دخانٍ مثل كلِّ مرةٍ أصل فيها إلى مصر. ليس شيئًا مُمتعًا، ومع ذلك يُعجبني. لو لم يكن لديَّ هذا القلق الشديد، لاستمتعتُ بعودتي إلى القاهرة بشكلٍ مختلف.

لقد تجاوزنا الساعة الثالثة صباحًا، مع أخذ فارق التوقيتِ في الاعتبار. لحُسن الحظ، في أقل من نصف ساعة تمكنَّا من الخروج من المطار. عادةً ما كنتُ أصعد إلى الحافلة المُتهالِكة الأولى التي كانت تُقلُّني إلى المدينة مقابل ٤٠ قرشًا، لكن ميدو يتَّجِه مباشرةً إلى سيارة أجرة. وكسائر المصريين المُساوِمين، انتزع سعرًا جيدًا من سائق التاكسي، على الرغم من أن الوقتَ كان ليلًا. بالتأكيد لا يوجَد الازدحام المروري للنهار. لم أشعر بالنعاس، ومع ذلك غفوتُ على المقعد، حتى إنني عندما فتحت عينيَّ كنَّا بالفعل قريبين من وسط المدينة. يا له من شعورٍ رائع!

– أين قلتَ إنك ستقودنا؟

– إلى الزمالك.

– إذن لم تفهم!

رفعتُ صوتي. كان لسائق التاكسي ردُّ فعلٍ طفيف.

– مايا، لا يُمكنني أن أوصلكِ إلى أهلي في هذا الوقت!

– اسمع، سأسمح لك بهذا: لن أدخل معك. سأنتظِرك في التاكسي بالأسفل. ستصعد، وتبحث، وعندما تخرج ومعك ظرفي، سأُغادر. إذا لم يكن الكتاب موجودًا، وصادف أن أخذتْه أُختك، ستصعد أنت أيضًا ونذهب إليها. أعطِ العنوان لسائق التاكسي.

– سيطلب المزيد من المال.

– بالطبع. ستُعطيه إيَّاه.

فهم ميدو. ربما هو لا يخافني، لكنني آمُل أن يكون الشعور بالذنب هو ما يجعله يستسلِم. يشرح لسائق التاكسي أنه يجب أن يعود أدراجه، نحو جاردن سيتي، يجب أن ينتظِر بضع دقائق ويُعيدني إلى الزمالك. إذن هو متفائل، ولا يذكُر احتمال الذهاب أيضًا إلى أخته، وأنا حتى لا أملك الشجاعة لأسأله أين تسكن هذه الأخت. يقول سائق التاكسي إنه سيطلب المزيد من المال، ويقول له ميدو ألَّا يقلق، فسوف يحصل عليه. بقينا صامتين. كنا متوترين كلانا. لم أكن أتخيل أبدًا أن أعود إلى القاهرة في هذه الظروف، لكن هذا جزء من اللعبة: يجب إغلاق الحسابات المفتوحة مع الماضي للسماح للمُستقبل بالبدء من الحاضر. يبدأ حاضري بيومٍ في المطار، وليلة بلا نوم، وسلسلة من التهديدات. في غضون ربع ساعة، نكون تحت المبنى الذي يعيش فيه والدا ميدو. يبدو عليه الارتباك واضحًا.

– سأعود على الفور.

يقول مُخاطبًا سائق التاكسي، وآمُل أن يُصدِّق هو كلماته أولًا. أتخيل دخوله إلى المنزل النائم. سبق وأخبر والدَيه عن تأخُّره، ترى هل انتظره أحدُهما مستيقظًا؟ لا أرغب في التحدث مع سائق السيارة الأجرة وأغلقتُ عينيَّ متظاهرةً بالنوم. غفوتُ حقًّا، لا يوجَد شيء يُمكنني فعله في هذه اللحظة، سوى الانتظار.

أيقظتني صرخات ميدو المُتداخلة مع صرخات سائق التاكسي: إنه الفجر! أنا هنا منذ ساعتَين! أريد الكثير من المال!

– مايا، وجدتُه! وجدتُه! ها هو الظرف! الحمد لله! الحمد لله! نعم، ستحصل على نقودك!

لم يستطع مُعانقتي، فذهب إلى السائق وهو مُنفعل وعانقَه، أخذ يقفز ويشكر الله. فوجئ سائق التاكسي. أدركتُ أنني نمتُ لساعتَين وأن السماء قد أصبحت صافيةً الآن. لكنني أدركتُ قبل كل شيءٍ أنه بعد تسع سنوات، ذلك الظرف على وشك أن يصِل إلى يدي.

إنه شعور لا يمكنني وصفه. ملأ ميدو يد سائق التاكسي بالمال، والذي بادله العناق الآن وشكره.

– أتدرين أين كان الكتاب؟ في صندوق كبير في العليَّة! لكن عليَّة المبنى، وليس شقَّتي. في البداية فتشتُ كل المكتبات في المنزل. كانت والدتي مستيقظة تنتظرني واعتبرتني مجنونًا. شرحتُ لها بإيجاز وساعدتني في البحث عن ميرامار. لم نجد شيئًا، فاضطُررنا للصعود إلى السطح، ومن هناك إلى جزء العليَّة الخاص بنا. لا توجَد كهرباء هناك، يجب إصلاح الشبكة. عُدنا إلى الأسفل لأخذ كشَّافَين وبحثنا في الغبار. ظنَّ البعض في المبنى، عند سماع حركة وضجيج، أن هناك لصوصًا واتصلوا بأشخاصٍ آخرين. واجهنا أشخاصًا فجأة، مُسلَّحين بالعصي، وكدنا نصاب بصدمة قلبية حقيقية! تمكنَّا من تعريف أنفسنا قبل أن يضربونا، لكننا لم نكن مُقنِعين عندما قُلنا إننا نبحث عن كتاب.

– لديَّ هذا الكتاب! إنه جميل جدًّا، في الواقع. يُمكنني إعارته لكما! قال ساكن الطابق الخامس.

– يا له من لُطف، شكرًا لك، بارك الله فيك ... لكن كما ترى ... أحتاج هذه النسخة تحديدًا.

نظرَت إليَّ والدتي نظرة استسلامٍ بعد أن توهمَتْ للحظة أن الإعارة قد تكون حلًّا.

– هذا هو، كما ترَون ... منذ مدة طويلة تركتُ فيه نقودًا، نعم، نقود في ظرف، ولم تكن لي. يجب أن أُعيدها

– يا بني، كان بإمكانك أن تُخبرني أنك بحاجة إلى نقود، كنتُ سأعطيك إيَّاها!

– شكرًا يا أمي، معذرةً، لكن يجب أن أجد ذلك الكتاب وذلك الظرف. ذلك الظرف تحديدًا. اعتقدتُ أن البحث عن المال سيُبرر أي تصرفٍ غريب، بالتأكيد أكثر من قصة حُب، لكن الأمر لم يكن كذلك. على أي حال، في تلك اللحظة كنا أربعة نبحث، وكانت الفرحة جماعية عندما هتفت والدتي: «وجدتُه!» نفخَتْ عليه وقدَّمَتْه لي. لم يكن الكتاب كافيًا. كنَّا بحاجةٍ إلى الظرف. وكان موجودًا! الحمد لله كان موجودًا. انظري، يا مايا، انظري إلى الأعلى، الثلاثة في الشرفة ينظرون إلى الأسفل.

يا له من أمرٍ سخيف! نزلتُ من سيارة الأجرة ورأيتُ امرأةً مُحجَّبة ورجُلَين يلوِّحان من الشرفة في الطابق السادس! يا لها من ليلةٍ مجنونة. رددتُ التحية وحاولتُ أن أشكرهم، كدتُ أضحك.

كانت السماء وردية. نظرتُ إلى ميدو وقلت:

– شكرًا لك. لن أفتحه هنا أمامَك، قد لا يكون من الحكمة من جانبك أن تكون حاضرًا. الآن استمتِع بوالديك واختفِ من نظري. ربما، يومًا ما، نبدأ كل شيءٍ من جديد. الآن سأُكمل وحدي.

– سامِحيني يا مايا. أنا آسف حقًّا. آمُل أن تُصدِّقيني. إذا رأيتِ بابلو مرةً أخرى، يومًا ما، أخبريه أنني آسِف. وداعًا.

أطلق سائق التاكسي تنهيدةً عميقة وسأل: الزمالك؟

– نعم، من فضلك.

لكنني لن أذهب إلى فندق فلامنكو، فقد أصبح الصباح الآن. أرسلتُ رسالة إلى نورا: أنا قادمة! أحتاج إلى حمَّام وسرير، وإليكِ يا صديقتي.

– صباح الخير يا جميلة! لا أطيق الانتظار لأُعانقك! الفطور جاهز، في حال احتجتِ إليه أيضًا.

أعرف أن أي شيءٍ مكتوب في هذه الورقة سيُسعدني. فأنا حيَّة ومتعطشة للحياة.

سيوة، ١٩٩٧م

مايا، حبيبتي، أحتاج أن أتحدَّث معكِ. وددتُ لو فعلتُ ذلك وأنا أنظر إلى عينَيكِ الجميلتَين، لكنَّنا بعيدان وأشعُر بضرورة ملحَّة لأكشف لكِ الحقيقة أخيرًا. عودي بذاكرتكِ إلى اليوم الذي وُلد من الليلة الرائعة التي شهِدَتْنا سعداء ومُحبين كما لم نكن من قبل، هنا في سيوة. لم يكن ذلك اليوم جديرًا بهذا الأصل النبيل، فكما كانت الليلة ساحرةً ومثالية، كان النهار فظيعًا. كان ذلك عندما انتُزعت حياتنا وفُصلتْ بألَم.

ربما تُفكرين أنني كنتُ المسئول عن ذلك، وأنني، حتى لو كنتِ قد تلقيتِ اتصالًا من المنظمة غير الحكومية، كان بإمكاني أن أتبعكِ أو على الأقل انتظاركِ. بدلًا من ذلك، تركتُكِ حرةً وخاطرتُ بأن أبدو مكروهًا بسبب خيبة الأمل والألم الذي تسببتُ فيه لكِ فجأة. وأنتِ على حقٍّ وكنتُ على استعدادٍ لتقبُّل ذلك، لكن حان الوقت لأُخبركِ بما دفعني حقًّا لاتخاذ ذلك القرار الذي فضلتُ ألا أخبركِ به حينَها. أنا في سيوة مع الشباب، مع ميدو وأسامة، ولم أُخبرهم بذلك قطُّ خوفًا من أن أخون، بطريقةٍ ما، الصورة التي يتذكَّرونها لنا معًا.

حسنًا، في صباح ذلك اليوم من ٢٨ مايو، تلقيتُ أنا أيضًا مكالمةً هاتفية مُهمة. جاء علوش ليُخبرني بالذهاب إلى مركز الهاتف لأن إيليني ستُعاود الاتصال بي قريبًا. شعرتُ بالقلق وظننتُ أن شيئًا ما حدث لوالديَّ اللذَين لم أسمع عنهما منذ بضعة أيام، لكن معرفة أنهما بخير لم يُسبب لي أي راحةٍ عندما سمعتُ ما كان على حبيبتي السابقة أن تُخبرني به: قالت إنها حامل وأنني والد الطفل. بقيتُ صامتًا، متجمدًا هناك، وسماعة الهاتف في يدي. انفصلتُ عنها منذ حوالي ثلاثة أشهر، في اللحظة التي استقلتُ فيها أيضًا من وظيفتي لأرحل وأُغادر خيوس. ربما حدث ذلك بالفعل. يمكن أن يكون صحيحًا. قالت إن الحمل في شهرِه الرابع وأنها لم تُعلِمني من قبل لأنها في البداية لم تكن تعرِف ما إذا كانت ستواجِه الإجهاض أم ستحتفظ بالطفل. ثم قررتْ أن تستمرَّ فيه ورأت أنه من المناسِب أن أتحمَّل أنا أيضًا مسئولياتي، على الرغم من أننا لم نعُد معًا. شعرتُ بالغرور في صوتها، لكنني استطعتُ أن أفهم حالتها النفسية جيدًا. قلتُ لها إنني سأفعل الصواب وإنني سأعود في أقرب وقتٍ ممكن.

لم أكن أُحبها قط، ولم تكن تلك الأخبار هي التي وضعتها قبلكِ في قلبي. بل عقلي هو الذي تدخَّل، عقلي المليء بالعُقَد التي تعرفينها. قال لي، عقلي المُفكر المُتغطرس، إن الحياة تسخر منِّي بهذا الشكل وتُذكرني بأنه ليس الحُب هو ما يجب اتباعُه، بل الواجب والالتزام والمسئولية. ذكَّرني بالعار الذي جلبه والدي لعائلته بالتراجُع عن خطوبةٍ مُتَّفق عليها منذ سنوات، وكل الألم الذي زرعته أنانيتُه من حينها وكنتُ أنا أيضًا مِن ضحاياه. لم يُحب والدي فاطمة، ولم تُحبه هي، ويعرفان بعضهما بالكاد. ومع ذلك، خطَّط الأهل للزواج كما لو أنه الأمر الأكثر عدلًا وطبيعية. ألا أُحِب إيليني؟ إلا أن الأمر يمكنه أن ينجح، يُمكننا أن نجعله ينجح.

فجأة، عدتُ بذاكرتي إلى لحظاتنا الساحرة في الإسكندرية وشعرتُ بالخجل، خجلتُ من أنني صدقتُ أنَّ الأمر يُمكنه أن يختلف عما اعتقدتُه دائمًا، وبكيتُ من الغضب وقلتُ لنفسي إنني لن أرتكب خطأ والديَّ. اعتقدتُ أن هذه التضحية مطلوبة منِّي تكفيرًا عمَّا فعلاه وأن كلَّ شيء سيعود إلى مكانه: سيكون لابني حياة طبيعية مُحاطة بوالدَين وأقارب وفقًا لتقاليد وقواعد العائلة.

كنتِ تُحبِّينني، كنتُ أعلم ذلك، ستُعانين، لكنكِ أنت أيضًا على وشكِ تحقيق رغبتكِ، مشروع حياتكِ، والأمر حدث في اللحظة نفسها: فلم يُساورني أي شكٍّ حول الطريق الواجب اتباعه. كانت الإشارات واضحةً للغاية.

قلتُ ذلك لجدِّي، واثقًا من أنه سيكون فخورًا بي، أكثر من أي شخصٍ آخر. لكنه هز رأسه وقال إن الأمر لن يسير على هذا النحو. لم يقُل الكثير. فهمتُ وجهة نظره عندما قصَّ علينا أسطورة النهار والليل، وعندما قال لكِ إن الكأس التي انكسرت بين يدَيه ستُصلَح. بدا أنه قلق عليكِ، لكنه استمر في التأكيد على أننا نحن الاثنين، المُختلفين جدًّا، ولكننا يُحب بعضنا بعضًا، سنحظى بمُستقبل معًا. هذه أمور فكرتُ فيها فيما بعد، لأن رأسي في تلك الساعات كان يسير في اتجاهٍ واضح ودون تردُّد.

وهكذا عدتُ إلى خيوس، قويًّا بإحساسي المُكتفي بالعدالة. بدت إيليني سعيدة، لكن كمن حصل على انتقامه أكثر منها كأمٍّ تنتظر بمحبَّة أن تؤسِّس عائلة. تعرفتُ على والدَيها وإخوتها، وقدَّروا حُسن نيَّتي، وكان هذا عزاءً لي، لأنني لم أستطِع أن أشعر بالترحيب من إيليني: كانت تذهب لشراء ما سيحتاجه الطفل، ثم تتَّصل بي وتُخبرني بالذهاب للدفع. لم يكن والداي مُقتنعَين للغاية، وأصرَّا على أن أنتظر قبل الزواج، رغم أنهما قبِلا وشاركا قراري بالاعتناء بإيليني وابنِنا. لكنهما لم يعرفا عنكِ. لم يعرف أحدٌ عنكِ. لحُسن الحظ، عدتُ للعمل في الشركة التي تركتُها وركزتُ على مستقبلي كأبٍ أكثر من كوني زوجًا أو شريكًا. علمتُ من جدي أنكِ مرضتِ وأنكِ لم تُسافري إلى غزة. انهار جزء من نظامي الدفاعي وشعرتُ بالخوف. شعرتُ بالحاجة لرؤيتكِ ومعرفة أنكِ بخير، شعرتُ بذلك لدرجة أنَّني سافرتُ وجئتُ إلى إيطاليا. مكثتُ هناك أقل من ٤٨ ساعة بينما كانت إيليني تعلم أنني في مصر. لم يُحالفني الحظ، أو على الأقل، لم يُحالف قلبي، لأنني لم أركِ. لكنَّ عقلي كان راضيًا لأنني علمتُ أنكِ في طريقكِ للشفاء ومع رجلٍ مُحبٍّ بجانبكِ. شعرتُ بألمٍ شديد، لكنني علمتُ أنه يجِب أن أكون سعيدًا من أجلكِ ومن أجل حياتكِ التي كانت يُعاد تنظيمها. كنتُ في حاجةٍ ماسَّة لمعرفة أنكِ سعيدة. كان وقت الولادة يقترب بينما شعرتُ بحبلٍ يلتفُّ حول رقبتي، كنتُ آمُل أن يزيل إحساسي بأن أصبح أبًا ذلك الشعور بالضيق والشوق إليكِ. اشتقتُ إليكِ بشدة، يا مايا، رغم كل شيء.

اشتقتُ إلى بهجة الحياة التي اختبرتُها معكِ، اشتقتُ إلى الرغبة في الاقتراب منها، واحتضانها، وتقبيلها. ذات ليلة حلمتُ بوالدي الذي كاد يتزوَّج فاطمة، وفي اللحظة الحاسمة بدأ يصرخ كالمجنون وهربَ مُطيحًا بكلِّ ما يُصادفه في طريقه. في الحلم أَقِف مُختبئًا خلف عمود، أُشاهد وأُصفق. لم يكن الأمر يتطلَّب عبقريًّا لتفسير حلمٍ كهذا: كان اللاوعي لديَّ يُرسِل إشاراتٍ واضحة، وجسدي يُظهر أعراضًا تجعل حياتي صعبة. أصبح انزعاجي يُثير غضب إيليني التي تُعامِلني ببرودٍ مُتزايد، وفي يومٍ جميل من أيام أكتوبر، وأمام حالة من حالات اختلالِ تنفُّسي التي أصابتني، وأمام شقيقها الذي تدخَّل لمساعدتي، بدأتْ بالصراخ: «كفى! ارحل! هذا الطفل ليس ابنك! ارحل، لا أُريدك، يا حُطام رجل! لقد خنتكَ، نعم، خنتكَ لأنك كنتَ رجلًا حزينًا وما زلتَ كذلك. الأب الحقيقي هو شخص آخر، ولكنه مُتزوِّج. ارتحتُ لرحيلك، لكنني الآن احتجتُ إلى شخصٍ يتحمل نفقات هذا الطفل، وكنتُ أعرف أنك ستقبل ذلك. حزينٌ وغبي! لكنني لا أُطيقك، لا أستطيع تحمُّلك، لا أريدك قريبًا منِّي، لا أريدكَ أن تكون أبًا لابني، عُد من حيث أتيت، اختفِ من حياتي!»

اعتقدْنا أنها أزمة هستيرية، أو تقلُّبات هرمونية، أو نوبة ذُعر. لم أقُل شيئًا، كنتُ أجد صعوبة في التنفُّس بالفعل. استمرَّت هي في الصراخ، واتصل شقيقها، الذي بدا متوترًا للغاية، بالطبيب. غادرتُ، ورحلتُ سيرًا على الأقدام، بلا وجهة، بينما بدأ الرباط المُلتفُّ حول رقبتي ويمنعني من التنفُّس يرتخي، وامتلأت رئتاي بهواء جديد، وفير ومُنعش. مشيتُ ومشيتُ، أستنشِق من فمي وأنفي، وأسمح للأكسجين بالدخول إلى دماغي. احتجتُ أن أتأكَّد ما إذا كان ما قالته إيليني هو الحقيقة أم أنها أرادت ببساطة التخلُّص مني، قبل أن أشعر بالحُرية حقًّا، ومع ذلك شعرتُ بأن قلبي بالفعل أخف. يؤكِّد لي العقل على خُبث المرأة التي كنتُ سأُضحي بحياتي من أجلها، وعلى حقيقة أنها خانتني، وأنها فعلت ذلك مع رجلٍ مُتزوج، وأنها استخدمت طفلًا بريئًا من دمِها للاستفادة منِّي ومن أموالي ... ومع ذلك ... ومع ذلك شعرتُ أن رئتيَّ وكأنهما بالونان على وشكِ الطيران. كانت مُحقَّة في شيءٍ واحد، كنتُ حزينًا، قبل أن ألتقي بالحُب، وأضحيتُ أكثر حزنًا لأنني تخلَّيتُ عنه. فجأة بدأتُ في الركض، أركض وأضحك

حتى لم أعُد أستطيع، وتوقفت: كنتُ أمام البحر. أعتقد أن تلك واحدة من أجمل لحظات حياتي، واحدة من اللحظات التي شعرتُ فيها أن الحياة ملكي، شعرتُ أنها ثمينة ومُهمة ومقدسة. بقيتُ هناك حتى المساء أستمع إلى الأمواج، وأفكر فيكِ، وفي جمال ما عشناه معًا، وفيما علَّمْتِني إيَّاه، والذي كنتُ أُجاهد لعدم تقبُّله. نعم، كنتُ أعلم أنني لن أستطيع استعادتكِ لأنكِ مع رجلٍ آخر، لكنني في تلك اللحظة شعرتُ بالسعادة، سعيد لأنني أحببتكِ بحُرية، حتى بدون أن أمتلككِ، طالما كنتِ سعيدة ومُحققة. لم أعد مُضطرًا للتظاهُر. كان بإمكاني أن أعيش حياتي. حتى ذلك الحين كنتُ أُهينها، طلبتُ المغفرة من الله على ذلك وشكرتُه على تلك الفرصة الثانية. جاء ذلك بشكلٍ عفوي، فاجأني وذكَّرني بما شعرتُ به في الصحراء والتي ربما لم أفهمها حقًّا من قبل. ضحكتُ وبكيتُ، ثم بقيتُ هادئًا أتنفَّس على إيقاع الأمواج التي تصِل على بُعد خطوات مني وكتميمةٍ تُردِّد أغنيتها. أعجبتُ بالشمس التي تغرب وهي تأخُذ معها، خلف الأفق، حياتي القديمة، وحُزني، وضيقي. عند الفجر ستُشرق شمس جديدة وهكذا سيكون كلُّ يومٍ قادم، دون أن نعتبر أي يومٍ أمرًا مفروغًا منه.

عدتُ إلى والديَّ وأخبرتُهما أنهما لن يُصبحا جدَّين بعد الآن، لكنهما في المقابل استعادا ابنهما. عانقتُ والدي، ثم والدتي، وقلتُ لهما إنني أُحبهما وإنني أخيرًا تمكنتُ من فَهم خياراتهما وأصبحتُ فخورًا بهما، بكوني ابنهما ومُمتنًّا لحصولي منهما على الحرية والدعم غير المشروط على الرغم من خلافاتنا.

رويتُ لهما عنكِ، عن لقائنا، عن الإسكندرية وقصتنا. كانت المرة الأولى التي أروي فيها لأهلي شيئًا شخصيًّا وحميميًّا كهذا. لسوء الحظ، لم يكن من الممكن أن تكون النهاية كما كنَّا نتمنَّاها، لكنني كنتُ أستعيد نفسي وعائلتي. خرجنا معًا في الصباح التالي وذهبنا لشراء بيانو ذي ذيلٍ مثل بيانو جدَّتي، لكنه أبيض! المال الذي ادخرتُه لولادة طفلٍ ليس ابني استثمرتُه في ولادةٍ أخرى: ولادة بابلو كريم، جذُورِه وأجنحتِه.

أصبحتِ الموسيقى هكذا، منذ تلك اللحظة، رفيقتي، صديقتي، علاجي. أنتِ، مُلهمتي. البيانو، الوسيلة لإعطاء صوت للحُب الذي بداخلي.

اتصلتُ بجدِّي وأخبرته بكل شيء، فكانت إجابته الوحيدة: «الحمد لله! الخطوة الأولى قد تمَّت!»

انغمستُ في الموسيقى، كنتُ أقضي ساعاتٍ كلَّ يومٍ أمام البيانو، بعد العمل، وكانت آخر معزوفة، كل مساء، بمثابة صلاة، ترنيمة، نداء، هي الموسيقى التي كتبتُها لكِ، «سوناتا من أجل مايا، ماء في الصحراء».

في نهاية شهر رمضان، العام الماضي، جئتُ إلى سيوة لقضاء بضعة أيامٍ مع جدي والعزف له. قبل وصولي، أخبرني جدي كريم أنكِ كنتِ في القاهرة. كان يجلس يُدخن الشيشة في القرية عندما اتصلتِ بعبد الله لتقولي إنكِ عدتِ لترتيب الأغراض التي تركتِها لدى نورا وللقيام بجولة في الواحات البحرية. تحدثتِ عن العرْض في الأوبرا. تخيلتُ أنكِ برفقة أحد، لكنني لم أستطِع المقاومة: كنتُ بحاجة لرؤيتكِ. في روما لم أستطع، في القاهرة كنتُ سأراكِ، كنتُ سأنظر إليكِ مرةً أخرى، دون إزعاجك.

وجئتُ، يا حبيبتي، جئتُ وتركتُ نفسي تُحمَل على أجنحة تلك الموسيقى الرائعة وجمالكِ الساطع. كان بجانبكِ على المسرح، الرجل الأكثر حظًّا، شريككِ. لكنني متأكِّد من أنكِ إذا كنتِ قد تمكنتِ من مُسامحتي، الآن وأنتِ سعيدة معه، فلا يزال هناك مكان صغير في قلبكِ لي، لأنني لن أُصدِّق أبدًا أن ما تقاسمناه يُمكن أن يختفي. حينها كان الأمر أقوى منِّي: خلال الاستراحة لمحتُ بيانو خلف بابٍ شِبه مفتوح ووضعتُ لحننا على المفاتيح على أمَل أنه حتى في ضجيج الأصوات والكمان، سيصل إليكِ إلى أُذنكِ وقلبكِ. لا يُمكنني معرفة ما إذا كان هذا قد حدث. منذ أن عرفتكِ أعتقد أن السحر موجود وأنه بين شخصَين يمكن أن يصنع المعجزات، لذلك يُعجبني أن أعتقِد أنكِ شعرتِ بي في تلك الليلة. ثم هربتُ دون حتى انتظار معرفة ما إذا كان جواكينو قد وجد مُلهمته. لم أرغب في خلق أي عوائق في حياتكِ الزوجية أو مواقف مُحرجة. هربتُ. كان لديَّ مرة أخرى إغراء لترْك رسالةٍ لكِ، عندما مررتُ بمنزل ميدو، ثم لم أفعل: لقد تركتكِ حرةً ويجب أن تظلِّي حرة.

قد تتساءلين عن سبب كلِّ هذا الحوار الداخلي الطويل. الأمر هو ... أنه في دقائق قليلة انهارت كل قناعاتي واضطربت كل خليةٍ من خلايا جسدي مرةً أخرى. قبل قليل كنتُ أشرب الشاي مع جدِّي. أثناء وجودي في الكثبان الرملية مع الشباب، كان هو ينتظرني عند عبده، وأثناء الدردشة مع أمير، الذي كان محظوظًا برؤيتكِ في الباحرية العام الماضي، تبيَّن أنكِ لستِ متزوِّجة

ولا مخطوبة، أو على الأقل لم تكوني كذلك عندما اعتقدتُ أنكِ كذلك. أخبرَني جدي بذلك بوجهٍ راضٍ ولم أفعل شيئًا سوى أن طلبتُ منه ورقةً وقلمًا لأكتب لكِ على الفور. سيرحل الشباب غدًا صباحًا وسأعطي ميدو هذه الرسالة ليطلُب من نورا إرسالها إليكِ في أقرب وقتٍ ممكن. يقولون إنكِ لم تعودي تعيشين في روما، وهي ستعرف أين تُرسِلها. أنا بحاجة لأن تعرفي أنني أُحبكِ، أحبكِ كما كنتُ من قبل وأكثر، وأنني آسِف على كلِّ ما فرَّق بيننا. صحيح أنكِ شابَّة ويجب أن تختاري ما تفعلين بحياتكِ.

لا أعتقد أنكِ ستتخلَّين عن رغبتكِ في العمل في البلدان المُعذَّبة، لكنني أريدُكِ أن تعلمي أنني في هذه المرحلة سأكون مُستعدًّا لاتِّباعكِ إلى أي مكان. يكفي أن تُخبريني أنكِ تُريدينني بجانبكِ، وأنكِ ما زلتِ تُحبينني، وأننا ما زلنا نستطيع السير جنبًا إلى جنب، وسأكونُ هناك. أنا حُرٌّ الآن، الحُب جعلني حُرًّا حقًّا، أعرف ما أريدُ الآن، ما أشتهي أكثر من أي شيءٍ آخر في العالم: فرصة جديدة لأكون معكِ. حتى صمتكِ سيتحدث معي، وسأفهمه، صدِّقيني.

هذا هو رقم هاتفي المحمول، وهذا هو عنوان بريدي الإلكتروني. في غضون أيامٍ قليلة سأعود إلى الجزيرة. من الآن فصاعدًا، سأكون في انتظاركِ.

قبلة لكلِّ حبةِ رملٍ تُحيط بي،

حبيبك

بابلو كريم

شمس مارس دافئة والهواء تفوح منه رائحة الزهور على شُرفة منزل نورا. لقد وضعتْ أرجوحةً وغطتها بوسائد ناعمة مُطرزة بألف حرفٍ عربي بألوان زاهية. مكان جيد للاسترخاء، على الرغم من أنني في هذه اللحظة أُفضل حفرةً في قلب الأرض المُظلمة لأُغطيها بالتراب على الفور، ومعي فيها: أنا، وتوقعاتي، ودموعي غير المُجدية، وأحد عشر عامًا من الطريق الخاطئ والقلب المَفطور. حفرة أخرى، عميقة جدًّا، أودُّها لميدو، الذي تسبَّبت سطحيته وقلة فهمه في فقدان تسعة أعوام على الأقل من هذه الأعوام الأحد عشر. حفرة لتلك المجنونة إيليني. أمكث هنا، بين هذه الوسائد، وكأنني فارغة، عاجزة، والأوراق

لا تزال في يدي، ويدي تتدلَّى من جانب الأرجوحة، بلا حراك. بلا أنفاس. تُطلُّ صديقتي العزيزة: إذن؟ ماذا تقول الرسالة؟ كم هي طويلة!

لا أُجيب، فقط أبذل جهدًا هائلًا، وأنا فاقدة الروح، لمدِّ يدي والأوراق إليها، لتقرأ وتفهم. تستغرق وقتًا، وتُرافق القراءة بصرخاتٍ خفيفةٍ ومقاطع تكفي لجعلي أستعيد ذلك التسلسُل من المشاعر. عندما تصِل إلى السطور الأخيرة، تحبس صديقتي أنفاسها، ثم تُطلِقها مع تنهيدة طويلة بعد أن انتهت من قراءة الرسالة وطوتها. ماذا يمكن أن تقول لي؟ «لو كنتُ أعرف ...»

= الأمر ليس خطأكِ بالتأكيد، يا نورا. لقد خسرتُ، يا نورا العزيزة. خسرتُ حتى دون أن أُحارب.

تظل صامتةً لبعض الوقت، بجواري، تُداعب رأسي، بحنان الأم. ثم تتفاعل. نورا هكذا، حكيمة، شُجاعة، إيجابية.

– ألم تقولي: أيًّا كان ما هو مكتوب في هذه الورقة، سأكون سعيدة. أنا حيَّة ومتعطشة للحياة؟

– من، أنا؟ هل قلتُ هراءً كهذا؟ ربما أكون متعطشةً للفلافل، لكن للحياة لا، لم يعُد لها معنًى.

– ما الذي تقولينه؟ هيا! من الواضح أنكما لم تكونا مُستعدَّين. كان ميدو مجرد أداةٍ في أيدي مصيركما. كان عليكما أن تسلكا طريقًا. ليس من المؤكد أن هذا الطريق يجِب أن يتقاطع. أنتِ الآن هنا، في غضون أيامٍ قليلة سيكون الكسوف، على الأقل انتظري إذا لم يظهر بابلو هناك، قبل أن تيئسي!

– أترَين؟ حتى أنتِ تقولين إنني قد أيئس. تخيَّلي لو جاء إلى سيوة من أجل الكسوف ... بعد كل هذه السنوات من الصمت.

– لم أقُل أنكِ قد تيئسين، ولكن قبل أن تُنهي هذه الصفحة نهائيًّا، يُفضَّل أن تنتظري حتى يوم السادس والعشرين. على أي حال، أليس هذا هو سبب مجيئكِ؟

– نعم، لكنني لم أكن أعرف ...

– هذا لا يُغير شيئًا. ما حدث قد حدث. الآن يكفي هذا العويل، تماسَكي فبعد قليلٍ سيصل شريف ليتعرَّف على صديقتي الإيطالية وأُريدكِ مبتسمة. هيا أُحاول إقناعه بقضاء شهر العسل في إيطاليا!

– لكن ... شهر عسل؟ هل حددتما موعدًا وأنا لا أعرف؟

– من يدري ...؟ أنتِ استعيدي عافيتكِ وابتسمي، لدَينا الكثير من الأشياء لنفعلها قبل أن تذهبي إلى سيوة.

أخرُج من الوسائد، وما زلتُ غير مُقتنعة بما تقوله صديقتي الصبورة، وأسمع هاتفي المحمول يرن: إنها شيرلي!

– آه يا ليدي شيرلي اللطيفة! كم هو جميل سماع صوتكِ، كيف حالكِ؟ ... نعم، لا تقلقي، كل شيءٍ على ما يُرام، أنا في الزمالك في منزل نورا. وصلتُ متأخِّرة جدًّا، في الواقع هذا الصباح، لكنكِ لا تتخيَّلين لماذا! ... لا لا، لا يوجَد تأخير آخَر ... نعم، ميدو أوصلني بالتاكسي ... لكنَّني سأُخبركِ، سأُخبركِ. ستسافرون فورًا إلى صعيد مصر؟ حسنًا، رحلة سعيدة ورحلة بحرية مُمتعة، ستكون رائعة! ... سأكون في سيوة يوم السادس والعشرين من أجل الكسوف، ثم ربما نتحدَّث مرةً أخرى. بالتأكيد، سأُخبركِ، حتى برسالة، لا بأس ... شكرًا لاهتمامكِ، وأطيب التحيات لأنطونيو!

أسعدتني تلك المكالمة. نعم، الحياة تمنحني الكثير من الأشياء التي تجعلني مُبتهجة، يجِب أن أنظر إلى الأمام بثقةٍ وامتنان.

تعرفتُ على شريف، خطيب نورا. انطباع ممتاز، شخص لطيف، حيوي، ودود، رجل وسيم، ومُحب. معًا يشعَّان، أنا سعيدة جدًّا من أجلهما! قالا إنهما سيتزوَّجان الخريف القادم، وليس فقط أنني مدعوة لحضور حفل الزفاف: نورا تُريدني كشاهدة! لا أعرف إن كان هنا يُقال وصيفة أو شاهدة، لكنَّني تأثرتُ للغاية بهذا الإعلان الرسمي عن المودة والصداقة. سأفعل كلَّ ما بوسعي لحضور حفل الزفاف، وآمُل أن يأتيا حقًّا في شهر العسل إلى إيطاليا لرؤيتهما مرة أخرى. من يدري كيف سأكون في الخريف، وما الذي سأكون قد قررتُ أن أفعله بحياتي.

كانت هذه الأيام الثلاثة في القاهرة رائعة، رغم الرسالة، رغم الشكوك. ربما كانت التأكيدات أقل، لكن ما أهمية هذا الآن. ليست كل الصداقات مُميزة مثل تلك التي مع نورا أو مع فرانشيسكا، في إيطاليا، لكنني استعدتُ أشخاصًا أعزاء جدًّا، زملاء سابقين، أصدقاء من الماضي، خاصة من المصريين والذين استقبلوني بحرارة شديدة جعلتني أنسى الشخص

الذي أصبحتُ عليه وتُذكِّرني بالشخص الذي أردتُ أن أكونه. نحن نكبر. يحدث أحيانًا أن نتوقَّف، ثم إذا كنَّا محظوظين يُمكننا أن نبدأ في النموِّ مرة أخرى، دون أن نتخلص تمامًا مما أوقفَنا.

لقد غادرت. أنا في رحلة نحو سيوة ونحو نفسي. لا مفرَّ من موجة الذكريات، والفرضيات التي لا إجابةَ لها، لكنني أنظر إلى الأمام.

في الحافلة تنتشر موسيقى عربية جميلة بدون كلماتٍ تجعل رؤية الصحراء أكثر سحرًا. أتصفَّح ميرامار، الكتاب الذي احتفظ بكلمات حُبي لسنوات.

تتطاير حُبيبات الرمل بين صفحاته، تتسلَّل الرياح الفضولية تحمِلها معها.

اليوم، بعد أن تصفحتُ العديد من الصفحات الباهتة من حياتي، أريد أن أعود لتكثيف ألوان قِصتي، ها أنا أرحل مرة أخرى نحو سيوة لقراءة وتفسير نهاية فصلٍ مُهم ثم الانطلاق من هناك من جديد.

أنا مدينة بذلك لنفسي وأيضًا لِمن يُحبني ويؤمِن بي وبقوة ما حلمتُ به. أنا مدينة بذلك لعمِّي ميكيله وأصدقائه في المُستشفى الذين ساهموا في دفع ثمن تذكرة الطائرة لي، وإلى صديقه ورفيقه في الغرفة، الأستاذ ذي الشارب، المُتحمس لِعلم الفلك، الذي أعلن لنا لأول مرة عن كسوف الشمس. كنتُ سأعرف ذلك بالتأكيد، لكنني لا أعتقد أنني كنتُ سآخُذه في الاعتبار كما فعل هو وعمي.

وهكذا يرتبط مصيري بواحة، بالشمس والقمر، ومجموعة من الأشخاص يرَونني كشخصيةٍ في مسلسلٍ تلفزيوني يرغبون بشدة في نهايته السعيدة.

العودة إلى سيوة

الليلة الماضية، لفَّني هواء الليل، الحار والأسود، كعباءة ثقيلة بمُجرَّد أن نزلتُ من الميكروباص، مُجسِّدًا على جلدي التعَب والغبار المُتراكِمَين في الرحلة الطويلة من القاهرة. تمامًا كما حدث في المرَّة الأولى التي أتيتُ فيها إلى سيوة، منذ سنواتٍ عديدة، كان الإحساس الأوَّل، عند الوصول ليلًا، هو أننا وصلنا إلى مكانٍ لا يوجَد فيه أحد، في وسط اللاشيء، أو على الأكثر في قرية أشباح! هذا إلى أن كسرَ النهيقُ القوي لحمارٍ الصمتَ، كاشفًا عن وجود حياة، حيوانية لكنها حياة. من الأفضل هكذا، لأنني لم أكُن أرغب في أن أجد نفسي على الفور أمام كلِّ ما جعل سيوة مختلفة عمَّا كانت عليه في الماضي.

كانت رحلة غير مُريحة ولا نهايةَ لها، يبدو أن السنوات لم تمرَّ في هذا الأمر. مُدَّة رحلة مِن هذا النوع، عبر الصحراء، تكون دائمًا مجهولةً بعض الشيء. غادرتُ القاهرة في الصباح حوالي الساعة السابعة، مُودِّعةً نورا في ميدان رمسيس، وأنا على يقينٍ أنه في حالة «الإخفاق» وقت العودة، ستكون هي مَن يستقبلني ويُواسيني، بلطفٍ وحزْم في الوقت نفسه.

بعد حوالي ٢٠٠ كيلومتر، كانت الاستراحة الأولى. كانت السماء ملبدة بالغيوم، من تلك الغيوم البيضاء الجميلة التي تأتي من البحر الأبيض المتوسط والتي غالبًا ما تراها عندما تقترِب من الإسكندرية. «الإسكندرية أخيرًا. الإسكندرية قطر الندى، نفثةُ السحابة البيضاء، مَهبِط الشعاع المغسول بماء السماء، وقلب الذكريات المُبللة بالشهد والدموع ...» هكذا تبدأ قصة ميرامار، قصة الفندق الذي يتحدَّث عنه كتاب محفوظ الذي كنتُ أُمسكه بين يدي. كان الهواء منعشًا والرياح تهبُّ ولحظات خشيتُ أن ترفع نفحةٌ تنورتي بينما أمرُّ بين حوالي مائة جندي متوقِّفين ... في الواقع، المكان الذي توقَّفنا فيه لم أكن أعرف

إن كان يُمكنني تعريفه «استراحة على الطريق» أو ثكنة عسكرية. شعرتُ برغبةٍ فطرية في سحْب وشاحي لأضعه على رأسي وأتغطَّى كما جميع النساء الأخريات في هذه الحافلة مُغطيات. كنتُ الأجنبية الوحيدة وكنتُ وحيدة: تمنَّيتُ أن أندمج بينهن. على العموم كنتُ هادئةً وأكلتُ أحد سندويشاتي.

توقفنا مرةً ثانية في مكانٍ لطيف، يُشبه أماكن أخرى كثيرة، ولكنه مُرتَّب ونظيف. في تلك الساعة، حوالي الواحدة، كان الضوء المنعكس مُبهرًا حقًّا. واصلتُ الأكل والشرب، مُحاوِلةً الاسترخاء. في غضون ساعاتٍ قليلة، خرجت إيطاليا، وحياتي في المكتبة، والقاهرة، وجميع المخاوف من رأسي، حمَلَتْها الريح بعيدًا.

كان بإمكاني أن أقرأ، أو أنام، لو استطعتُ فقط وضع رأسي في مكانٍ ما دون أن أهتزَّ مِن الصدمات والارتجاجات. ولم تكن المسألة مسألة حفر على الطريق، بل إن السيارة تفتقر تمامًا مُمتصَّات الصدمات. في مصر توجَد سياراتٌ حالاتها عجيبة على الطريق.

كان يدخل، مِن كلِّ شق، الكثير من الغبار لدرجة أن نظارات رجلٍ جالس على الجانب الآخر، صفَّين أمامي، كانت تُغبَّر باستمرار، إلى حدِّ إخفاء عينَيه، فيخلعها بصبرٍ وينظفها بمنديل، ثم يُعيدها، ليُكرر العملية في كل مرةٍ تُصبح فيها سُوَر القرآن الخاصة به غير قابلة للقراءة خلف حجابٍ رمادي من الغبار.

كنتُ أتمنى ألا أُفكر كثيرًا في الماضي، وأُخفف من سقف التوقُّعات التي تُعيدني إلى سيوة، لكن أخذَتِ الذكريات والأوهام تتناوب في ذهني، مُندمجة ومُختلطة، تُعذِّبني بالقلق والتخيُّلات طوال الوقت. ما ظلَّ لسنواتٍ عديدة كتابًا ثمينًا، مُغلقًا بأمانٍ في قلبي، فُتح من جديد، وكنتُ خائفة من أنني سأجد الكثير من الكلمات التي محاها الزمن والواقع، صورًا بالأبيض والأسود لأشخاصٍ كبروا الآن، أصبحوا بعيدين ومنفصِلين عما كان ماضيًا مليئًا بالألوان. كل ارتجاج في الحافلة بدا وكأنه يُريد أن يُشقِّق ويُحطِّم الغلاف الذي حمى ذلك الكتاب حتى الآن، غلاف من الكريستال، لا يتناسب مع رحلةٍ على متن حافلة بدون مُمتصَّات صدمات، تتمايل عبر الصحراء.

في مرسى مطروح، حوالي الساعة الثالثة، كان من المُفترَض أن ننزل ونأخذ وسيلة مواصلاتٍ أخرى، ولكن كما كان يحدث غالبًا في الأزمنة القديمة، لم تكن هناك وسيلة أخرى جاهزة للانطلاق، وكانت الأصوات تقول إن «المواصلة» ستتأخَّر ساعة. جلستُ فيما يُشبه غرفة الانتظار، وبدأتُ في القراءة، وأنا مُبقية «هوائياتي» مرفوعة. قبل سنواتٍ كنتُ سأذهب للسؤال هنا وهناك والبحث عن ميكروباص أو سيارة أجرة جماعية لمحاولة

الانطلاق قبل ذلك، أو ربما للدفع أقل. هذه المرة، بدلًا من ذلك، كنتُ أعرف جيدًا أن الجميع على الجانب الآخر من الطريق يعرفون بالفعل أنني مُتجهة إلى سيوة، لذلك إذا كان بإمكاني أن أخدم في إكمال العدد فسيأتون هم للبحث عني. كنتُ قد لاحظتُ بالفعل أن رجلَين قد لمحاني وتبادلا حوارًا، ثم اقتربا وبعد أن جلسا أمامي ثلاث ثوانٍ، سألاني بسلوك غير مبالٍ، عما إذا كنتُ مُتجهة إلى سيوة. فأومأت أنا برأسي، بلا مبالاة أكثر، بالإيجاب. وبعد ذلك ذهبا.

كانت الريح تُثير الرمال، وكان الهواء مُمتلئًا بها ... لكنها لم تُزح الذباب! لماذا؟

كانت السماء رمادية، على الرغم من أن الشمس كانت تفتح ثغرات، وخشيتُ أن تكون هناك عاصفة رملية في مكانٍ قريب، وهو أمر غير جيِّد مع كل الطريق الذي لا يزال يتعين علينا قطعُه. أمر غير جيد لذكرياتي.

في مرسى مطروح، لم يكن هناك أثر لسائح. من موقعي، بعينٍ على الكتاب وأخرى في الاستطلاع، كنتُ أُراقب عائلة من سيوة: كانت المرأة مُحاطة بالشال الأبيض والأزرق التقليدي، المُطرَّز باللون البرتقالي على الحواف، بينما كان أطفالها جميعًا ملوَّنين. من بين حجابها، لمحتُ وجهها: شابة وجميلة. ينظر الطفل الأصغر إليَّ بفضول ... كانت السماء تزداد رمادية، ويبدو أن الربيع لم يكن على الأبواب رغم أنَّنا في مرسى مطروح.

تشجعتُ وخرجتُ للحظة من القرن الحادي والعشرين، تاركةً حقيبتي أيضًا في عهدة رجلٍ مُسن لأذهب إلى الحمام، برفقة فتاةٍ لطيفة نزلت من نفس الحافلة التي كنتُ فيها. كان المصريون دائمًا مِضيافين للغاية، ولا شك في ذلك.

منذ أن كنتُ هنا المرة الأخيرة، حدثت أشياء كثيرة ... انهيار البرجَين التوأمَين، الحرب المجنونة على الإرهاب، الهجمات في دهب، وفي شرم الشيخ، انفجارات الكنائس، الدمار بين غزة وإسرائيل، الوضع الرهيب في الشرق الأوسط ... وفي كل مرة عشتُها كجروحٍ شخصية كانت تُقوِّض حقِّي في الاستمرار في حُب هذا البلد والعالم العربي كلِّه بشكلٍ غريزي. في كل مرة، أنا ونورا والأصدقاء الآخرون، مسيحيين ومسلمين على حدٍّ سواء، كنَّا نتجمَّع في أحضان افتراضية لنُكرِّر ونؤكد أن السلام والوئام مُمكنان، وأن عاطفتنا، واحترامنا، أصيلان وحقيقيَّان. إذا نجحنا نحن، فلماذا لا يستطيع الجميع أن ينجحوا؟ لدَينا أصدقاء إسرائيليون وفلسطينيون وسودانيون وعراقيون ويهود ومُسلمون سنَّة وشيعة، أشخاص من كل عرق ولون. إذا نجحنا نحن، فلماذا لا يستطيع الجميع أن ينجحوا على نطاقٍ واسع؟ لماذا كل هذه الكراهية التي بلا طائل؟

كل هذه الأفكار انبثقت ببساطة من لفتةٍ مجانية وعفوية ولطيفة من الفتاة التي رافقتني إلى الحمام، ومن استعداد أولئك الذين تركتُ حقيبتي في عُهدتهم. كم هو مُحرِّر أن تكون قادرًا على الثقة والاعتماد، دون خوف، دون شك، دون تحيُّز. والتفكير في المحنة التي يُعاني منها العديد من البلدان يكفي لتقليل مشاكل الفرد وهمومه التي تبدو على الفور غير ذات أهمية وقابلة للحل.

منذ الصباح في الساعة السابعة، كانت الكلمات الوحيدة التي قلتُها بلُغتي العربية الضعيفة، وكان أمامي عدة أيام أخرى لأقضيها في مكانٍ حتى اللغة العربية ليست اللغة الرسمية فيه! كنتُ سأُلقي خُطبًا عظيمة مع نفسي، كنتُ سأُغني وأكتب. لم يُخِفْني أبدًا السفر بمفردي.

بعد فترة قصيرة، أُبلغتُ بأن المواصلة تأخرت ساعةً ونصفًا أو ساعتَين! لكنني والتأخير لدَينا بالفعل معرفة سابقة، فلطالما كان له مكانه في مسيرة حياتي. بناء على ذلك أعادوا لنا أموال التذاكر. استنتج الناس المنتظرون أننا لن نصِل قبل الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ليلًا. كان أحد الأشخاص يلعب بعصبيةٍ وضوضاء بمجموعة من المفاتيح، ربما كان يحاول اتخاذ قرارٍ بشأن ما يجب فعله. قريبًا جدًّا ستغرب الشمس وسيُصبح الجو باردًا، فنحن في مكان شاطئ البحر، حيث لا ينقص النسيم أبدًا ...

وهكذا أثناء الانتظار، ظهر الميكروباص المتَّجه إلى سيوة! جاءوا للبحث عني، كما توقعت، وبدأتُ التحرُّك ببطء: كنا بالفعل شِبه مكتمِلين وكنتُ المرأة الوحيدة التي تنطلِق في رحلةٍ في مقصورة ضيِّقة كهذه في ميكروباص لقَطْع مئات الكيلومترات من الصحراء وسط رجال لا يتحدَّثون إلا السيوي والعربية. أعترف، رغم كل حُسن نيتي، كنتُ متوترة.

انطلقْنا حوالي الساعة ٤ وكنتُ أتظاهر بتجهُّم وجهي. كنتُ متوترة للغاية لدرجة أنني بدأتُ في الصلاة، وهو ما يُريحني دائمًا. شاء الله أن نتوقَّف قبل أن نُغادر البلد لتصعَد معنا عائلة صغيرة مكوَّنة من أبٍ وأم وطفلة صغيرة جدًّا، وقد طمأنني ذلك، على الرغم من أن حجم السيدة، المُحجبة قدْر الإمكان، كان يُغطيني. على أي حال، حافظتُ على تجهُّم وجهي الذي ازداد حتى تعبيسًا في نقطتَي تفتيش حيث أنزل الجنود الجميع وفتشوا الحقائب وبين المقاعد بحثًا عن شيءٍ غير معروف. لماذا لا يثقون بي كما أثِق بهم؟ بقينا نحن الاثنتان والطفلة النائمة على متن الحافلة. كرهتُ فكرة أنهم يُدخلون أنوفَهم في حقيبتي، وعندما أوقفونا للمرة الثانية، تصاعد غضب شديد إلى عينيَّ لدرجة أنني بالكاد حبستُ دموعي. علامة على الرفض، بعد أن أظهرت أبشع نظرة تمكنتُ من التعبير عنها،

لففتُ نفسي بالكامل في كفيتي وأرسلتُ أيضًا إلى الجحيم الكرةَ الحمراء الضخمة التي كانت تغرَق في الرمال عند الأفق دون أن تضع كلمة «نهاية» لذلك اليوم الذي لا يزال طويلًا وثقيلًا.

ولكن أعادني إلى الهدوء، جاذبًا انتباهي من طرف عيني، بريق النجم الأول للمساء، على يساري، هناك في السماء التي لا تزال صافية.

كنتُ أشعر بالبرد وقدرتُ حجم السيدة التي كانت تُدفئني بطريقةٍ ما من جانبٍ واحد. قرأتُ، وغفوتُ، وأكلتُ، وأثناء توقُّفنا عرضتُ رقائق البطاطس على جارَتي التي قبلَتْها وأخفتها خلف حجابها الأسود. لم تُصدِر حتى صوتًا، يا تُرى هل أكلتها حقًّا. على أي حال، لقد أعجبتها لأنها بادلتني على الفور ببسكويت هش، وبعد تلك الكلمات الأربع التي تبادلناها بعربية غير مُتقنة من كِلا الطرفَين، اكتسبتُ دعوة لزيارة منزلها! كنتُ سأقبل بكل سرور. ربما كنتُ سأرى وجهها ... لكن ربما عليَّ أن أنتظر حتى تتعرَّف عليَّ، وعلى أي حال لم يكن لدَينا الكثير لتقوله إحدانا للأخرى حيث لا بد أن نكتفي بكلماتي العربية القليلة. يا تُرى هل كانت تبتسِم، هناك خلف عباءتها؟

كانت السيدة بمثابة تأكيدٍ آخر لنظريَّتي حول حُسن ضيافة المصريين. لفتة لطيفة واحدة تمحو على الفور عشر تصرُّفات غليظة وتُدفئ.

وصلتُ إلى وجهتي مُغطاةً بطبقة سوداء، تتناسب تمامًا مع الظلام الذي يُحيط بكلِّ شيء، مُنفعلة، مُنفعلة للغاية.

أتذكَّر أن المرة الأولى التي وصلتُ فيها إلى هذا المكان، مع صديقتَين إيطاليتَين، تملَّكنا إحساس خفيف بالإحباط ولم نتمالك أنفُسنا من أن نقول: «ولكن أين انتهى بنا المطاف؟!» ثم، جاءت بركة هطول أمطار مفاجئ في الليل إلى آذاننا كعلامةٍ على أن شيئًا سحريًّا يحدث، أو على وشك أن يحدُث، وكان الأمر كذلك بالفعل: مع المطر وصلتُ إلى الواحة التي بها وجدتُ مصيري، وسرعان ما تلاشى الظلام. أنا وصديقاتي وقعْنا في حُب هذا المكان، لكنَّني وحدي حالَفَني الحظ بالعودة إليه مرات عديدة، بعد ذلك.

وبالفعل، كنتُ الليلة الماضية وحيدة، لكنَّني لم أشعر بالوحدة: كان الأمر بمثابة عودةٍ إلى الوطن. قلبي بصمتٍ يصرخ: «لقد عدتُ!» وكل جزء مني يبتسِم. بعد كل هذا التوتُّر أشعر الآن فقط بفرحةٍ غامرة للعثور على نفسي مرةً أخرى في تلك الجنة حيث عشتُ سنواتٍ عديدة من السعادة، حيث التقيتُ وتعرَّفتُ على أجزاء من نفسي لم أكن أعرفها. تركنا قلوبنا هناك، والآن، أنا هنا لاستعادتها، بطريقةٍ ما.

بمجرد نزولي من الحافلة، توجَّهتُ مباشرة إلى فندق يوسف، ووعدتُ نفسي برؤية كل شيءٍ آخر بعد نومٍ جيد، مع ضوء الشمس، ولحُسن الحظ وجدتُ الغرفة التي طلبتُها من المالك عبر البريد الإلكتروني منذ أسابيع جاهزة. أصبح المبنى أكثر حداثةً عما تركتُه. قبل سنوات عديدة، خلال موسم الاحتفال السنوي الكبير بالمُصالحة الذي يُقام في أكتوبر، تكون جميع الفنادق القليلة في القرية مكتظَّة. تمكَّن سلامة من العثور على مكانٍ لي في الطابق الأول من فندق يوسف، فيما كان مخزنًا للأغطية، والذي اقتطع من الممرِّ وأُغلق بجدارٍ من الخشب الرقائقي يُغلقه باب بلا مفتاح ... كان لديَّ كيس نومي، وحقيبة من القماش القوي وأكوام من الأغطية، لا شيء آخر. لكن كانت توجَد شرفة تُطلُّ مباشرة على مطعم عبدو: هل هناك منظر أفضل من هذا؟ استخدمتُ واحدة من تلك الأغطية لسدِّ الشقِّ الذي كان ينفخ منه الهواء البارد من النافذة المشقوقة في الشرفة، واستمتعتُ بالحرية. كانت الشرفة نفسها التي تمنَّيت العثور عليها عندما طلبتُ غرفة من سلامة منذ فترة. وبالفعل تحققت أمنيتي، على الرغم من أن الغرفة هذه المرة غرفة حقيقية، يوجَد بها سرير، وكومودينو، وطاولة، وكرسيان، ومرآة وخزانة صغيرة، والحمام في الممر. في غضون وقتٍ قصير ستمتلئ الفنادق بأشخاصٍ من جميع أنحاء العالم لرؤية الكسوف. لكن لا أحدَ منهم لدَيه توقعاتي، أنا متأكدة من ذلك. لا أحد يُمكن أن يكون قد وضع في هذا الكسوف، الذي وُلِد أولًا في حكايات حكيمٍ عجوز، ثم في أحلامها (الآمال) التي وضعْتُها أنا فيه قبل أن يولَد في السماء.

لم أكن أعرف الشاب الذي يعمل في الاستقبال، لكنه كان لطيفًا ويبدو أنه فهم من أنا: عميلة قديمة، صديقة سلامة. والذي كان خارج سيوة لأعمال. على الرغم من إثارتي، فقد نمتُ في غضون ثلاثين ثانية، مع صلاة شُكرٍ على شفتي، وفي الصباح كان الانفعال لا يزال موجودًا، حيًّا وحاضرًا، مما جعلني مُمتنةً وسعيدة ومتلهفة.

كان لقاء عبد الله مرة أخرى تجربة قوية ومُمتعة. عندما نزلتُ لتناول الإفطار في مطعم عبده، فوجئتُ بخبرٍ سيئ: عبده لم يعُد بيننا. عبده في الملكوت الآخر، بالتأكيد في المكان الذي تحفظه الجنة لِمن فعل الخير للكثير من الناس بإطعامهم طعامًا جيدًا. المطعم لا يزال يحمل اسمه، وعلى الحائط صورة له مؤطَّرة. يا لها من خسارة ...! تذكرتُ فورًا جد بابلو، الذي كان مُسنًّا أيضًا في ذلك الوقت. كنتُ أخشى أن أسأل، فقد مرَّ وقت طويل منذ أن تلقيتُ أخبارًا عنه، لكنني كنتُ أشعر أنني سأراه.

ظهر عبد الله فجأة خلفي، تعرفتُ على صوته الذي يُحييني بالاسم السيوي الذي أطلقه عليَّ: «كوكا». قدَّم لي وردةً وردية، وقلتُ له إنني ما زلتُ أحفظ الوردة التي قدَّمها لي في إحدى الليالي منذ سنواتٍ عديدة. تبادلنا التحية ونحن نُحاول العثور على أنفسنا تحت قشرة الزمن. لكنَّنا لم نتغيَّر كثيرًا. أصبح لدَيه بعض الشعر الأبيض، لكن بشرته شابة، لا تتوقَّعها على رجلٍ يعيش في الصحراء. قال إنني جميلة ورائعة مثل الوردة التي أهداها لي.

الكثير من الأشياء لأقولها، لأرويها، وفي الوقت نفسه يبدو الأمر كما لو أنَّنا افترقنا للتوِّ. هكذا يحدُث بين الأصدقاء. بعد وجبة فطورٍ شهية، ذهبنا في جولةٍ طويلة حول سيوة على متن سيارة جيب كبيرة، وأعترف أنني شعرتُ عدة مراتٍ بضيقٍ في حلقي عندما رأيتُ مقدار ما قاموا بتغطيتِه بالأسفلت، ومقدار ما بنَوه، وشوَّهوا جماله بحجةِ ما يُسمى «التقدُّم». لكن الضيق في الحلق كان أمرًا لا مفرَّ منه حتى في اللحظات التي تعرفتُ فيها على الزوايا والمناظر الثابتة في ذكرياتي. «شالي» المدينة القديمة، قلعة ضخمة من الرمال تقاوم على الرغم من مرور الزمن وقوة الظروف الجوية القاسية. شالي هي سيوة. مساحات النخيل المُحملة بالتمر، صوت الحمير، السوق الملوَّن بسلال الخضروات والفواكه، العربات، الفتيات ذوات الضفائر، الجمال، السلام، الأفق الذهبي، كل هذا هو سيوة.

أشعر بسعادة غامرة لدرجة أنني لا أعرف إذا كان يمكن أن تزيد سعادتي عن ذلك. ربما قليلًا فقط.

أنا سعيدةٌ بأنني وجدتُ هذه الغرفة: المساحة التي حولي تستوعب كل أفكاري، لا ينقُصني شيء. استمتع بالشمس أيضًا ... الشرفة هي بمثابة منصَّة ملَكية أمام خشبة المسرح، وأنا في مُشاهدةٍ وشخصيةٌ في المسرحية في الوقت ذاته. يُحييني الناس في الشارع ولا يُمكنني أن أشعر بالوحدة حتى وأنا داخل الغرفة. أعشق كل صوتٍ والأصوات الهادئة للسكان، أعشق ابتساماتهم وصرير عرباتهم، أعشق عيونهم الصافية العميقة وأطفالهم المرِحين. صوت المؤذن الذي يُنادي للصلاة. أعشق الريح المُنعشة وأشعة الشمس التي تُدفئ وجهي عبر النافذة، وتُضيء لوحة مفاتيح حاسوبي بينما يتسلَّل الرمل ويصرُّ. يا له من سلام رائع! مرة أخرى أنا مُقتنعة بأن كلمة «سلام» هي حقًّا واحدة من أجمل الكلمات، وأن سيوة هي مرادف لها. سلام سُكانها الممزوج بسلام المسافرين من جميع أنحاء العالم الذين يلتقون هنا ويندمجون، في البساطة، وفي الجوهر، وفي التناغُم. أنا فخورة بأنني واحدة من هؤلاء المسافرين. مهما حدث أو سيحدُث، لا يُمكن لأحد أن يسلب منِّي هذا السلام. ويا له

من أمرٍ مُدهش أنني كنتُ أحرم نفسي من متعة السفر! لا توجَد أي سعادة في حرمان الذات.

أريد أن أرى الجميع مرة أخرى، وألتقي بهم، وأعرفهم، وأخشى التغييرات، لكنَّني أعلم أيضًا أن التغييرات جزءٌ من الحياة. لا يمكن لأحدٍ أن يتمنَّى حياةً ثابتة في مكانٍ ثابت.

كنتُ أخشى أيضًا تغيُّراتي الخاصة، كنتُ أخشى أن أفقد صفاء العشرين من عمري، وإثارة الاكتشاف. لقد كبرت، علَّمتني الحياة الكثير من الأشياء وكنتُ أخشى أن أكون غير قادرةٍ على الغَوص في الجمال كما اعتدت. طوال هذه السنوات كنتُ أفكِّر في سيوة بطريقةٍ معينة؛ كان لديَّ الكثير من الصور والتخيُّلات في ذهني وكنتُ أتساءل عما إذا كانت الواحة موجودة كما كانت في الواقع أو كانت فقط في ذهني. بغض النظر عن مدى تغيُّرها، لم تُخيب سيوة ظنِّي. الصحراء لن تُخيب ظنِّي أبدًا. كيف تُغير الصحراء في عشر سنوات؟ لا يمكنك تغييرها، ولا يُمكنك تدميرها، يمكنك فقط العثور عليها مرة أخرى، والانحناء أمام عظمتها. تتغيَّر ببطءٍ شديد، تتحرك كثبانها الرملية الضخمة ببطءٍ وأفكر في الوقت الذي ستُغيَّر فيه سيوة. حبة تلو الأخرى، كثيبًا تلو الآخر، ستُغطَّى سيوة بالرمال، مثل زرزورة، وستختفي مياهها وتتشتَّت، وسيبحث المسافرون عن كنوزها. كم من الكنوز تُخبئها الصحراء ... لا أستطيع ولا أريد أن أُفكر في متى سيحدُث ذلك. الحياة هي ما نحن فيه الآن وسيوة مفعمة بالحياة، ومياهها النقية هي عصب هذه الطبيعة الخصبة والغنية. أشعر بأنني حيَّة بقوة وأنني غنية، مثل نخلة خضراء مُحملة بالتمر.

بدأ هواة الفلك في الوصول، يحملون آلات التصوير حول أعناقهم، وتلسكوبات، وحوامل ثلاثية، ومعدَّات مِن جميع الأنواع. أنا أهرب. بغض النظر عن موعدي مع القدَر، أعتقد أن حدثًا مثل كسوف الشمس الكُلي يجب أن يُعاش تقريبًا بشكلٍ روحاني، في تأمُّل، دون قلق التصوير. الصحراء تسمح بذلك، لديها مساحة للجميع. سأحتاج فقط إلى اختيار كثيبي الخاص والتمركُز فيه.

لكن كيف سأعرف ما إذا كان بابلو موجودًا؟ وإذا كان يبحث عني، فكيف سيجِدُني؟ في الأحلام والأفلام، تكون بعض اللقاءات دائمًا في الوقت المناسب ومثالية، ولكن في الواقع، ستغزو الحشود سيوة والمساحة المحيطة بها. عند سفح تلٍّ دكرور، على أطراف القرية، تنمو الخيام مثل الفطر. المنتجعات الجديدة بالقُرب من البحيرات المالحة مليئة بالنزلاء. أنا مشوَّشة بعض الشيء، لكنني هادئة.

شجعتُ نفسي وذهبت لرؤية حديقة عبد الله. نمت النباتات، وازدادت الزوايا المُظلَّلة، وأصبح الجناح مَخفيًّا تقريبًا خلف الخضرة وأزهار الكركديه. كان الأمر ساحرًا. قوة ذكرياتي مُذهلة. سألت عن جدِّ بابلو وأخبرني عبد الله أنه على قيد الحياة وبصحَّةٍ جيدة نسبيًّا بالنسبة لعمره. فرِحتُ وشعرتُ بوخزةٍ صغيرة في قلبي عند التفكير في أنني قد أراه. لكن هل سيتذكَّرني؟ يا له مِن أملٍ أن يتذكَّر!

استغرق الأمر بعض الوقت وقضيت بقية الظهيرة مع علوش اللطيف؛ ذهبتُ إلى منزله ومتجره. يبيع أشياء نموذجية في سيوة، ورأيتُ والدته وأخواته وربما خالاته في المنزل، يُخرجنَ إبرةً ويَحيكون أشياء جميلة. قدَّموا لي كركديه باردًا وحُلوًا جدًّا، واختفوا بخجلٍ في الغرف الداخلية.

أنا جالسة الآن في مطعم عبده ومعي التابلت، لأكتُب يومياتي وأرسل رسالة إلى نورا. أكلتُ أرزًا ممتازًا بالخلطة وأنا أنتظر الباتيه والخضراوات. ثم سأحتاج إلى قهوة. أودُّ أن أصف مائة ألف إحساس، لكنني لا أفعل ذلك. ربما لأنني حتى لو كنتُ جالسةً هنا على الطاولة، فإن عينيَّ وأُذنيَّ تلتقطان باستمرار كل ما يحدُث حولي. إنه عالم صغير مُفعم بالحركة وأنا لا أريد أن أفقد منه أي جزء. يقول علوش، الموجود هنا معي، إنني أعرف الكثير من الناس، ويرى ابتسامات الترحيب التي يمنحها لي المارة، ولكنه بالأحرى هو الذي يُحيي كل من يراه. لقد حيَّا للتوِّ بحماسٍ رجلًا مميزًا، لا أعرف كيف أُحدد عمره، يبدو أنه عاد لتوِّه من الصحراء حيث يُقيم عادةً لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر لرعاية قطيع من الإبل، ويعود فقط من حينٍ لآخر لزيارة أُسرته. أنا مذهولة، لكن علوش يبتسِم بحقٍّ ويقول إن هذا طبيعي بالنسبة لبدوي. الطبيعي نِسبي للغاية! في نظر الراعي، أنا بالتأكيد أغرب، فأنا أعيش في عالم يُستعبَد فيه المرء للساعة والتكنولوجيا والموضة، ويحشو نفسه بالطعام ولم يعُد قادرًا على الاستماع إلى الصمت.

أريد أن أستخدم كلمة «استثنائي» لأن كل ما أعيشه لا يُمكنني وصفه إلا بذلك، ليس فقط لعدم دخوله في المألوف، ولكن لكونه مُدهشًا وفريدًا. حتى الكسوف، الذي سيتكرَّر مُطابقًا في عام ٢٠٦٠م، لن يكون استثنائيًّا لولا أنه مُصاحب لأحد عشر عامًا من الحُب «المحفوظ» وموعد كاشف.

أعترف أنني أشعر ببعض الانزعاج من رؤية سيوة تمتلئ بكل هؤلاء الناس، لكنني في الوقت نفسه أعتقِد أنني إذا وجدتُ نفسي خالية الوفاض، مُحبطة ومتروكة نهائيًّا، فإن هذه الحشود المُتنوعة من الناس ستُساعدني على تشتيت انتباهي.

فجأة نهضتُ من الكرسي وقلتُ لعلوش الذي كان يُدخن الشيشة غير بعيدٍ عني: «سأذهب لزيارة كريم العجوز، جد بابلو». - «هل تُريدينني أن آتي معك؟» أجاب. ربما كان يعتقِد أيضًا أنه سيكون مُفيدًا لي كمُترجم. قلتُ: لا، سأذهب مع عربة علي وسينتظرني هو وحماره هناك. سأبقى قليلًا، كنتُ أرغب فقط في رؤيته والعثور فيه على القليل من بابلو والسحر النائم.

كانت الرحلة على متن العربة مُمتعة للغاية كالمعتاد على الرغم من أنها كانت مليئةً بالصدمات، وقد صرفتني عن الشعور بالقبضة في معدتي بسبب القلق من اللقاء. يبدو أن كلَّ شيءٍ بقِي كما هو في هذا الجزء من الواحة. عند الوصول إلى أشجار النخيل الكبيرة أمام الجدار الأبيض لحديقة الجد، أوقف علي العربة وقال لي: «سأنتظِرك هنا». ابتسمتُ، وأخذتُ نفسًا عميقًا وأطللتُ من خيمة المَدخل، مُحييةً دون أن أرى أحدًا في الشفق الداخلي. بقيتُ لحظةً في الانتظار وجال نظري إلى باب غرفة البيانو، المُغلق. ابتلعتُ، كأنني سأستأنف التنفُّس، لكنَّ قلبي توقَّف حقًّا عندما سمعتُ صوتًا يقول بالعربية: «يا شمس، كنتُ أنتظركِ، الحمد لله، لقد وصلتِ».

بعد تلك الصدمة الأوَّلية، أعتقدتُ أن كريم العجوز، لأن الصوت كان صوته بالتحديد، قد أخطأ في هويتي. على أي حال، لقد وصلتُ إلى هنا بعد أحد عشر عامًا، فجأة، لا يُمكن أن يكون يَقصدني! لكن ... صوت الخشب تحت خطواته سبق لحظةَ ظهوره أمام عينيَّ ووجهه المُتجعِّد والمُبتسِم لم يتغيَّر تعبيره عند رؤيتي: «اتفضلي، أهلا أهلا أهلا، يا مايا!» في هذه اللحظة فغرتُ فمي وأخذَتِ الأفكار تتدفَّق كالنهر من رأسي مُتداخلة، ولكن كلها بالإيطالية، بينما أُتمتم بشيءٍ مُحاوِلةً أن أسأل كيف ولماذا كان ينتظرني.

يفهم ذلك، ويُشير إلى السماء ويُكرر: «الكسوف! الكسوف!»

لا يُمكنني أن أُصدِّق أنه يُشير إلى وعد بابلو. لا يُمكنني أن أُصدِّق أنه كان ينتظرني حقًّا، لكن مِن فمي المفتوح على اتساعه يخرج اسم بابلو من تلقاء نفسه، كما لو كنتُ أرغب في السؤال عما إذا كان هناك رابطٌ بين الأشياء المختلفة. في هذه الأثناء، تسارَع نبض قلبي بشكلٍ ملحوظ. يُجيب الجد كريم بوجهٍ ملائكي أكثر من كلماته. أفهم أنه لا يعرف شيئًا عن بابلو، لكنه يقول إنني يُمكنني الذهاب إلى معبد آمون للسؤال عنه. أتنهَّد وأبتسِم، يا له من أمرٍ مُضحك، معبد آمون ... مثل قدماء المصريين. عندما رآني مُحبطة، أشار إليَّ بالانتظار ودخل المنزل. عاد بعد ثوانٍ قليلة وبيدِه الكوب الأزرق. ذلك الكوب الأزرق؟ صدمة أخرى، ثم قلتُ لنفسي ربما يُريد فقط أن يُقدِّم لي قهوة. «لا لا، شكرًا»، وأشرتُ إلى

الساعة لأُفهِم أنه عليَّ الذهاب. لكنه هزَّ رأسه وأشار إلى نقطةٍ مُحددة في الكوب مُشيرًا إلى الكسر. لا يُمكنني أن أُصدِّق: أخذتُ الكوب ونظرتُ إليه جيدًا في الضوء. يُمكن رؤية خطٍّ خفيفٍ جدًّا يتوافق مع النقطة التي انكسر فيها، بين يدَيه. سبق أن قال إنه سيعود سليمًا، جديدًا، وهذا ما حدث. نظر إليَّ بتمعُّن. كان يُشير إليَّ أنا وبابلو، أعرف ذلك، أقرؤه في عينَيه، لكنني أخشى بجنونٍ أن أُصدق ذلك وأعرف أن هذه المرة لكن أكون مُحبطة وحدي، ولكن هو أيضًا معي، كريم المسكين، ضحية خيارات ابنه وحفيده الطائشة.

أبتسم وأخفض نظري. لم أسأله حتى عن أحواله ولم يُقدِّم لي لا شايًا ولا أي شيء، بل دفعني إلى الخارج مُشيرًا إلى اتجاه معبد آمون. ربما لا يتعدَّى الأمر سذاجة رجلٍ مُسن، لكنني في الوقت نفسه أتمنَّى بشدة ألا أكون قد حلمتُ لمدة أحد عشر عامًا لدرجة أن أُغيِّر حُكمي وأقول لنفسي إنني بالتأكيد أمام شخصٍ حكيم جدًّا وساحر أيضًا، قليلًا كما هو الحال في الواقع مع جميع كبار السن، لكنَّنا ننسى ذلك غالبًا بسبب غطرستنا المُتغطرسة كشباب. تذكرتُ قصته عن الشمس والقمر وثقته في إخباري، في ذلك الوقت، بأنني وبابلو سنلتقي مرةً أخرى.

الخلاصة، في النهاية أُحييه بكلماتٍ قليلة ونظرات طويلة وأقول لعلي: بسرعة! لنذهب إلى معبد آمون! لا يُمكنني أن ألتقط ردَّ فعل سائقي، لكنني أُقسِم أنه هزَّ رأسه. على أي حال، فإنه وحماره شديد اللطف يُوصِّلانني إلى حيث طلبتُ، في دقائق قليلة. يبدو لي، في بعض الأحيان، أنني فقدتُ عقلي، تحولتُ لطفلةٍ تلعب لعبة البحث عن الكنز، وفي أوقاتٍ أخرى أشعر وكأنني داخل فيلم. في كلتا الحالتَين، حلَّت الابتسامة محل قلقي وبدأت أضحك على نفسي، وأنا أتمايل نحو معبد آمون كما فعل الإسكندر الأكبر والعديد من الشخصيات التاريخية اللامعة قبلي.

كم مرة مررتُ مِن هنا بالفعل، مع كم مِن الأشخاص، في كم مِن اللحظات المختلفة مِن شبابي! ومع ذلك لم آخُذ قوة العرافة على محمل الجد. لا أعرف كيف أشرح لعلي. سألتُه كيف يعمل، إذا كان هناك إجراء يجب اتباعه، أو طقوس. أجابني، بهدوء غامض، «اسألي فقط»، وهكذا أفعل، على أمل ألا يكون هناك أحدٌ في الجوار بينما أنفصِل للحظة عن الحياة الواقعية. أنزل من العربة، علي يحترمني وأُحب أن أعتقد أنه لا يحكُم عليَّ. أتقدم بضع خطوات وأشعر أنني خارج الزمن. أحاول تفريغ ذهني لكنه يزدحم بالتاريخ وبالقصص، برجال أقوياء للغاية لم يخجلوا بالتأكيد من سؤال العرافة بتواضُع عما سيكون مصير

تلك المُهمة، أو تلك المعركة أو ذلك الحُب. أشعر أنني مجرد إنسانٍ آخر يعترِف بحدوده ويطلُب المساعدة، كما في الكنيسة، كما في المسجد، كما كان يفعل البشر الأوائل تحت السماء المُرصعة بالنجوم إلى ما لا نهاية، كما نفعل جميعًا، عندما نكون مليئين بالرغبات والمخاوف، والآلام، والآمال، والمجهول. هل يجب أن أبقى أمام تلك الأحجار المكسورة وأُكرر السؤال الذي عبرتُ عنه للسماء لسنواتٍ وسنوات؟ حسنًا، حسنًا، سأفعل هذا أيضًا. لا أتلقَّى أية إجابات، ولكن يتبادر إلى ذهني صورة، لأنه عندما يفرغ المرء نفسه ويُعريها، فإنه يرى الإجابات والإمكانيات في نفسه: كتاب الذكريات في فندق يوسف! سأجد الإجابة هناك! أنا في سيوة منذ يومَين، وأُقيم في ذلك الفندق ولم يخطر ببالي حتى أن أنظر!

«علي، لقد انتهيت ... لنعد إلى وسط المدينة، من فضلك!» لا أعرف كم من الوقت مر، سواء كانت ثواني قليلة، أو دقائق، أو كم؛ أعرف أن عليًّا ملاك صبور كان يحرسني دون قيدٍ أو شرط.

عندما عدتُ إلى القرية، حَييتُ عليًّا وشكرته، وفي هذه الأثناء جاء علوش ليقترح عليَّ الذهاب لمشاهدة غروب الشمس في جزيرة فطناس، وسط البحيرة المالحة الكبيرة، كما فعلنا مراتٍ سابقة، في أزمنة أخرى. أودُّ أن أقول له إن المعبد أوحى لي بتفقُّد كتاب الذكريات، لكنني أشعر أنه سيكون من غير اللائق، بالإضافة إلى صعوبة شرح ذلك، لذلك تركتُه يُقنعني وأجلتُ بحثي. غروب شمسٍ خلَّاب مع الأصدقاء أفضل من كتاب ذكرياتٍ قد يحتوي أيضًا على إجابةٍ سلبية أو حتى لا يحتوي على أي دليلٍ مُثير للاهتمام. غروب الشمس في فطناس والشكوك التي تُراودني منذ ساعاتٍ أفضل من خيبة أملٍ عشية الكسوف.

يُرافقنا إلى جزيرة فطناس سائق الميكروباص الذي أتيتُ معه من مرسى مطروح إلى سيوة. يُوصلنا إلى هناك بلا أي مقابل، على سبيل الصداقة، وهو أيضًا مُشاهد أمام الجمال الذي تُقدمه الطبيعة الأم بسخاء. لكن ... بمجرد أن نصل، يبدأ المطر في الهطول! لا يُمكنني أن أُصدِّق ذلك، ومع ذلك ليست هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها المطر يَهطل في سيوة. أقول لنفسي «لو غامت السماء غدًا، أعتقِد أن هواة الفلك الذين هرعوا إلى هنا سيَقدرون على إزالة السُّحب بأيديهم، إذا لم يفعلوا ذلك بشتائمهم!» لكن الأمر لا يسير على هذا المنوال في الصحراء. احتمَينا تحت أشجار النخيل وابتللنا رغم ذلك. الجو جميل. لا نشعر بالبرد. وصل أيضًا بعض السيَّاح ذوي الشعر الأحمر، أكثر احمرارًا من شعري، رأيناهم

يمرُّون بالدراجة، جميعهم مُبتلُّون ومُندهشون من المطر غير المُتوقَّع. تجعل الريح أشجار النخيل تُغنِّي: شيء رائع، صوت يشبه صخب البحر البعيد. أشعر بالسعادة أنني أعيش هذه اللحظة ولأنها بالفعل لحظة مُميزة حتى بالنسبة لسكان سيوة والمصريين. مطر في الصحراء! ذلك أن سيوة لها ألف وجه، كلها وجوه مختلفة جدًّا، ولكنها كلها مُبتسِمة!

جئنا لمشاهدة غروب الشمس، ويبدو أن الجميع يقولون لنا: «ألم ترَوا أن السماء مُغطاة بالغيوم؟ لن ترَوا أي غروب.» ونحن أيضًا نقول ذلك لأنفسنا، هنا تحت الفروع. ثم تشرق الشمس وتُقدم لنا عرضها، الذي يزداد إثارة من لحظة إلى أخرى. لقد أصبحت كبيرة وبرتقالية مثل البرتقالة التي قدَّمَها لنا شابٌّ من جنوب أفريقيا، جاء بالدراجة؛ برتقالية مثل لون شعره. تخترق الشمس سحابة وتغرق ببطء خلف التلال، مصحوبة بصمتِنا الديني.

في هذه اللحظات، يعيش كلٌّ منَّا بمفرده مع شمسه، أمام إلهه الخاص، وأعتقد أن للملائكة أيضًا حضورًا خاصًّا في صمتنا. في الواقع، أنا مقتنعة أكثر فأكثر بأن الملائكة تسكن في سيوة، لأن هذا المكان يبدو وكأنه الجنة.

طالت الأيام بشكلٍ ملحوظ، ولكن حتى اليوم غربت الشمس بعظمة وتأمَّلتُها. تُرى هل تُدرك ما ينتظرها غدًا.

أودُّ أن أعتبر ذلك بمثابة بروفة عامة في انتظار العرض الاستثنائي الذي سيُفاجئها فيه القمر بعِناقه.

أكلتُ بسرعةٍ هذا المساء. أعتقد أن قلبي بدأ بالخفقان. كنتُ بحاجةٍ إلى الركض إلى سلامة وسؤاله عن كتاب الذكريات. لقد أشار إليه، بالقُرب من مكتب الاستقبال ولا أعرف كيف لم أُلاحظه من قبل. مُحاولةً عدم إظهار رغبتي في تصفُّحه عكسيًّا دون معرفة ما الذي أبحث عنه بالضبط، بقيتُ واقفةً أتصفَّحه لأرى متى يبدأ.

يعود تاريخه إلى أربع سنواتٍ مضت. مهمة شاقة وغامضة. وماذا عن السنوات السابقة؟ أين احتفظ سلامة بالكتب السابقة؟ في أحد عشر عامًا، كم مرةً عاد بابلو إلى سيوة؟ وإذا كان قد أقام مع جدِّه، فلماذا كان عليه أن يكتب في الكتاب الكبير للفندق؟ يمرُّ من هنا سلامة بالذات بينما أواصل تصفُّحه بعصبية هنا وهناك ويسألني عما إذا كنتُ أبحث عن شيء ما.

أقول له: نعم، لكنَّني لا أعرف ماذا.

يضحك ثم يسألني: هل يُمكنني مساعدتك؟

– لا أعرف. متى رأيتَ بابلو كريم لآخِر مرة؟

في كل هذه السنوات، لم يُصادف أن نطقتُ باسمه بصوتٍ عالٍ إلا مرات قليلة جدًّا، صوتي نفسه يُفزعني وأنا أسأل عنه. ينظر سلامة إلى الأعلى ويخدش ذقنه كما لو كان يبحث في زاوية من الذاكرة، وهو ما يُوحي بالفعل بأن اللقاء الأخير لم يكن قريبًا.

– بابلو كريم … الموسيقي، بالطبع … أعتقد أنه يأتي مرةً واحدة في السنة تقريبًا لزيارة جدِّه. في بعض الأحيان يأتي في أكتوبر، من أجل المصالحة، كما تعلمين، لتكريم المصالحة مع جدِّه ومع نفسه، على ما أعتقد. ولكن أيضًا في فتراتٍ أخرى. منذ سنواتٍ جاء مع ميدو وأسامة للقيام بجولة في الصحراء، ولكن بالتأكيد قبل أكثر من أربع سنوات.

– وأنا أعلم ذلك …

أفكر بيني وبين نفسي، بينما تظهر لي كذكرى كابوس صورة الرسالة التي لم تُرسَل.

– ربما لم يتمكَّن من المجيء كل عام، أو ربما لم أعلم أنا بذلك. نحن في سيوة نعرف دائمًا من يصِل ومن يرحل، لكنه يبقى قليلًا جدًّا. يُمكن سماع عزفه، إذا كانت الريح تهبُّ من هناك. عزف جميل جدًّا.

أشعر بالضِّيق عند التفكير في أن شخصًا ما كان يُمكن أن يُخبرني، عامًا بعد عام، بأن هذا الرجل كان حيًّا وبصحَّةٍ جيدة. ولكن ما يُزعجني أكثر هو أنه طوال تلك الفترة كان يرى أصدقائي في سيوة ولم يسأل عنِّي أبدًا. كان من الأسهل تقريبًا التفكير في أنه اختفى من بُعدي وأنه لا يُوجَد أحد في العالم على اتصال به. ربما، نظرًا لأنني لم أردَّ أبدًا على رسالته، حذفني هو من مجاله. ولكن إذن، هل أنا متأكدة من أنني أرغب في الحصول على أخباره أو حتى رؤيته مرة أخرى؟ وماذا لو دمرتُ إلى الأبد ذكرياتي المثالية ورؤيتي للحُب بحروف بارزة؟ هل أنا متأكدة من أنني أرغب في خوض هذه المخاطرة أيضًا؟

– ألم يسأل عنِّي أبدًا؟ أو في أي حديثٍ لم يظهر اسمي، أو كما أعرف، إشارة إلى العام الذي جاء فيه إلى سيوة لأول مرة؟

– مم … لا يبدو لي ذلك، كنتُ سأتذكَّر ذلك. لكن لم يُصادف أن تحدَّثت معه.

يبتسِم سلامة عند التفكير في الموسيقى في الهواء، وأنا أيضًا، أتخيل ذلك مع شعورٍ بالضيق في حلقي وأتذكَّر ذلك المقطع الصوتي المؤثر مع السحر الذي كان يملأ الصمت بين حفيف النخيل وأصوات الحيوانات. وإذا كانت الريح تهبُّ في الاتجاه الآخر، فإن الصحراء كانت تبتلِع نغماته.

كل شيءٍ جميل جدًّا، كل شيءٍ مُثير للاهتمام للغاية، ولكن ... لماذا قال لي العراف أنْ أنظر في كتاب الذكريات؟ وما الذي أقوله؟ العراف لم يقُل لي أي شيء! يا لخيالك الجامح!

أنظر بتنهيدةٍ إلى الصفحات التي لا تزال يدي مترددةً عليها، وعندها يقول سلامة، الذي لا يُدرِك القوة التي يمتلكها على جهازي العصبي في هذه اللحظة:

– آه، لكنه كتب شيئًا هنا أيضًا ذات مرة! هل كنتِ تبحثين عن ذلك؟ كيف عرفتِ؟

– لا ...! لم أعرف! كان الأمر كذلك، مجرد فرضية ... لم أسمع عنه طوال هذه السنوات، أنا سعيدة بمعرفة أنه بخير. رأيتُ جدَّه، منذ قليل.

أنا أُصدق الصوت الذي سمعتُه في المعبد، لكن الجد كريم يعتمد على الكوب الأزرق: لستُ الوحيدة التي تُصدق الحكايات الخرافية.

أنا أرتجف بالفعل، مُتظاهرةً بالطبيعية، وأُقلِّب الكتاب الكبير. وأنا على وشك أن أُصاب بالذُّعر، أنظر إلى سلامة وأتوسَّل إليه: ساعدني يا صديقي! أتتذكَّر أنني وبابلو كنا نُحب بعضنا بعضًا؟ لم أنسَهُ أبدًا، أنا بحاجةٍ إلى معرفة ما إذا كان لا يزال يتذكَّر ما عشناه. أعترفُ يا سلامة، لكن من فضلك، لا تُخبر أحدًا: أنا ما زلتُ أُحبه، لقد جئتُ من أجل هذا ... الكسوف، الوعد، لم يتبقَّ الكثير، لكنه كتب لي رسالة، كان يرغب في العودة إليَّ، ولم أتلقَّها أبدًا، أو بالأحرى، لم أحصل عليها إلا قبل أيام قليلة، بعد تسع سنوات، ولم أردَّ عليه أبدًا ... أشعر أنني حمقاء، فلماذا سيأتي إذا لم أردَّ عليه أبدًا ولم أقُل له أبدًا إنني أُحبه كثيرًا؟ سأعرف غدًا! سأعرف غدًا ... ولكن إذا كان بالفعل في سيوة، فربما كنتَ ستعرف، أليس كذلك؟ لا توجَد موسيقى في الهواء هذه الأيام ...

أُناوِب بين النظرات المتوسِّلة والقراءات السريعة لإهداءات المسافرين وصديقي يبتسِم في صمت. أعتقد أنني أُثير شفقتَه، أو ربما حنانه، أو سيظنُّ أنني مُختلَّة بعض الشيء. يُمسك الكتاب الكبير بلُطف من يدي، ويركز، ويبدأ في تصفُّحه للخلف. ليس كثيرًا، ستة أشهر: نحن في مارس، لقد عاد في أكتوبر الماضي وهنا يتوقَّف سلامة بمزيدٍ من الانتباه. في هذه المرحلة، أنا من الخلف ألاحظ شيئًا مُميزًا بين الكتابات بلُغاتٍ أجنبية مُختلفة: انظري! مدرج موسيقي! هل يُمكن أن يكون هو؟

– نعم، بالطبع، يُمكن أن يكون ...

أقترب وترتجِف قشعريرة في ظهري بينما أضيع في ذلك الخط من الحبر، وأتخيَّل حبيبي مُنحنيًا على تلك الورقة نفسها قبل أقل من ستة أشهر. مفتاح صول ومقطع قصير من المدرج الموسيقي. نغمة واحدة فقط، مُكررة: صول.

صول. ثم فقط الأحرف الأولى من اسمه .P. K

أنا في طريق مسدود. ما الذي سأفعله بنغمة واحدة، مع كل الاحترام للموسيقى ومُتعة رؤية علامة حياة؟

– الصول[١] ...

أُكررها تقريبًا بيني وبين نفسي بحثًا عن مفتاح للقراءة. يُردد الشاب الواقف في مكتب الاستقبال وهو يسمعني أُكرر «صول»، وهو يلحِّن ويتحرك خطوات راقصة:

Cuando calienta el sol aqui en la playa. Es tu palpitar, tu recuerdo, mi locura ...

يُغني ويرقص ثم يسألني: هل تتحدَّثين الإسبانية؟

هذا هو المفتاح إذن! إل صول! الشمس! الجد كريم حيَّاني مُخاطبًا إياي بـ «شمس» وقال إنه كان ينتظرني!

هنا يُصبح الأمر في غاية الخطورة، هنا ينتهي الأمر بزيادة توقُّعاتي وأخاطر غدًا بتلقِّي ضربة قوية، خيبة أمل القرن.

[١] Il Sol: مفتاح الصول في الموسيقى وتعني الشمس أيضًا بالإسبانية.

رسالة عشية يوم الكسوف

سيوة، ٢٥ مارس ٢٠٠٦

تلك الليلة التي قضيناها جالسين على السور الأبيض في القرية بعيدة جدًّا الآن، ومع ذلك فهي صورة لا تتزعزع؛ فهي ذكرى جميلة. ما الذي سأفعله بكل هذه الذكريات إذا كنَّا سنبقى إلى الأبد في أبعادٍ مختلفة؟

هل الذكريات حقًّا بهذه القيمة؟

لم أعُد شابة كما كنتُ في تلك الفترة، لكنني الشخص نفسه الذي يؤمِن بقوة المشاعر فوق كل مسافةٍ زمانية ومكانية، لكن في لحظاتٍ كهذه يبدو الأمر كما لو أن رياحًا قوية تُطيِّر بعيدًا، بشكلٍ مُربك، كلَّ المعنى الذي أجمعه في كل مرةٍ لتقبُّل حدود الأشياء ولأبنيَ آمالي. أجد المعنى دائمًا، لأنني لا أُحِب عدم التوازُن، لكن في بعض الأحيان تصِل إلى ذهني ومضاتٌ مثل ومضة الليلة، بينما أنا مُطلَّة على الشرفة، وكل شيءٍ يتطاير بعيدًا.

ما الفائدة من الانتظار طويلًا باسم حُب مُرتبط بلا شيء ملموس سوى الذكريات؟ ما الفائدة من قطع كل هذه المسافة عندما تكون المجازفة شديدةً، لدرجة أنني أُخاطر بأكبر خيبة أملٍ في حياتي؟ هل مِن المنطقي أن أطرح هذه الأسئلة بينما قد تكون أنت ببساطة نسيتَ حتى وجودي؟ هل مِن المنطقي أن أكون أنا فقط في النهاية من لديَّ ذكريات بهذه القوة، إلى حدٍّ أنها تُؤثر على حياتي العاطفية؟ والأهم من ذلك، أنني بنيتُ عليها فكرتي عن الحُب، وهي تلك الأعوام الأحد عشر الماضية ومُستقبلي أيضًا؟ هذه هي زرزورة. هذا هو عدم التوازُن الذي يضيق من حولي مثل رباطٍ يلتفُّ حول عنقي ببطء، ومن غير

المنطقي أنك لا تعرِف حتى أنك هذا الرباط، كما أنني لم أعرف أنك أردتَ العودة إليَّ عندما كان كل شيءٍ ممكنًا.

رياح الصحراء القادرة على رفع جدران من الرمال وتحريك الكثبان الرملية الكبيرة كالجبال ربما جرفت كلَّ كلماتي عن الحُب دون أن تترك أثرًا لها. ظلال؟ لقد احتفظتُ حتى بالظلال. أومن بالناس وتقاطُع الأقدار، وإلا فما كنتُ هنا الآن، وأنا على يقينٍ مِن أن لقاءنا كان له معنًى على أي حال، ولكن ما هو؟

هل وثِقتَ بي لدرجة أن تتذكَّر وتؤمن وترغب في أن أكون هنا غدًا، في انتظارك؟ هل آمنتَ بتفرُّد ما شعرنا به بعضنا تجاه بعض على الرغم من أنني لم أردَّ أبدًا على تلك الرسالة؟

هل تُحبُّني كما أُحبك؟ سأعرف غدًا، على أي حال، غدًا، سأبدأ في العيش مرةً أخرى؛ معك أو بدونك.

سيكون إما نهارًا أو ليلًا، لكن الحياة ستمضي قدمًا. إن شاء الله.

مايا كوكا، في سيوة

اليوم هو ذلك اليوم. ذلك اليوم. لا أحد يعرف شيئًا، لا أحد يرى الكون كلَّه يضطرب بداخلي، الجميع ينظرون إلى الكون في السماء. هذا أفضل.

على الرغم من كل شيء، نمتُ بعُمق واستيقظتُ وأنا في حالة فرح، وأنا أسمع الضجيج الذي يتصاعد من الشارع. أطللتُ من الشرفة ورأيتُ حشدًا مُلونًا من الناس من جميع أنحاء العالم، مُسلَّحين جميعًا بمناظير وتلسكوبات وآلات تصوير وأدوات من جميع الأنواع.

لم يكن هناك كرسي فارغ في مطعم عبده. تناولتُ الإفطار وأنا واقفة، ولكن في غضون فترة قصيرة انتقل كل هذا الحشد المُتنوِّع إلى الصحراء، حيث وُضِعت بالفعل مُعظم المعدَّات، وجلستُ، غير قادرة على إدراك ما إذا كان الوقت قد توقَّف أو إذا بدأ في الجريان.

جاء سلامة وعلوش وسائق الميكروباص ليُنادوني، كانوا على متن سيارة جيب ملك ابن عم عبد الله. أشعر الآن بأنني تحت رحمة الأحداث.

موعد يبدو مُحددًا في سياق العالم كلِّه والسنوات، عندما نصل إلى النهاية، لا يكون كذلك على الإطلاق: في أي ساعة من ذلك اليوم؟ والأهم من ذلك، أين؟

قرر أصدقائي الذهاب نحو «بير واحد» ووافقت، إنه المكان الأكثر أهمية، ربما. إنه المكان الذي قضينا فيه الليلة الأولى عندما أخذ بابلو بيدي. قررتُ ألا أُرهق نفسي بالتفكير. هناك الكثير من الناس، لا يُمكنني أن أبقى قلقةً بشأن النظر إلى كلِّ وجهٍ مُحاولةً أن أُحدق في عينَيه الفضيتَين. ما كان بإمكاني فعله، فعلتُه. الآن أسترخي كخشبٍ يطفو ويُهدهده التيار ويُحركه حتى أصل إلى شاطئي، أو الهاوية.

مُبهجة كالعادة الرحلة صعودًا وهبوطًا على الكثبان الرملية الذهبية المهيبة، قبل الوصول إلى عين الماء الفيروزية في بئر واحد. من المُستحيل ألا تضحك بصوتٍ عالٍ في المنحدرات، وألا تصمت مُتجمدًا في أكثر النقاط انحدارًا. خلف الكثيب الأخير، كانت الخيام والأشخاص مرئيِّين من بعيد. العديد من الخيام الصغيرة وواحدة، مُنفصلة عن الجميع، ولكنها مرئية بوضوح، كبيرة وجميلة. ردًّا على دهشتي، أوضح علوش أنها لا بد أن تكون لشخصٍ سعودي ثري جاء للاستمتاع بالكسوف.

لم يتبقَّ الكثير على اللقاء الأول، لحظة اختراق ظلِّ القمر الأسود للقُرص الشمسي. أودُّ الابتعاد عن الناس، على الرغم من أن لا شيء أكثر من هذا الذي على وشك أن يحدُث سيجعلنا جميعًا نشعر بأننا تحت نفس السماء اللانهائية: صغار، صغار جدًّا. أنا، سكان سيوة، هواة الفلك، السعودي الثري، خدَمه، نحن جميعًا حُبيبات رملية مجهرية تحت هذه السماء العظيمة التي يبدو أنها تبتلِعنا. لا يُمكنني التوقُّف عن التفكير في مدى سخافة أن نتحارب، وأن ننقسِم، وأن نتصادم، وأن نسخر بعضنا من بعض، وأن يُهمِّش بعضنا بعضًا، والأهم من ذلك أن نشعر بالتفوُّق على إخواننا، عندما يكفي أن تصعد إلى قمة كثيب وتنظُر إلى الأسفل لترى أننا لسنا سوى العديد من الخلايا الصغيرة المُتحركة في الكائن الحي نفسه، ضيوف كوكب رائع لدَيه مكان للجميع، لدَيه عطايا وعجائب لنا جميعًا، حُبيبات رمل صغيرة تشعر بأنها جبال.

الآن الساعة ١١:٢٠. أستطيع أن أرى من خلال الزجاج الداكن الذي اشتريتُه أن اللقاء الأول بين الشمس وظِل القمر حدث في الوقت المُحدد. يُعجبني أن أقول بين الشمس والقمر ... رسالة أخيرة إلى والديَّ وعمِّي ميكيله ونورا وفرانشيسكا، نفس الرسالة للجميع: «اقتربنا ... أشعر أنني في مركز الكون»، ثم أُطفئ الجهاز اللوحي. أُطفئ. أصمت. حان وقت الصمت. حان وقتُ أن تخترق الروح ما هو خارق. حان وقت الاستماع إلى الله والاستمتاع بعمله، داخلنا وخارجنا.

وهكذا تحقَّق التحليق البطيء للقمر نحو الشمس دقيقةً بدقيقة، وسحرَني لدرجة أنني لم أعُد أعرف ما إذا كان ما أعيشه حقيقيًّا أم من نسج خيالي. بينما تنتظر الشمس القمر، كانت تحترق بقوة، حتى على رأسي المُغطَّى بكوفية بيضاء.

أحتسي الشاي البارد، كان له مذاق مختلف، مثل رائحة النجيل ...

أعبث بالرمال الشديدة النعومة وغير الملموسة، شعرتُ بأنني جزء منها. قبل نصف ساعة من لحظة اللقاء الأولى، كان لون السماء قد تغيَّر بالفعل، وانخفضت الإضاءة. كان القمر يُغطِّيها جزئيًّا، وبدا الهواء مختلفًا، وتغيَّرت وتيرة الوقت.

في الساعة ١٢:٣٠ كانت السماء زرقاء كوبالتية، بدت غير طبيعية. أحاسيس قوية، يقينيَّات تبدو مُتزعزعة لتفسح المجال لجميع الاحتمالات، بما في ذلك الاحتمال الذي طال انتظاره لليل يتحقَّق في النهار، لمصيرٍ يتحقق وفقًا لرغبة سخيفة، ولكنها عميقة.

تألقَت كعيونٍ لامعةٍ الزُّهرة والمريخ وعطارد وأكثر النجوم سطوعًا. شعرتُ بالفعل بأنني سكرى من الإثارة، لكن الدمعة الأولى نزلت عند الساعة ١٢:٣٩ عندما تركَ قوسُ الضوء، الذي أصبح رقيقًا للغاية، نقطةً واحدةً مُتلألئةً تتألق لثانيتَين لا نهاية لهما في الظلِّ الذي يزحف: هذا ما يُسمُّونه «خاتم الماس» وأعتقد أنه أكثر جوهرة لا تُحصى ولا يُمكن تصوُّرها، التي يُمكن أن تُهديها لامرأةٍ مُحبة.

في تلك اللحظة، التي تسبق لحظاتٍ قليلة من الكسوف الكُلي، اعتقدتُ أنني مُستسلمة للإيحاء، لأنني بدأتُ في الاستماع إلى صوت بيانو.

ليس مجرد موسيقى، ليس مجرد بيانو، ولكن ما يصِلُني، حتى لو كان صدًى بعيدًا، هو موسيقاي، اللحن الذي ألَّفَه بابلو من أجلي منذ سنوات عديدة. أعتقد أنه يخرج من عقلي نفسه، من شدة الشوق، من شدة الإثارة. لديَّ دافع للوقوف والنظر إلى الأسفل، حيث يُوجَد المخيَّم، لكن الآن حان «الموعد»، إنه الليل، إنه العناق الكامل بين القمر والشمس!

أسقط على الأرض جالسة، فمي مفتوح، والدموع تسيل على وجهي: تاج من النور يُحيط بالقُرص الأسود للعاشقين، أخيرًا معًا. الليل يُعانق النهار وموسيقى بابلو تُعانقني، كحجابٍ مُستحيل من القشعريرة والدموع.

خيوط الهالة تَراقَصُ كألسنة اللهب وتُرسَم تطريزات في السماء الزرقاء الداكنة. الأفق مُطرَّز بألوان الشفق الدافئة التي بقِيَت على الأرض، كضوء يتسرَّب من خشبة المسرح تحت المخمل الأزرق لستارة مُغلقة.

أقل من أربع دقائق لا تُطاق استمرَّت خلالها الموسيقى في التحليق إليَّ، تُعذِّب قلبي وكل حواسِّي كعاصفةٍ تهبُّ بشكلٍ غير مرئي في لحظة بلا زمن وبلا يقين.

مع ظهور الشمس مرة أخرى من بين الحشود المُجتمعة في بئر واحد، يرتفع تصفيق مُؤثِّر لا يُغطِّي الموسيقى. الآن بعد أن أصبحتُ قادرة على رؤية أين أضع قدمي، حتى لو كان العرض مستمرًّا، أخذتُ أغراضي وأسرعتُ على طول جانب الكثيب للبحث، لأفهم ... يجب أن يكون بابلو هناك، في مكانٍ ما، مع جهاز ستريو أو مُشغل أقراص مضغوطة، وإلا فمِن أين تأتي الموسيقى التي أنا مُتأكدة من سماعها؟ يبدو الأمر وكأنني أعيش للحظةٍ ما حدث في دار الأوبرا، لكنني لا أريد أن ينتهي الأمر كما حدث آنذاك، هذه المرة يجِب أن أجِدَه، يجب أن أراه! وتوقفتُ فجأة، حيث فوجئت بشيءٍ لم يكن موجودًا من قبل. أنا مُتأكدة تمامًا، قبل أن تُظلِم السماء لم يظهر أي شيءٍ من هذا القبيل على الرمال عند سفح كثيبي.

إنها كتابة، مصنوعة من أوراق النخيل الطويلة الموضوعة لتشكيل الحروف. من الأعلى يُمكنني أن أُميِّز الكلمات بوضوح:

«ومنذ ذلك الحين أنا موجود لأنك موجود.
ومنذ ذلك الحين أنت موجود، أنا موجود، ونحن موجودان.
ومن أجل الحُب سأكون، ستكون، سنكون.»
(بابلو و) نيرودا

لا، هذا كثير جدًّا على رأسي وقلبي. إنه كثير جدًّا، يجب أن أستعيد إحساسي بالواقع وأفهم أنني لا يُمكنني أن أُصدِّق كل هذا. وأفكر أنهم ربما خدَّروني. ربما خدَّروني، بالشاي. لا يُمكن أن يكون أيٌّ من هذا صحيحًا، لكنني أعود إلى الركض، يجب أن أصل إلى النهاية.

الرمال تبتلِع قدميَّ وتجعل نزولي صعبًا. أسقط، وأنهض، وأواصل الزحف، وأقف على قدمي، وأتلوَّى، وأصل إلى الأسفل كالمجنونة. درجة الحرارة، التي انخفضت قليلًا خلال الكسوف، عادت إلى الارتفاع والجو حارٌّ بالتأكيد. أحاول أن أفهم مصدر الموسيقى، التي تستمر، مُؤثِّرة، بينما تعابير وجوه الحاضرين هادئة، شِبه مسحورة.

في هذه المرحلة، يقع نظري على الخيمة البيضاء الكبيرة التي نسبناها إلى سعودي افتراضي. أذهب مباشرةً إلى هناك، وأثناء اقترابي، تُصبح الموسيقى أكثر وضوحًا وقوة.

ترتجف ساقاي لكنني أشعر بكل قوة ذلك الكون الذي تخلَّلني للتو. أرفع الستارة التي أمام المدخل، وأجد نفسي أمام مشهد لم أتخيَّله أبدًا: بيانو كبير! بابلو كريم، يرتدي ملابس بيضاء، حُب حياتي موجود هنا، في وسط الصحراء، ويعزف على بيانو كبير حقيقي، لا يعلم أحد كيف تمكنوا من إحضاره إلى هنا!

لا بدَّ أن يكون هذا حلمًا، سرابًا، لأنه غير معقول. لا بد أنه تأثيرٌ من الارتباكِ الناتج عن الكسوف، ففي نهاية المطاف، عبر التاريخ، نُسِبت إلى هذه الظواهر أكثر التأثيرات تبايُنًا وكارثية، ربما أُصِبت بالجنون.

ومع ذلك، بابلو والبيانو موجودان هنا. يُمكنني أن أرى فيه علامات الزمن والنضج، لكن الجمال لم يتغيَّر. لا أعرف ما إذا كان عليَّ أن أتحدَّث أو أن أُناديه أو أن أستمرَّ في الاستماع إليه وهو يعزف، بينما يحاول عقلي أن يتصالح مع حواسِّي ومع قلبي المُضطرب. لكنه يرفع نظره، لقد رآني!

كم استرجعتُ، على مرِّ السنين، تلك النظرة الفضية!

أشعر أنني أكاد أفقد الوعي. وجهه أضاء، ووجهي اشتعل، وبقيَ الوتر غير مُكتمل بين المفاتيح، على الرغم من أنني ما زلتُ أسمع في داخلي ذلك اللحن الشديد العذوبة. ينهض من مقعده ويتقدَّم على ألواح الخشب التي تُشكِّل منصةً للآلة، ثم يتوقَّف على بُعد خطوة مني: مايا ... إذن صحيح أن النهار والليل يُمكن أن يلتقِيا!

– نعم، لكن الكسوف يستمرُّ بضع دقائق فقط، لن أدعك تذهب هذه المرة، حتى لو كلَّف ذلك شفقًا أبديًّا!

حيثما استطاعت الموسيقى، حيثما استطاعت القصيدة والطبيعة، لا يُمكن لأي كلمةٍ أن تقول ما يكفي. وهكذا نتعانق بقوة، بكل الحُب المكبوت في القلب لسنوات، مع الرغبة في عدم ترك قبضة اللمس التي تجعلنا أخيرًا شيئًا واحدًا، ليس فقط في القلب والذكريات المباركة، ولكن أيضًا جسديًّا. تعود المفاتيح البيضاء والسوداء لأصابعنا للبحث بعضها عن بعض والتشابُك، وتتداخل الأنفاس وتُخصِّب دموع الفرح صحراء حياتنا القديمة، المُقدَّر لها الآن أن تُصبح واحة مُزدهرة.

– بابلو، رسالتك ... لم أحصل عليها في وقتها، سامحني إن لم أرد عليك، كان ذلك خطأ ميدو! حتى آنذاك كنتُ سأقول لك إنني أُحبك وأريدك بجانبي!

– حقًّا؟ ميدو؟ لهذا السبب لم تردِّي؟ لكن قولي لي الحقيقة، أريد أن أسمعها منك: هل أتيتِ من أجلي؟ من أجل أسطورة النهار والليل؟ هل تُحبينني يا مايا؟ هل ما زلتِ تستطيعين أن تُحبيني؟

– لم أتوقَّف أبدًا عن حُبك ولن أفعل ذلك إلى الأبد. أتيتُ لاستعادة حياتي، على أمل أن تكون جزءًا منها أيضًا. أرغب في الحاضر والمستقبل، لقد تمسكتُ بالماضي لسنواتٍ طويلة جدًّا! حان وقت التطلُّع إلى الأمام. معًا!

لا تُرخَى قبضة العناق، ولا تتوقَّف القبلات بين الكلمات، وفجأة يبدو أن كل تلك السنوات لم تكن سوى دقائق، رمل بين الأصابع. للحُب أوقاته الخاصة. ليس مبكرًا أبدًا للقاء جديد. ليس متأخرًا أبدًا. قبلة واحدة تُبيد أيام الانتظار، وأيام الانتظار تشتاق لمزيدٍ من قبلات مَن ينتظر. هكذا هو الأمر، إنه إعصار، زوبعة، قوة قادرة على كل شيء. صحراء يجِب ملؤها، معجزة يجِب تحقيقها. نحن هنا. المنطق لم يكن ليُريد ذلك: الحقائق تقول إن تلك الرابطة لم تعُد تجمعنا. القلب، الذي يتحدَّث لُغته الخاصة والذي يبدو الآن أنه سينفجر، اعتمد على النجوم ودوراتها ونحن هنا، حيث بدأ كل شيء، حيث اصطفَّت النجوم ذات يوم بطريقةٍ سمحت بلقاءٍ بين شابَّين ينتميان إلى عالَمَين بعيدَين، كالنهار والليل.

والآن؟ الآن أرغب في أن أصرخ للعالم بأنني أُولَد من جديد، كما يصرخ طفلٌ يولد.

– لنبقَ هنا، اعزف لي مرةً أخرى، لنبقَ في بئر واحد حتى الغد، لنحبس أنفاسنا قبل العودة إلى العالم ... أريد أن أعرف كل شيءٍ عن هذه السنوات، أريد أن أعرف من أصبح الرجل الذي أُحبه.

– نعم، مايا. نعم. أريد أن أستعيد كل لحظةٍ ضائعة بعيدًا عنك.

توقَّف الزمن على الرغم من أن السماء غيرت لونها مرةً أخرى ومن الأزرق أصبحت وردية، ثم برتقالية، بنفسجية، زرقاء، سوداء، مُرصَّعة بالنجوم، سامية، ثم حمراء، صفراء وسماوية، لامعة، مُبهرة، كالحُب الذي تعتقِد أنه ضاع وتجِده، طازجًا، جديدًا، ولكنه قديم، كالسماء عند كل فجر.

– مرحبًا، نورا ... هل تسمعينني؟ أهلًا يا صديقتي، هل تعلمين مع من أنا؟ نعم. مع بابلو!

تضحك نورا بصوتٍ عالٍ من الفرح وتترك كلماتها تنزلق بالعربية تعبر عن السعادة وتُبارك لنا.

– لقد فعلناها، يا صديقتي! أترَين؟ القدَر يفعل ما يريد، ولكنه يتحقَّق في النهاية! أخبريني، وماذا عن الكسوف؟ هل كان هناك؟ هل رأيتم بعضكما هناك؟

– بالطبع، يجِب أن أُخبركِ بكلِّ شيء، لقد كان الأمر يفوق كل تصوُّر.

– حسنًا! وأنا التي لم أسمع أخبارك بالأمس، خشيتُ أن تكوني مُحبطة وحزينة للغاية لدرجة أنكِ لا تستطيعين الكلام ... يا للسعادة يا مايا، كم أنا سعيدة! متى ستعودين إلى القاهرة؟ هل سيأتي هو أيضًا؟

– سوف نُنظم الأمر الآن، ثم سأخبرك، لا تقلقي.

– آه! بالمناسبة! لقد بحثتْ عنكِ الليدي شيرلي، أرادت معرفة أخبارك، وأخبرتُها أنكِ في سيوة.

– كانت تعلم أنني سآتي إلى سيوة، ربما أرادت أن تعرِف ما إذا كان اللقاء قد تم، يا لها من سيدة لطيفة ...

– نعم، بالفعل. كانت محادثة لطيفة، إنها ودودة للغاية!

– يا لها مِن شخصٍ رائع حقًّا! اصنعي لي هذا المعروف يا نورا: اتصلي بها وأخبريها أن بابلو قد جاء وأننا أخيرًا معًا، أعلم أنها ستكون سعيدةً بذلك، والأشياء الجميلة يجِب مشاركتها، أليس كذلك؟

– بالتأكيد، سأتَّصل بها على الفور، وإذا عدتِ إلى القاهرة قبل أن تُغادر، سندعوها وزوجها لتناول الغداء عندي، أليس كذلك؟

– نعم! بكل سرور! سأُخبركِ نورا، شكرًا لكِ على كل شيء.

– مع السلامة يا جميلة، شكرًا لكِ على هذه السعادة.

رسالة نصية إلى فرانشيسكا، واحدة إلى أُمي وواحدة إلى العم ميكيله: «جهِّزوا الشمبانيا، لأننا سنحتفِل بمجرد عودتي! أنا سعيدةٌ بجنون! سعيدة وعاشقة».

اتصل بابلو بوالدَيه، مبتهجًا، وأشعر بالتأثر عند سماعُه يتحدث عني مع عمر وآنا، اللذين يبدو أنني أعرفهما منذ مدة طويلة. يبدو أننا بالإضافة إلى مشاركة فرحتنا مع مَن يعرف كم تمنَّيناها، نبحث عن تأكيدات للواقع، لأن كل شيءٍ جميل لدرجةٍ يصعب تصديقها.

نعود إلى القرية، يُحيِّينا الجميع بابتسامات عريضة. الجميع يعلم. أولئك الذين ساعدوا بابلو في تجهيز الخيمة، وحمل البيانو، وكتابة اللافتة من أوراق الشجر، شاركوا الانتظار في صمت، لكنهم كشفوا بعد ذلك وحكوا. فقط أولئك القلائل يعرفون، من بينهم

أسامة، وقد تم تجنيدهم في الإسكندرية. وصلوا في الصباح نفسه مع بابلو. لم أقابل أسامة، للأسف. لو لم أكن حاضرة، لكانوا سيُخفون كل شيءٍ في غضون دقائق قليلة وسيختفي بابلو دون حتى أن يُعلِم جدَّه بأنه كان في سيوة.

لكن الجدَّ كان يعلم ذلك على أي حال. نذهب بسرعة إليه الآن، وهو ينتظرنا. ينتظرنا منذ الأمس. يُعانقه بابلو بقوة وينظر إلينا مُتأثرًا ويقول: «الآن يُمكنني أن أموت في سلام!»

– لا، يا جدِّي، الآن ستتمكن من العيش بسلام، وحاول أن تعيش طويلًا، فالأشياء الجميلة بدأت للتو، أليس كذلك يا مايا؟

– كان يعلم كلَّ شيءٍ يا بابلو، كان يعلم ذلك منذ اليوم الأول … ويتَّجِه نظري إلى الكوب الأزرق، الموضوع جنبًا إلى جنبٍ مع كوبَين آخرين على الصينية فوق الطاولة في ظلِّ النخيل، ثم التمور الحمراء والبسكويت بالعسل. في الهواء رائحة القهوة والهيل: الجد كريم كان ينتظرنا، وأنا لم أعُد أتفاجأ.

– ابنك وزوجته يُسلِّمان عليك، تحدثتُ معهما منذ قليل. قالا لي أنْ أقول لكِ إنهما سيأتيان لزيارتكِ قريبًا جدًّا.

يُجيب الشيخ بهدوء: أعرف كيف أنتظر. انتظرتُ دائمًا. كلُّ شيءٍ يعود. عندما يكون الحُب هو المُحرك، كل شيء يعود.

أستمتعُ مع القهوة بالصفاء الذي يلوح في الأجواء ويتجسَّد في موسيقى بابلو التي تخرج من البيانو وتخترقنا وتجتاحنا كروحٍ خفيفة، ثم تُحلِّق وتنتشِر على أجنحة الهواء نحو القرية.

حان وقت الغروب تقريبًا، الآن، عندما نعود نحو شالي. تُضاء المصابيح، وتمتلئ الشوارع بالمسافرين الفلكيين الذين بقوا بعد الكسوف. يقترب مني وجهٌ مألوف، نعم، إنه هو بالتحديد! أمير! أمير، يا أمير الصحراء العزيز!

يجري نحوي مُشرقًا ويقول: سمعتُ الموسيقى، وفهمتُ أنه هنا وكنتُ أعرف أنكِ أيضًا هنا! ما أجمل رؤيتكما معًا بعد سنواتٍ طويلة! أشعر بصدقِه، أراه في عينَيه الزرقاوَين وفي العناق العفوي لبابلو: لقد فقدتَها ووجدتَها، زرزورة الخاصة بك، يا صديقي. لا تدع رمال العالم تُبعِدها عنك مرةً أخرى. بعض المعجزات لا تحدث مرتَين.

– لن يحدُث ذلك، كن متأكدًا.

يقول بابلو ذلك وهو يُمسِك بيدي بقوة.

– في بعض الأحيان يبدو لنا أنَّنا ارتكبنا أخطاءً كبيرة، خيارات خاطئة، ولكن الله يعلم أننا لم نكن مُستعدِّين وأن الحياة لا يزال يتعيَّن عليها أن تُعلِّمنا شيئًا مهمًّا. عند هذه النقطة، تُتاح الفرصة مرة أخرى.

– صديق حكيم، هذا صحيح. وماذا عنك؟ هل أنت مُستعدٌّ لزرزورة الخاصة بك؟

يبتسم أمير وينظر بعيدًا. عصفور أبيض وأسود يستقرُّ على كتِفه، يبدو أنه وصل من العدم: واحد من أولئك الذين يُسمُّونهم زرزور. ثم يُحلِّق ويختفي. تلتقي عيناي بعينَي أمير وأشعر بأنه يعرف أين هي. كنتُ أظن دائمًا أنه وجد زرزورة، لكنني لم أرَ هذه النظرة من قبل. أبقى عاجزة عن الكلام وأراها في تلك العينَين الشفافتَين والعميقتَين: أرى المدينة البيضاء التي تتألَّق بالذهب والأحجار الكريمة، والقباب اللامعة، والأقواس، والنوافير. أنا مُندهشة وغير مُصدِّقة. لا أعرف كم استمرَّت هذه الرؤية السحرية لكنها كانت رائعة. أُمسك بيد بابلو مرةً أخرى ودون حتى كلمة واحدة كشفنا نحن الثلاثة عن شيءٍ مُذهل ولن يخرج أبدًا من أفواهنا؛ سيبقى محفورًا في القلب.

– مرحبًا، نورا! أنا وبابلو سنُغادر غدًا صباحًا، وإذا سارت الأمور على ما يُرام سنكون في القاهرة مساءً. هل يُمكنه المبيت عندكِ أيضًا؟ ثم سنُرتِّب الأمور …

– بالطبع! ستجدون كل شيءٍ جاهزًا ويُمكنكم البقاء طوال الوقت الذي تريدونه.

نورا لطيفة ومُستعدَّة لاستقبالنا دائمًا. نُغادر الواحة حيث تعيش الملائكة، ولكن هناك الكثير منهم مُنتشرون في جميع أنحاء العالم وأعتقد أن نورا يُمكن تعريفها على أنها كذلك.

غربت الشمس بالفعل عندما وصلْنا مُرهقين إلى الزمالك. الحافلة التي انطلقت من ساحة سيوة تركتْنا في مرسى مطروح بعد رحلةٍ سلسة. كنتُ أعتبر هذه المدينة دائمًا نقطةً لتغيير الحافلات على طول طريقي من القاهرة إلى سيوة والعكس، دون التفكير في مدى روعة شواطئها البيضاء المُطلَّة على البحر الأبيض المتوسط. حسنًا، مع بابلو كان الأمر لحظة، لحظة خاطفة من النافذة حيث لمحتُ جزءًا من اللون الأزرق ضيقًا بين المنازل، في نهاية شارع. بمُجرد وصولنا إلى المحطة، قبل حتى أن نبحث عن الحافلة المُتجهة إلى الإسكندرية، استقللنا أول سيارة أُجرة وطلبْنا من السائق أن يُوصلنا إلى البحر. تركنا حقائبنا وأحذيتنا تحت قاربٍ مُقلوبٍ وبدأنا في الركض كالأطفال على الرمال. يا له من إحساسٍ بالحرية الجديدة، والحياة، والسعادة! كانت الشمس دافئةً لكن المياه المُتجمدة في أواخر مارس أوقفت جرياننا بمُجرَّد أن وصلتْ أقدامنا إلى الماء. تقدمتُ خطوة. أمسكَ بابلو بيدي ليمنعني.

– إنها باردة جدًّا. رئتاكِ …

– لكنَّني شفيتُ منذ سنوات!

لقد فاجأتني رقَّتُه وأثرَت فيَّ. مشينا طويلًا جنبًا إلى جنبٍ على الشاطئ، تاركين تلك اللمسة البلورية تصِل إلينا، واستنشقنا رائحة البحر، وشعرنا بأننا في منزلنا. استلقَينا على الرمال للاستماع إلى ذلك اللحن، للاستمتاع بتلك اللحظات المثالية. قد يبدو الأمر غير رومانسي، لكنَّ الجوع هو الذي أعادنا إلى الواقع. بعد أن استعدْنا حقائبنا، عُدنا إلى محطة الحافلات، واشترَينا فولًا وطعمية على طول الطريق. لحُسن الحظ، كانت هناك حافلة متجهة إلى الإسكندرية على وشْك المغادرة، فاستقللناها على الفور، سعداء، نضحك وأفواهنا مُمتلئة وأيدينا مُلطَّخة بالزيت!

من الإسكندرية، دون توقُّفٍ للتفكير أو استعادة الذكريات، ألقَينا بنفسينا بسرعة في أول حافلة صغيرة منطلقة نحو القاهرة. أشعر أخيرًا بأن ذلك الغلاف المصنوع من الذكريات الذي عزَلني عن العالم لسنواتٍ طويلة يتحطَّم وينزلق بعيدًا ليترك بشرةً جديدة تتنفَّس، قادرة على القشعريرة واللهب، متوقدة.

الخاتمة

من الأشياء الجميلة في هذه المدينة الكبيرة أنه في أي مكانٍ وفي أي وقتٍ يوجَد تاكسي مُستعدٌّ لخدمتك مقابل مبلغٍ قليل من المال. الوقت الذي تُضيعه ليس في انتظار وسيلة مواصلات، بل في عبور الشارع! يبدو أن حركة المرور في القاهرة لا تخضع لقواعد، أو على الأقل، لم أرَ أي قواعد من قبل: السيارات تسير مُطلِقةً أبواقها في كلِّ مسار وفي كل اتجاه، ويتداخل بعضها مع بعض، وتندفع، ويحتكُّ بعضها ببعض، وتُطلِق جميع أنواع الانبعاثات السامة والأصوات الرهيبة. يتطلَّب عبور الشارع شجاعةً ومبادرة وسرعة وبراعة ووقاحة أحيانًا. أنا لستُ مُتمكنة تمامًا من كل هذه الصفات، لذلك، على الرغم من السنوات التي قضيتُها في القاهرة، ما زلتُ أستغرق وقتًا طويلًا للوصول إلى الضفة الأخرى من الشارع، خاصة في وسط المدينة. عبور ميدان رمسيس الكبير، حيث تصِل وتغادر الحافلات الصغيرة، هو حقًّا عمل طويل وصعب. عبور الصحراء من سيوة إلى الساحل أمرٌ شاق، ولكن التنقُّل في القاهرة، خاصة في ساعاتِ الذروة، يُمكن اعتباره كذلك! هذه المرة أيضًا نجحنا! أضغط على جرس باب نورا، يسأل صوتها في جهاز الاتصال الداخلي من بالباب. «نحن، يا صديقتي!» أُعلن بفارغ الصبر. الباب مفتوح بالفعل، يستقبلنا البواب بلُطف ويُرحِّب بنا. نصعد إلى الطابق الخامس، الباب مُوارب. «هل يُمكن الدخول ...؟»

لا أُصدِّق ذلك، يا لها من مفاجأة! أجد نفسي أمام الوجه البشوش والمُشمس لليدي شيرلي العزيزة وهي تتقدَّم بأذرُع مفتوحة. بينما أُعانقها بمودة صادقة، أرى خلفها أنطونيو المُخلص ونورا. ثم شريف، وبابلو يُصافح بالفعل الرجال ويُعرِّف نفسه، لكن ...

من المطبخ يخرج، مُترددًا، ميدو! أنفصل عن حضن شيرلي، وأنا في شدة الانفعال وأبقى لحظة بلا كلماتٍ وأنا أواجه الشخص الذي وجهتُ إليه أسوأ أفكاري في الآونة الأخيرة. أُحاول أن أفهم، أنظر إلى نورا، وهي تهزُّ كتفَيها بنظرة تطلُب العفو. لكن بابلو اقترب منه بالفعل ويُصافحه بكلتا يدَيه.

تكسر شيرلي الصمت: مايا، آمُل ألا يُزعجك غزوُنا. لقد أخبرَتْني نورا عن الرسالة وتخيلتُ مشاعركِ تجاه ميدو، غضبك واستياءك. ومع ذلك، كان يجب أن يكون الأمر هكذا بالضبط. أنتِ وبابلو كريم معًا أخيرًا. وكان يجب على ميدو أن يعرف ذلك. بحثت عنه نورا، وكان على وشك المغادرة إلى فرنسا مع عبءٍ كبيرٍ يَثقُل عليه.

تُتابع نورا: أخبرتُه أنكما عثرتما أحدكما على الآخر أخيرًا فلم يتوقَّف عن شكر الله والتعبير عن ارتياحه، لدرجة أنني فهمتُ مدى مُعاناته عندما أدرك ما تسبَّب فيه. لذلك دعوتُه، فأجَّلَ سفره للقائكما. في بعض الأحيان تُصلح الأمور نفسها، مثل الكوب الأزرق للجد كريم.

يُضيف بابلو بينما يُعانق ميدو الذي لم يستطع حبس دموعه: أجل مثل الجروح ومثل العلاقات. يُمسك بابلو وجهه بين يدَيه ويقول: لكنني أراكَ مُسنًّا، يا صديقي!

– لقد هرمتُ في هذا الأسبوع أكثر مما فعلتُ في عشر سنوات!

وينتهي التوتر، نضحك، نسترخي.

– ميدو، كيف تنوي سداد دينِك؟ مع الأخذ في الاعتبار أنني جنَّبتُكَ بالفعل لكمةً في أسنانك.

يُجيبني: أنا في انتظاركما في باريس! أنتِ وبابلو ضيفاي في باريس طوال المدة التي تُريدونها!

– دعوة مُغرية! يُمكن قبولها بالتأكيد!

– نورا وشريف، أنطونيو وشيرلي، هذا ينطبق عليكم أيضًا! أنا مدينٌ لكم بالكثير، لقد أدفأَتْ لفتَتُكم هذه قلبي المُتحجِّر منذ مدة طويلة جدًّا، والمتشكك دائمًا في قيمة العلاقات الإنسانية. أنتم لا تعرفون ماذا يعني كل هذا بالنسبة لي، حقًّا، شكرًا أيها الأصدقاء، سأكون أفضل، بفضلكم. شعرتُ بعبء الندم، وشعرتُ بفرحة المغفرة، والقبول، وشعرتُ بروحي تنتفض بعد أن اعتقدتُ أنني لا أملك روحًا، حيث انهمكت في العيش دون أن أرى الآخر حقًّا، دون أن أستمع، دون أن أتألَّم ودون أن أفرح. الآن فقط أُفكر في ابني وأعلم أنَّني

لا أريدُه أن يكبر هكذا. ربما لم تكونوا مُستعدِّين لتكونوا معًا، لكنني بالتأكيد كنتُ أنا من يحتاج إلى هذا الدرس، يا شباب.

ثم تعود الدموع لتمتلئ بها عيناه.

أنا سعيدة.

تريد شيرلي تنظيم حفلٍ موسيقي خيري كبير في توسكانا وتودُّ أن يُحييَ بابلو الحفل. في صعيد مصر، تعرفتُ على راهبات يعتنينَ بالأطفال الأيتام ووعدتُ بمساعدتهن. هؤلاء هم أصدقائي.

أجري لأتحمم، فنحن جائعون!

ارتديتُ فستاني الأجمل، الحريري الأزرق المُطرز بلآلئ صغيرة للغاية. أضواء القاهرة مُضاءة بالكامل الآن؛ الشموع المعطرة لنورا مُضاءة أيضًا على الشرفة مع الأرجوحة والياسمين. المائدة مُعدَّة. مِن هنا يُمكن رؤية النيل يُعانق جزيرة الزمالك، والأضواء تومِض على تلك المياه المُظلمة: النجوم لا تظهر هنا، لكنني أعلم أنها موجودة. الحُب يكون حتى دون رؤية، والإيمان يكون حتى دون معرفة، والذهاب إلى الجنة يكون حتى دون موت.

مايا العزيزة

أكتب إليكِ مِن جهاز الكمبيوتر الخاص بمكتبة «فيليبرو» بينما تساعد عمتكِ ميريام السيدة بوزولينو في اختيار رواية لتقديمها هدية لحفيدها.

إنه يوم ربيعي جميل هنا في سان جايتانو؛ الشمس تُدفئ ظهري وهو أمرٌ مُمتع حقًّا بعد الشتاء الطويل والشاق الذي مرَرْنا به للتو. لكن لا يُمكنني الشكوى، سواء لأن الأسوأ قد مضى، أو لأنني أُبارك سقطتي التي خلقتِ الظروف لذهابكِ إلى موعدكِ. لو لم يكن كلُّ ما حدث، بما في ذلك حديثي عن أمورك الخاصة مع أصدقاء المستشفى، لربما استمررتِ في التراخي والتخلِّي عن جزءٍ منكِ، ذلك الجزء المُتعطِّش للعالم والحياة والحب. يجب علينا دائمًا أن نجعل البذور التي تنثرها الحياة أمامنا تُؤتي ثمارها، حتى تلك التي تبدو نكباتٍ وصلبانًا، حتى لو بدت وكأنها حجارة حادة تُعيق الطريق. نحن أنفسنا بذور في حياة الآخرين ونحمِل إمكاناتٍ هائلة. لنُعطِ أفضل ما لدَينا، ولنؤمن، ولنُكرم هبة الحياة التي مُنحت لنا!

أنا سعيد. قريبًا سأضع قبعتي المصنوعة من القش وأنطلق إلى المنزل مُستندًا على عصا المشي التي، على الرغم من خطوتي غير المؤكدة، تمنحني هالةً أنيقة وأرستقراطية. كالعادة سأمرُّ على طول الشاطئ لأتبادل أطراف الحديث مع بحرنا، وسأُحيِّي رفاقي القدامى الجالسين أمام المقهى، وبعد الغداء سأجلس تحت شجرة الزيتون القديمة. نعم، تلك التي سقطتُ منها. يُمكنني أن أعتبرها بوابة كشفت لي صفحةً مُهمة عن معنى الحياة.

غدًا ستصل لورينا من قبرص مع صديقها رسام الوشوم، وأعتقد أنني سأُضطر إلى البدء في تسميته «صِهري»، حيث إنها قررت أن تُقدِّمه لنا كخطيبٍ لها. نعم، يبدو أنهما يرغبان في الزواج وربما ستكون هذه فرصةً للقاء حبيبك بابلو أيضًا، الذي يبدو أنني أعرفه منذ مدة طويلة!

لقد تحدَّى النهارُ والليلُ الكونَ لتعودا معًا.

وما هي الحياة إن لم تكن التعايش بين النهار والليل؟ النور والظلال، الفرح والحزن، الواحات الخضراء والصحراء ...

الحُب هو المفتاح. الحُب هو الطريق والقوة للتغلُّب على كل تحدٍّ، بتواضُعٍ وشجاعة.

مايا العزيزة، لقد أبحرتِ على متن سفينة حياتكِ، أتمنَّى أن تكون الريح مُواتيةً لكِ والبحر هادئًا، هنا في مكتبنا، في «فيلييرو»، مكانك محفوظ دائمًا، لكن الرواية الأجمل بين هذه الرفوف أهديتِها لنا أنتِ.

مع خالص حُبي، العم ميكيله

هنـــداوي